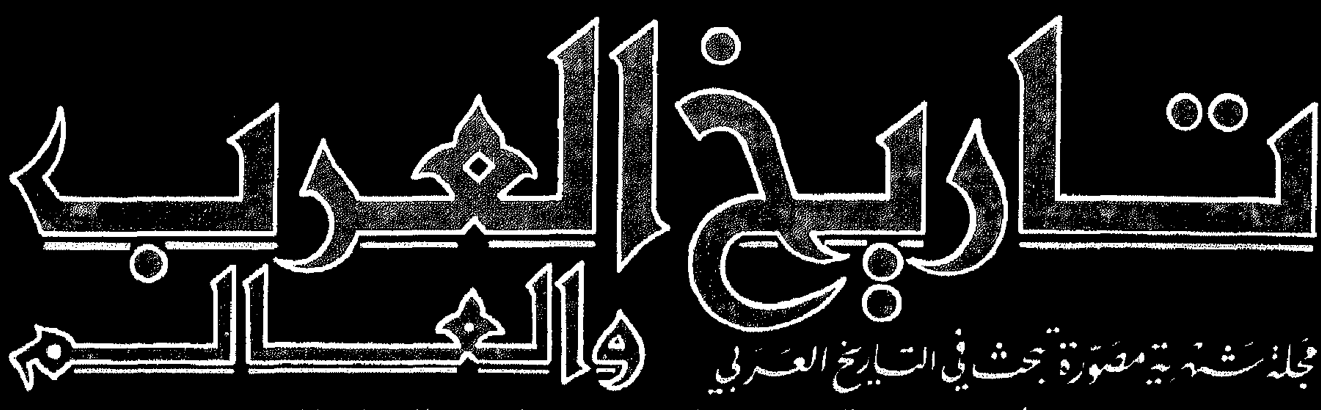


السنة التاسعة ● العددان ٩٩/١٠٠ ● كانون الثاني (يناير) ــ شباط (فبراير) ١٩٨٧ ● الموافق جمادى الأولى ــ جمادى الآخرة ١٤٠٧هـ



العددان ٩٩/١٠٠ • كانون الثاني ــ شباط ١٩٨٧

تصدر عن دار النشر العربية للدراسات والتوثيق في منتصف كل شهر

صاحبها ورئيس تحريرها فاروق البربير

المستشار د. أنيس صايغ المدير المسؤول . محمد مشموشي

قسم التوثيق والأبحاث شذا عدرة

قسم التوزيع والاشتراكات علي عبدالساتر

المخرج الفني سالم زين العابدين

الانتاج مطبعة المتوسط ش.م.م.

التوزيع الشركة اللبنانية لتوزيع الصحف والمطبوعات.

ثمن النسخة

لبنان	٢٠ ل.ل.	سوريا	٢٠ ل.س.
العراق	١ دينار	تونس	١,٥ دينار
السعودية	١٠ ريال	الكويت	١ دينار
الأردن	٨٠٠ فلس	الامارات	١٠ درهم
البحرين	١ دينار	قطر	١٠ ريال
مسقط	١٠٠٠ بيزة	بريطانيا	١,٥ جنيه
صنعاء	١٠ ريال	ليبيا	١ دينار
		مصر	١ جنيه

الاشتراكات
(بما فيها أجور البريد الجوي)

- في لبنان: للأفراد ٢٥٠ ل.ل.
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ٥٠٠ ل.ل.
- في الوطن العربي: للأفراد ٣٥ دولاراً
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ٧٥ دولاراً.
- خارج الوطن العربي: للأفراد ٥٠ دولاراً.
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ١٠٠ دولاراً.
- اشتراك تشجيعي ٥٠٠٠ ل.ل.
- تدفع قيمة الإشتراك مقدماً نقداً أو حوالة مصرفية

ص ب ٥٩٠٥ ــ بيروت، لبنان ● بناية أبو هليل
شقة ١١ ● شارع السادات ــ تلفون ٨٠٠٧٨٣

HISTORY OF THE ARABS AND THE WORLD

EDITED BY FARUK BARBIR
PERIODICAL ILLUSTRATED
MAGAZINE PUBLISHED FROM SADATE ST.
ABOU HILEIL BLG. P.O.B. 5905 TEL. 800783
BEIRUT , LEBANON

Vol. 9 • No. 99/100 • Jan – Feb 1987

ANNUAL SUBSCRIPTION : $100 (INCLUDING $25 FOR ADDITIONAL AIR MAIL CHARGES)
MAIL ALL COMMUNICATIONS, INCLUDING SUBSCRIPTIONS TO:
«HISTORY OF THE ARABS AND THE WORLD»

في هذا العدد

■ المقالات الواردة توزّع حسب التبويب الفني للمجلة ولا علاقة لذلك بمكانة الكاتب مع حفظ المكانة الإجتماعية للكتاب. تراعى في الألقاب الصفات العلمية فقط ■





"تاريخ العرب والعالم" في عامها التاسع

مع هذا العدد تدخل مجلة «تاريخ العرب والعالم» عامها التاسع... الأعوام الثمانية الماضية كانت حبلى بالأحداث التاريخية البارزة من الخليج إلى المحيط.. فمن حرب الصحراء إلى حرب تشاد إلى كامب دايفيد، إلى حرب لبنان القذرة، وأخيراً في الطرف الآخر من أرض العرب، حرب الخليج التي تعمل على استنزاف العرب والمسلمين على جميع المستويات....

في هذا الخضم الخطير من الأحداث، يقف المواطن العربي لاهثاً أمام واقعه الفاسد مستهلماً تراثه وتاريخه المجيد وانتصاراته الرائعة. ويحق للفتى العربي وللفتاة العربية أن يتساءلا: أين العرب؟ وأين أصبحت مشاريع الوحدة التي كانت تملأ السمع والبصر في أواخر الخمسينات والستينات؟ أين أصبح مبدأ عدم الانحياز؟ أين أصبحت مشاريع التكامل العربية الاقتصادية؟

وفي هذا الجو الخانق، نجد إسرائيل عدوتنا اللدودة والمحتلة بالقوة والقهر أرضنا العربية، تخطط مع المعسكر الغربي، وعلى رأسه الولايات المتحدةالأميركية، لحرب النجوم.. بينما نحن نتلهى بصغائر الأمور وبالحروب والنزاعات السياسية والطائفية والاقتصادية التي تستنزفنا وتستنزف طاقتنا، كالطوق الحديدي الذي يلتف حول أعناقنا، إلى أن يقضي على البقية الباقية من آمالنا وأحلامنا.. ولعل ما نواجهه في هذه المرحلة الحاسمة من تاريخنا هو «الهوة بين واقعنا وتراثنا وبالتالي شعورنا بالتبعية «للأجنبي» سواء أكانت هذه التبعية سياسية أم اقتصادية أم عسكرية أم ثقافية.. وهنا التحدي الكبير الذي يواجهنا ويفرض علينا إحياء التراث العربي والإسلامي وتطويره مع الاستفادة من الانجازات العلمية الحديثة.

ولقد رافقت حالة التردي التي نعيشها، حملة أجنبية شملت مختلف نواحي الحياة العربية والاسلامية هدفها تفتيت الأمة اجتماعياً وسياسياً وثقافياً، بالاضافة إلى التركيز على أمر هام، وهو محاولة تأريخ التاريخ العربي الاسلامي، على أساس تاريخ حقبات مختلفة ومنفصلة الواحدة عن الأخرى، وليس على أساس تاريخ أمة وعقيدة متكاملة الجوانب الحضارية. وقد هدفت الحملة، إلى التركيز على الجوانب السياسية لاغية دور الأمة في العملية الاجتماعية. ثم انتقل التفتيت إلى مرحلة متقدمة، عندما أصبح التركيز على تاريخ المذاهب داخل الاسلام، وهنا يكمن الخطر الأكبر على الأمة وعلى مستقبلها وتاريخها.

وأخيراً، وعلى الرغم من حرب لبنان القذرة وعلى الرغم من التفتيت الذي يلفنا، وعلى الرغم من الصعاب الأمنية والاقتصادية والسياسية التي نواجهها يومياً، فإن مسيرتنا لن تتوقف وستبقى مجلة «تاريخ العرب والعالم»، بعون من الله تعالى، وبدعم من المشتركين والقراء والأصدقاء، مرآة للتراث الأصيل، تعكس أماني الأمة في الوحدة والكرامة والعدالة الاجتماعية.

فاروق البربير

الحقيقة والمجاز في رحلة بلاد الشام ومصر والحجاز

تحقيق: أستاذ د. عمر عبد السلام تدمري

(الحلقة الثانية والأخيرة)

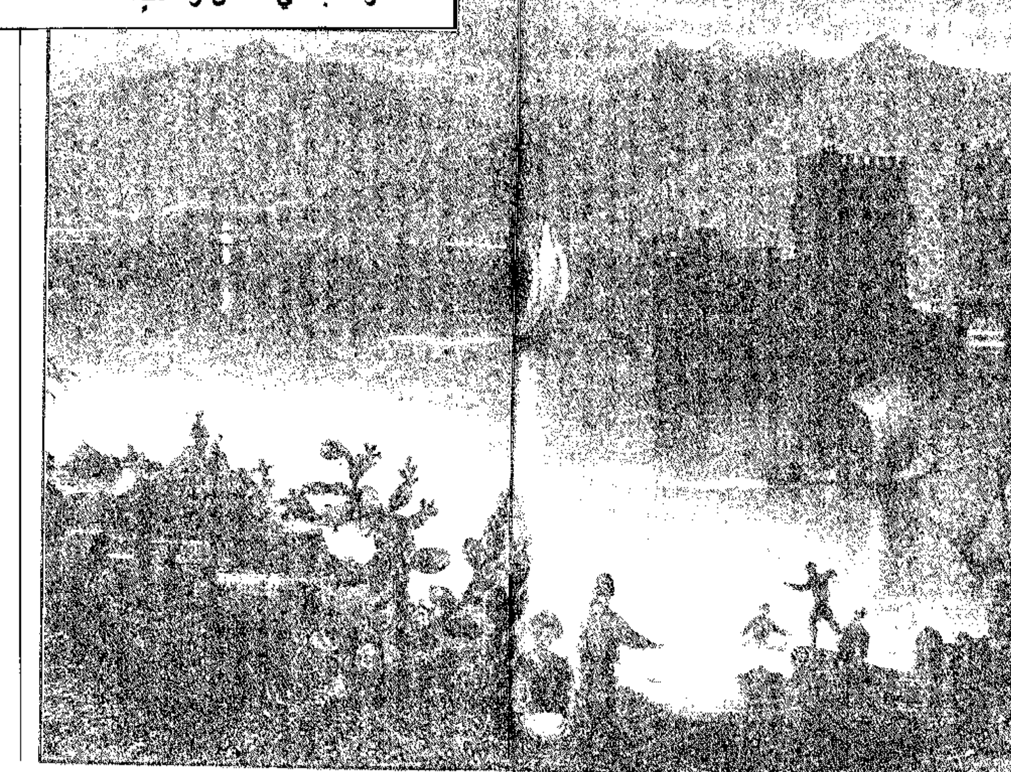
(رحلة النابلسي إلى لبنان)

(١١٠٥هـ - ١٦٩٣م)

يُعتبر الشيخ «عبدالغني النابلسي»، المولود في دمشق سنة ١٠٥٠هـ / ١٦٤١م، والمُتوَفَّى فيها سنة ١١٤٣هـ / ١٧٣٠م، من كبار رجالات التصوّف، ومن اشهر الرّحالة في عصره، ومن اكثر المؤلّفين نتاجاً، بحيث أرْبَتْ مؤلّفاته على المئة مصنَّف، وقيل على المئتين، وقيل إنها بلغت ثلاثمئة بين رسالة وكتاب ومجلّدات.

ويهمّنا هنا، من مؤلّفاته، كُتُب الرحلات التي صنّفها، وخاصّة عن زيارته إلى «لبنان»، حيث نجد فيها كثيراً من المعلومات التاريخية والعمرانية والثقافية، وغير ذلك من المعلومات التي لا نجدها في المصادر التاريخية المتداوَلة.

وللنابلسي خمس رحلاتٍ:



(بيروت)

ثم دخلنا إلى بيروت المحروسة، ذات الربوع المأنوسة ، وحصل لنا غاية الإكرام، والسرور التامّ.

قال الحافظ ابن عساكر في «تاريخ دمشق»: «بيروت: فَيْعُول، من البَرْت وهو الرجل الدليل». (انتهى).

وفي «القاموس»[75]: «البُرْت: بالضمّ، السُّكَّر الطَّبَرْزَد.. والرجل الدليل[76] الماهر.. وبيروت بلاد الشام». (انتهى).

وكان نزولنا في بيروت عند الصديق الصادق.. الحاج مصطفى المشهور بابن القصّار[77]..، وهو رجل من أهل المروءآت والكمال، فأكرمنا غاية الإكرام. وبتنا عنده تلك الليلة في أتمّ حضور، وأكمل حبور، إلى أن أصبح الصباح. وكان ذلك اليوم يوم الأربعاء الخامس والثلاثين، سادس صفر، فاجتمعنا بالحسيب النسيب صديقنا السيد أحمد المشهور نسبه ببيت عزّالدّين[78].. وقد كان قدِم علينا إلى دمشق الشام، في ما مضى من الأيام، في سنة ١٠٩٣، وكان يحضر دروسنا ويلازم عندنا..

وهو رجل من الأفاضل الكرام.. فجلس عندنا حصّة من الزمان، وانشدنا من لفظه لنفسه هذين البيتين، تاريخ وفاة المرحوم الولي.. الشيخ عيسى الصالحي الكناني(٧٩)، شيخ الخلوتية بدمشق الشام، وهما قوله:

حَسْبُنا اللّهُ تعالى وكفى
من هموم أعقبت همّاً وبُؤسا
قد أصِبْنا يا لَعَمْري حسبما
جاء في تاريخه بالشيخ عيسى

والسيد أحمد المذكور له قراءة على والدنا المرحوم العلّامة اسماعيل ابن النابلسي المتقدّم ذِكْره وترجمته في هذا الكتاب. وأجازه وكتب له على نَسَبه الشريف، وكان مولده في سنة ١٠٢٢، فيكون بلغ من العمر ٨٣ سنة، فانشدنا من لفظه لنفسه قوله:

ثمانون عاماً فما فوقها
مضت يا لَعَمْري بلا فائدة
تقضّت ولم أكُ اشعر بها
كأنّي بها ساعة واحدة
ايا ضيعة العمر حيث انقضى
بآراء سامجة فاسدة
فيا ليت ما اهتمّ به والدي
ويا ليتها حارت الوالدة

وانشدنا أيضاً من لفظه نفسه قوله الدُّوبيت:

صبري وتجلُّدي باسماعللا
والقلب متيَّم باسماعيلا
لو قيل: تسلّ عنهما يا هذا
قالت عيناي: لا وأسْماعي لا

وهو من قول بلديِّنا الشيخ أحمد العناياتي النابلسي(٨٠) الشاعر المشهور، في ديوانه المأثور، من الدُّوبيت أيضاً:

صبري عدمٌ من حبّ اسماعيلا
لا تحسبه في حبّ اسماعيلا
كم قلت له بمن تسمّيت به
أنْعِمْ بنعَمْ، فزاد، اسماعي لا

ولقد كان بين السيد احمد المذكور وبيننا مؤآنسات أدبية، ومطارحات شعرية، في ايام اجتماعه بنا، وتردُّده إلينا، مع كمال محاضرته.

وقد جمع لُطْفاً ولِينا، وفيه نباهة اعتقادية، وطرف جذب الهيئة. وقد أخبرني مرّةً أنه رأى في الواقعة المناميّة منشداً ينشده هذا البيت بهذه الطريقة المَرْضِيّة:

الكلّ إشارة وأنت المعنى
يا من لا إله إلّا الله

وكان إذ ذاك يحضر مجلسنا بالبيت في دور وده بلادنا دمشق الشام، وقد سمع مرّة منّا هذين البيتين من بعض أهل العرفان، هما بالمناسبة في الدرس، وهما من الدُّوبيت:

ما آدم في الورى وما ابليس
ما عرش سليمان وما بلقيس
الكلّ إشارة وأنت المعنى
يا من هو للقلوب مغناطيس

ثم طلب منّا ان ننظم له موشّحاً تكون لازمته البيت الأول، لتنشده الفقراء على ذِكْر الله تعالى كما هو طريقتهم، فأجبناه إلى ذلك، فقلنا:

إنّ المولى في كلّ حال معنا
لولاه لما نلنا الهدى لولاهُ
ما الروح وما الجسم الذي في المغنى
ما النفس ما الأشكال والأشباه
ما القرب ما أهل المقام الأسنى
ما البعد ومن بالجهل فيها تاهوا
(الكلّ إشارة وأنت المعنى
يا من هو لا إله إلّا هو)(٨١)

ولقد انشأ في هذا اليوم قولنا من النظام، في مدح ملك البلاد وما في محاسنها من الانتظام:

بيروت قد حُرست بغير عناية
من ربّها في حسنها المعروف
بلد أمين لا يُشان بريبة
ركن العفاف وملجأ الملهوف
وبها البساتين التي اشجارها
ركعت مع النسمات ذات صفوف
بالطّيب تنفح كلّما هبّ الصّبا
حسن لابصار وطيب انوف
والموز كالقوم الدُّعاة لربّهم
مدّت أصابع مدحها الموصوف

خضـراء ملسـاء الذراع لطيفـة
في سـاقها خـرجت عن المألوف
ولهـا ثـمـارٌ قـد تـدلّت حـلوة
في وسـط غفـلة أتت بـصنـوف
فكـأنّهنّ أصـابـع مضـمـومـة
زادت على خمس بغيـر كـفـوف
هـو ظاهر في كـلّ فصـل دائمـاً
يـا حُسْن رونق قطفـه المقصوف
فـاق الثمـار جميعـهـا بلطافـه
ودوام عهـد ليس بـالمـاصـوف
وقلت كذلك:
كـأنّـمـا بيـروت فـي حسـنهـا
وقـد بـدت كـاملة في النُعـوتْ
منظومة قد شاقني بحرها المديدُ
والأبـيـات مـنـهـا البـيـوتْ
واجتمعنـا أيضـاً بـالحسيب النسيب السيد حسين نقيب الأشـراف بـالبلدة المـذكـورة، وبـالفاضـل الكامـل العامـل، الشيخ زين الدين مفتي الشافعية بتلك الديار.
ثم بتنـا تلك الليلة حتى ظهر صُبْـح يـوم الخميس.. سابع صفر. فدعانا حضرة النقيب المذكور إلى داره، وصنع لنا الضيافة اللائقة بحسن كماله، ولطافة جُوده. واجتمعنا ذلك اليوم أيضاً بالسيد أحمد المتقدّم ذِكره، فأنشدنا من لفظه قوله:
ارى هـذا الوجـود خـيـالَ ظلّ
مـحـرّكـهُ هـو الرّبُّ الغـفـورُ
فصنـدوق اليميـن بـطون جـوا
وصنـدوق الشمـال هـو القبورُ
وأنشدنا أيضاً من لفظه لنفسه:
مـا خـيـال الظلّ إلّا
عـبـرة لـمـن اعـتـبـر
فـاعـتبـر قـولي أيـا هـ
ذا تـجـده مـعـتـبـر
وكـذا الدنـيـا شـخـو
ص فـتـراءى للنـظر
ثـم تـمـضـي وتـولّي
مـثـل لمـحٍ بـالبـصـر

وهو من قول الإمام الشافعي ــ رضي الله عنه ــ من البيتين المشهورين:
رأيت خيـال الظلّ أكبـر عبـرة
لمن هـو في علم الحقيقـة راقي
شخـوص وأشباح تمرّ وتنقضي
وتفنى جميعـاً والمـحـرك بـاقي
ولنا سابقاً تخميس لهذين البيتين، وهو قولنا:
انـا الهيكل الداني لمظهر قـدرة
ومن شاخصي قد خرّ أكمل صوره
ولمـا تـأمّلت الوجـود بفكـرتي
رأيت خيـال الظلّ أكبـر عبـره
لمن هو في علم الحقيقة راقي
على كل شيء سيف عزمي قد انقضى
وفي ليل عيني صبح معـرفة يضي
وكل الورى من بعد ذا لست أرتضي
شخـوص وأشبـاح تمـر وتنقضي
وتفنى جميعاً والمحرّك باقي
ثم ذهبنا إلى ساحل البحر، فزرنا هناك تلك المقبرة مع السيد المذكور، وفيها قبر الشيخ جبـارة من أولاد الشيـخ حسـن الراعي[٨٢] المشهور قبره عندنا في دمشق ــ الشام بقرية قَطَنا، ورأينا الشيخ عبدالرحمن الأوزاعي، التي تأتي ترجمته قريباً عند زيارة قبره.
وكان مقام السيد أحمد المـذكور في تلك المدرسة، وأخبرنا أنّ عليها في الزمان السابق أوقافاً كثيرة، ولكنّها ضُبطت الآن لجهة السلطنة في جملة أموال الساحل الشامي، ورأينا هناك الحمّام الذي مات فيـه الأوزاعيّ، سنذكـره، وهو الآن متهدّم بعضه..
وكان في هذا اليوم المذكور، وكذلك في اليوم الذي قبله مطر شديد مهمور. فأنشدَنا السيد احمد المشار إليه من نظمه لنفسه تاريخ قدومنا إلى بيروت المحروسة المأنوسة وإقبالنا عليه، وذلك قوله:
قـد شَـرّفَـت بـيـروت
بـالمـولى الأجـلّ المـعـتـبـر
مـذ حـلّ مـن بـركـاتـه
فـيـهـا أُغِـثْـنـا بـالمـطر

هـو قـدوتـي ذُخـري مـلا
ذي عُـمـدَتـي دون البـشـر
هـو سـيّـدي عـبـدالغـنـي
النـابـلـسـي حـاز الفـخـر
قـد فـاق أهـل زمـانـه
بـعـلوم شـتـى وأشـتـهـر

ثم ذهبنا إلى دعوة السيد حسين النقيب، وهو نقيب أشراف بالبلد المذكور، فحصل لنا بذلك غاية السرور. إلى أن قال.. وقد طلب منّا في هذا اليوم عمر بن محمد سعادة أنْ نكتب له شيئاً من النصائح الإلهية، فكتبنا له قولنا من النظام، على حسب المقام:

كن على الصـدق مقيمـاً والادب
والْزم العِـلْـم بـنَـهَـم وطَلَب
واتّـقِ اللّـهَ بـقـلبٍ خـاشـعٍ
واجتنب ظلمـة أنـواع السبب
... إلخ.

فلمّا أصبحنا في يوم السبت، وهو التاسع من صفر، عزمنا على المسير إلى زيارة الوليّ الكبير، والعَلَم الشهير، الشيخ أبـي عمرو عبدالرحمن الأوزاعي[٨٣] ــ رضي الله عنه ــ فسرنا ومررنا في الطريق على قبّة صغيرة يقال لها مقام المجذوب.. ولم نزل سائرين إلى أن مررنا على قبّة في رأس جبلٍ عالٍ يقال لها قبّة «شيخ الظهر»[٨٤] دُفن فيها رجل من أهل التُّوبة أرباب الكمال والادبة.. إلى أن وصلنا إلى مزار الشيخ الأوزاعي، فدخلنا إليـه، فإذا هـو على شكل السور، وقد عمّرته امرأة من بيت سيفا[٨٥]. وفي داخل المزار مكان عليه قبّة وفيه محراب، وعليه الهيبة والوقار والجلال، وعلى الجانب الأيسر من المحراب طاقة صغيرة تدلّ على قبر الشيخ، وهو مدفون تحت الحائط القبلي، وقبره ظاهر إلى الخارج يشبه قبر «كعب الأحبار» الذي زرنا في حمص المحروسة، فقرأنا له الفاتحة، ودَعَوْنَا الله تعالى. وقد وقفنا في بيروت على كتاب مستقلّ في ترجمته، مسمًّى بكتاب «محاسن المساعي في تـرجمة أبـي عمـرو الأوزاعي»[٨٦]، قـال فيه:...

ثم إننا نظمنا في ذلك المقام أثناء الزيارة مدْحاً لجناب هذا الإمام الهُمام شيخ المسلمين والإسلام:

اتـحـفَـتْـنـا زيـارة الأوزاعـي
عـنـد بيـروت بـالضيـا والشعـاع
إذا قصـدنـا لهـا عشيّـة يـوم
كـان فيـه بمن أحبّ اجتمـاعي
حـضـرة تمـلأ القـلوب سـرورا
وابـتـهـاجـاً بـأمـر ربّ مُـطاع
شـطّ بحـر عليـه للعـالم بحـر
طافـح بـالمكـان والانـتـفـاع
كـان لله عـابـداً بـاجـتـهـاد
تـابـعـاً للكـتـاب والإجـمـاع
يـا أبـا عمـرو الرفيـع مقـامـاً
طالمـا كنت راغبـاً في اتضـاع
يـا أبـا عمـرو الذي عمـرتنـا
زَوْره منـه عنـد خيـر البقـاع
يـا أبـا عمـرو العظيم المـزايـا
عند ربّ الورى الكريم المسـاعي
قـد أتـينـا إليـك والجسـم واهٍ
نشتـكي مـا أهـمّ والقلب واعي
نـادك الله هـيـبـة ووقـارا
ورعـى الله مـنـك تـربـة راع

وقلت كذلك في ذلك المقام، من لطيف النظام:

كنّـا ببيروت الأنيسـة في الهنـا
بـالأكـرمين ومـذ دعـانـا الداعي
نلنـا المقـاصـد والمُنَى وتـوزّعت
عنّـا الهمـوم بـزَوْرة الأوزاعـي

ثم بتنا هنالك تلك الليلة في أتمّ سرور، وأعمّ حبور، إلى أن أصبح الصباح، ونادى مؤذّن الفلاح.

(دير القمر)

وكان ذلك اليوم يوم الأحد التاسع والثلاثين، وهو العاشر من صفر الخير، فسرنا إلى جهة الجبل المعروف بجبل ابن معن[٨٨]. وكان سبب ذلك لأنّ هناك في قريةٍ معروفةٍ بدير القمر[٨٩] صديقنا المكرَّم، الموصـوف بمحاسن الشِيَم،

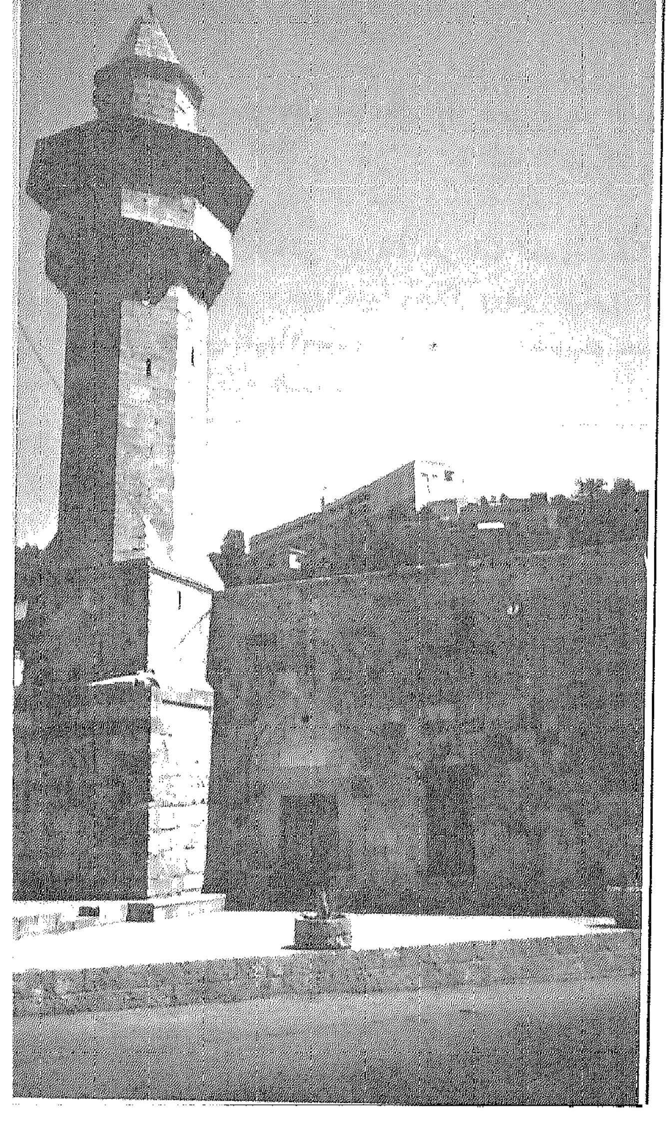
إبراهيم آغا، وأخاه مفخر الأعيان خليل آغا، من أعيان القُول[٩٠] الشامي، وأرباب القدْر السامي، لما صار عليهما من طائفة الينكجرية[٩١] ما صار من الفِتَن والمِحَن الكِبار، وكان بيننا وبينهما في دمشق مودّة أكيدة، ومَوَدَّة شديدة، فقصدْنا زيارتهما، وتلافي خاطرهما. فلم نزل سائرين حتى مررْنا على قرية «عَيْناب»[٩٢]، فنزلنا هناك حصّةً من الزمان نحن والإخوان، وأكلنا ما تيسّر من الزاد، وقد كفى الله مولانا وزاد.

ثم سرنا، بين تلك الجبال الشامخات، والتلال العاليات، والأودية المنحدرات إلى أن وصلنا إلى النهر المسمّى بنهر القاضي[٩٣]. وله جسر عظيم[٩٤]، فنسينا عنده ذلك العقب الماضي. ونزلنا وصلّينا الظهر هناك بالجماعة، وأحيَيْنا تلك الأماكن الميتة بفقد الطاعة.

ثم سرنا إلى أنْ وصلنا إلى قرية «دير القمر» التي هي منزل الأمير أحمد المعروف بابن معن[٩٥]. فخرج للقائنا صديقنا حضرة إبراهيم آغا المذكور ــ سلّمه الله تعالى ــ ومن معه من الجماعة. فحصل لنا ولمن معنا كمال السرور بلقائه تلك الساعة. ونزلنا معه هناك في جامع غريب[٩٦]، فيه محراب ومنبر، بلا إمام ولا خطيب.

ولنا في قرية «دير القمر» من النظْم حينئذ:

ما مثل دير القمر ... إلّا سماء القمر
كم مرتقى مرتفع ... ومهبط منحدر
بين جبالٍ شامخات ... من الصخور الحجر
في طُرق محدَوْدبات ... كقسِيّ الوَتَر
إذ قطعنا جبلاً ... فغيره في الأثر
وإنْ هبطنا وادياً ... كان سواء بالحري
فمن يرم بالطيران ... قطعة لم يطر



□ دير القمر.

جئناه من بيروت ... نبتغي لقاء معشر

ثم أصبحنا في يوم الاثنين، وهو اليوم الأربعون، الحادي عشر من صفر، أخبرنا بعض الناس أنّ شيخ الإمام العارف بالله تعالى «علي بن ميمون»[٩٧]، مدفون في قرية يقال لها «مجدل معوش»[٩٨] من جُرْد بلاد الجبل. وأنّ الشيخ «محمد عراق»[٩٩] مدفون في قرية «دير دورين»[١٠٠]، من أعمال الشوف. ولم يتيسّر لنا الذّهاب إلى زيارتهما.

فلمّا أصبحنا من يوم الثلاثاء، وهو اليوم الحادي والأربعون، الثاني عشر من صفر، عزمْنا على السير... فمررْنا في ذلك الطريق الوعر المسالك، وقطعناه بمعونة القدير المالك. فرأينا

قبّة بيضاء عظيمة، يقال إنّه دُفن فيها الشيخ «عثمان الكردي» من عباد الله الصالحين، فزُرْناه...

ثم سرنا حتى اشرفنا على قبّة أخرى بيضاء، ذات أنوار، وعليها هيبة وجلال ووقار. فذكروا لنا انّه دُفن فيها سيّدي «ليمون بن يعقوب» نبيّ الله — عليه السلام — ...

(شحيم)

ثم لم نزل سائرين إلى قرية «شحيم»، وهي من قراء صيداء المحروسة، فنزلنا هناك، وبتنا تلك الليلة في اتمّ سرور، وأكمل حُبُور.

ثم لمّا اصبحنا في اليوم الثاني والأربعين، يوم الأربعاء، الثالث عشر من صفر، زُرْنا في تلك القرية نبيّ الله «رُوبين» — على ما يقال — ، وهو من أولاد «يعقوب» عليه السلام...

ثم سرنا، فمررنا على ضيعة صغيرة في جانب الطريق بها قبر يقال إنّه قبر الشيخ «أرسلان»، رجل من الأولياء الصالحين... وهو غير الشيخ «أرسلان الدمشقي»...

ثم مررنا على نهر عظيم(١٠٢) يصبّ في البحر، وعليه جسر معقود كالعِقْد في النَّحْر، ثم اقبلنا على السبعة اعْيُن، وذلك المرْج الأخضر، ونزلنا ساعة، فطاب لنا المجلس هناك المحضر، وقلنا في ذلك الروض الأخضر:

نـزلنـا مـن حـمـى صـيـدا
بـمـاء طيّـب النُّـبْـعَـةْ
فـكـانـت أعـيُـن الـسـبـعـة
عـلـيـنـا الأعـيـن الـسـبـعـةْ

(صيداء)

ثم سرنا إلى جهة البلاد، فخرج إلى لقائنا جماعة من أهلها، ذوو الفضائل أمجاد، ونزلنا في الجامع المعروف بجامع الكِتْخِدا(١٠٣) في حجرة هناك لطيفة، ونحن في أنواع مسرّاتٍ بنا مُطيفة. وأضافنا تلك الليلة الشيخ الفاضل، مفخر الأعيان، الشيخ «محمد المعروف بابن قُطَيش»(١٠٤).

ثم لما أصبح الصباح، وكان ذلك اليوم يوم الخميس، الثالث والأربعين، وهو الرابع عشر من صفر، وردت علينا جماعات من الناس، فحصل لنا كمال اللُّطْف والاستئناس، ودعانا إلى ضيافته الشيخ الصالح الحاج «حسين»، فذهبنا إلى داره المعمورة، التي هي بأنواع الخيرات مغمورة.

ثم رأينا قبّة بعيدة على جبلٍ عالٍ، يقال لذلك المدفون فيها سيّدي «حُنَينُ» وهو مشهور بذلك عند العامّة، وأنّه من أولاد «يعقوب» النّبيّ، عليه السلام. وذكر لنا بعض أهل البلاد انّ اسمه «حنان»، وهو المشار إليه بقوله تعالى: ﴿وَحَنَاناً مِنْ لَدُنَّا﴾(١٠٥). وذكر بعضهم أنّ المدفون هناك إنّما هو جثّة «يحيى»، عليه السلام.

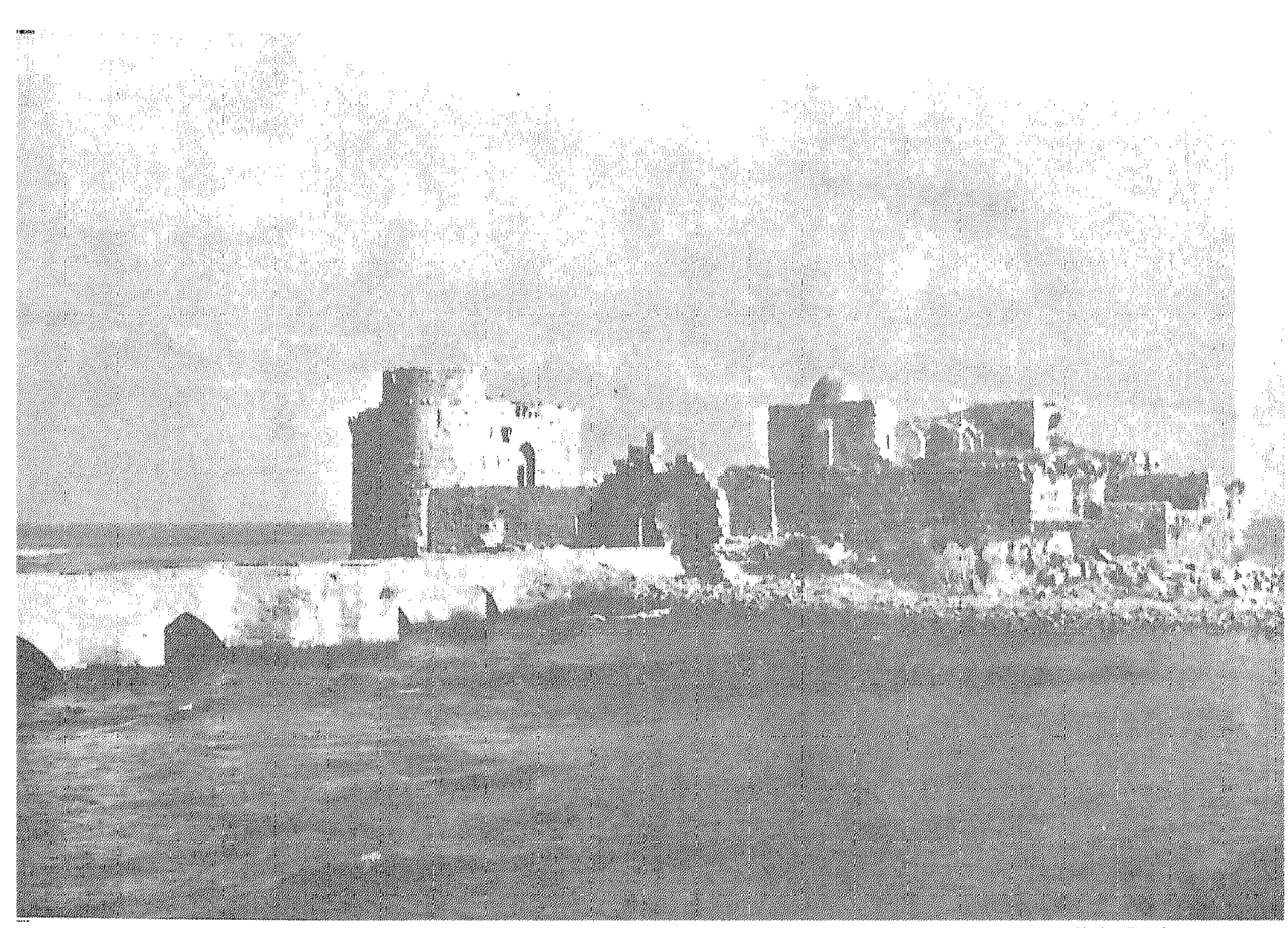
ثم ذهبنا إلى زيارة «صَيْدون»، وهو كما ذكر الحافظ «ابن عساكر» في أوائل تاريخه لدمشق. حيث قال: قال «الشرقيّ بن قُطَامي»(١٠٦):

«سُمّيت صيداء التي بالشام بصيدون، نسبة إلى صيدون بن صيدون بن كنعان بن حام بن نوح، عليه السلام». (انتهى) فدخلنا إلى مقامه، وفيه مقبرة، وعليه قبّة مبنيّة، وهناك جلالة وهيبة ووقار. وفي خارج ذلك المكان بعض أشجار، وفيها الياسمين ولطائف الأزهار.

ولَعَمْري، فإنّ صيداء من أحسن بلاد الساحل الشامي، ذات الإشراف التامّ والخير النامي. وقد قيل: إنّ أرضها تُنْبت العيون، فعساهم أرادوا بذلك عيون النرجس، أو عيون الماء، أو عيون الناس، أو أعيانهم، أو تقوّي البصر، أو تُجِدّ النظر لصحّة هواها وطِيب مياهها.

وللأديب «ابن الساعاتي»، وقد هرب غلام له، فأمر أن يمرّ في نرجس صيدا:

لله دَرُّ صـيـدا مـن بـلادٍ
لم تُـبْق عـنـدي همّاً دفـيـنـا
نـرجـسـهـا حـلّـية الفيـافـي
قـد طبّـق السـهـلَ والحُـزُونـا
وكـيـف يـنـجـو بـه هـزيـمٌ
وأرضـهـا تُنْبت العُـيُـونـا(١٠٧)



□ صيدا، قلعة البحر.

وقد قلنا في شأن صيداء إطراءً في الثناء عليها وتأييداً:

صاد قلبي هوى الأحبّة صيدا
عندما جئت قاصداً أرض صيدا
بلدة طاب رونق البحر فيها
فأزالت عنّا من الهمّ قيدا
اعجبتني لطافة الماء منها
والهواء الذي انبرى ترديدا
ساحل مطلق الجوانب غضّ
يقذف الدّرّ من حصاه نضيدا
... إلخ.

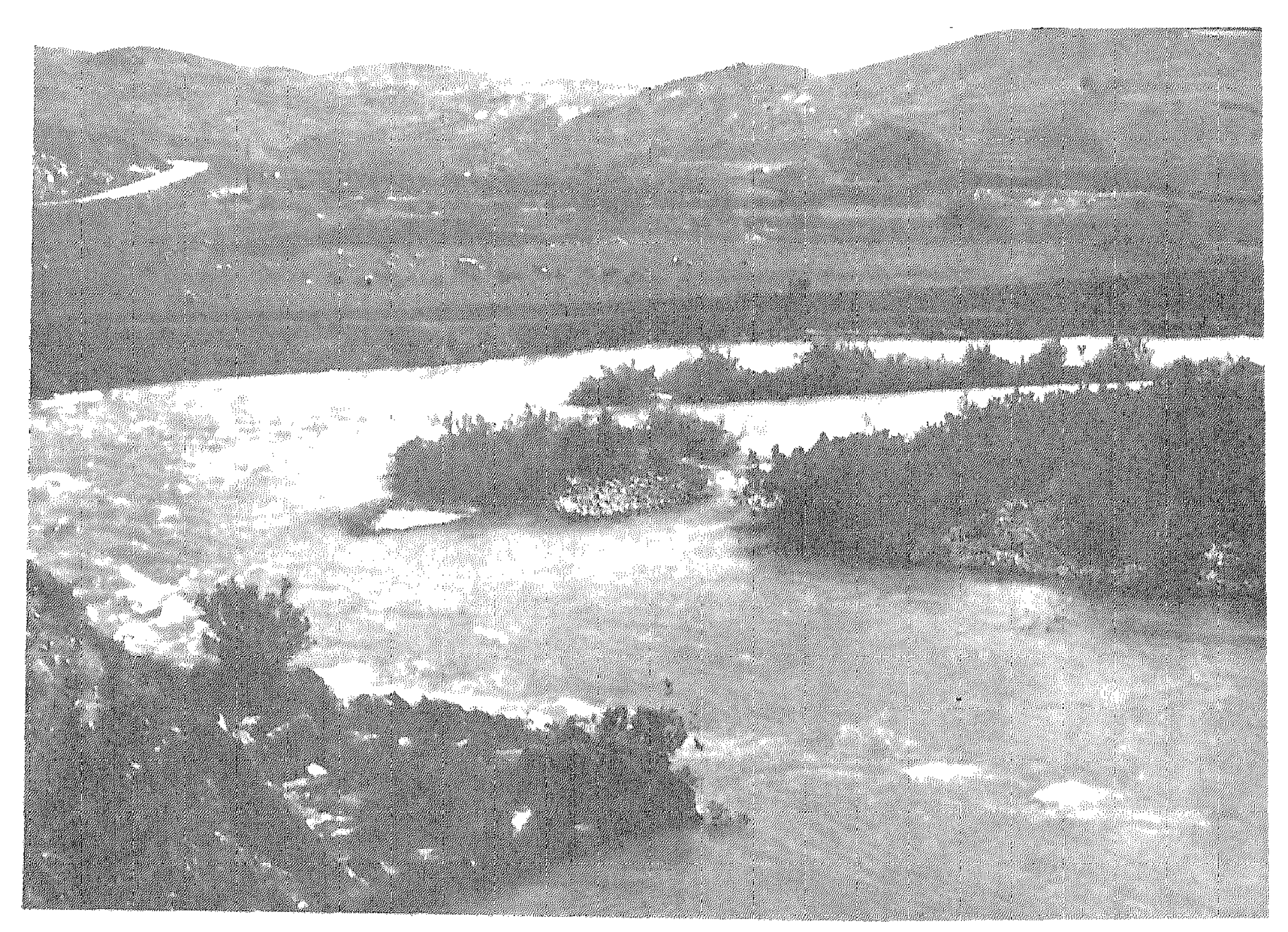
ثم ذهبنا إلى زيارة «أبي الرُّوْح» وهو «شبيب[108] بن ذي الكَلاع أبو رَوْح»، صحابيّ، مُخْتَلَفٌ في صحبته، وعليه قبّة معقودة، وبهجة مشهودة، وقلنا في ذلك من النظْم:

يا أبا الرُّوْح انت للرُّوح رَوْح
حيث عَرْف الكمال فيك يفوح
قد أتينا نزور منك ضريحاً
طائر السّرّ في ذُراه يبوح

ورأينا في حال ذهابنا إلى «أبي الروح» المذكور قبّة عظيمة تلوح من بعيد، كأنّها كوكب في سماءٍ من المهابة والتمجيد، فذكروا لنا أنّ هناك قرية يقال لها «دير بيسيم» من أعمال صيدا، وأنّ المدفون في هذه القبّة هو نبيّ الله «داود» عليه السلام.

وقد اجتمعنا في صيدا المحروسة بمفتي السادة الشافعية هناك، وهو الشيخ «رضوان[109] بن الحاج يوسف الصبّاغ المصري الدمياطي»، وجرت بيننا وبينه مذاكرات علمية، ومباحثات فقهيّة.

فلمّا أصبحنا في اليوم السابع والاربعين، وهو يوم الإثنين، الثامن عشر من صفر، عزمْنا على المسير، فأرسل حضرة الباشا، باشا صيدا المذكور معنا جماعة من أتباعه وعسكره المنصور، وأرسل معهم مكتوباً إلى حاكم عكاء



□ نهر الليطاني بجوار مرجعيون.

توصية فينا، وتكريماً لنا، وكتب لنا بيورلدياً(١١٠) مختوماً بختمه الكبير، خطاباً لأهل تلك النواحي من الساحل الشامي الداخلة تحت ولاية قدْره الخطير، وقد خرج معنا لوداعنا الشيخ «رضوان» المفتي، وغيره من أفاضل تلك البلدة وأعيانها.

(القاسميّــة)

ثم سرنا إلى أن وصلْنا «القاسمية»(١١١)، وهي قلعة خراب، كانت في سابقة الزمان معمورةً مبنيّةً، وفيها الآن بعض البيوت، ويسكنها أُناس من الفلاّحين، فقدّموا لنا بعض الضيافة، وهناك النهر العظيم المُسَمَّى بالنّهر «اللاّطائي»(١١٢) الواصل من أرض البقاع، وعليه الجسر المبنيّ بعقود الحجارة. فيا حبّذا في القديم هاتيك البقاع، وقد تهدّم الآن بعض بنيانه، وسَطَتْ عليه وعلى أهله أيدي زمانه. فوقفنا هناك وقفة الحائر، ولكنْ مررْنا عليه مرور الطائر، فتذكّرنا قول «ابن حُجّة الحموي»(١١٣) في قاسميّة حماة، وقصره الذي هناك في حماة:

هــواي يسفح القاسميّة فـالجسر
إذا هبّ تدروا أن ذاك الهوى عُذْري

وهي قصيدة طويلة موجودة في ديوانه.

(صــور)

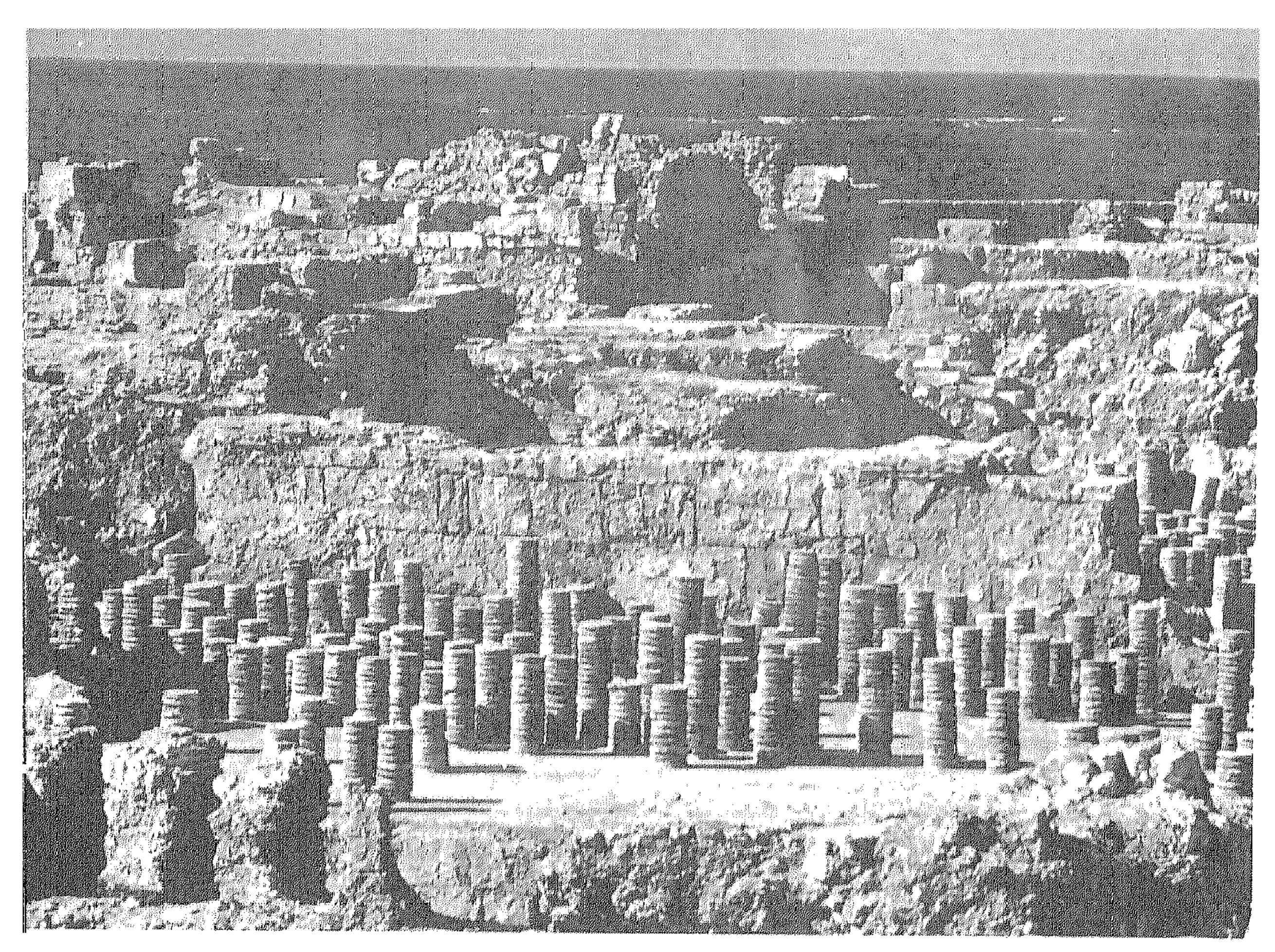
ثم قمنا من ذلك المكان إلى صور إلى أنْ وصلنا قلعة صور، وغالبها الآن خراب، وهي في القديم بلد عامر مشهور.

قال ياقوت الحموي في «المشترك»(١١٤)

وصُور: بضمّ الصاد وسكون الواو، وراء، أشهر مدينـة بساحـل بحر الشـام وأحصنها وأحسنها، افتُتحت في أيام عمر بن الخطّاب، رضي الله عنه...».

وفي «القاموس»(١١٥).

«صــور: بـالضمّ، بـلا لام، بلد بسـاحـل الشام»...



□ صور.

وقد وردنا إلى تلك البلاد في وقت المساء، ونزلنا في القلعة مع جماعتنا، ونحن نقول: «لعلّ» و «عسى»، فثارت علينا الرياح والبروق من الغروب إلى الشروق، وقلنا في ذلك بمعونة القدير المالك:

وبلدة من بلاد الساحل اشتملت
على امتداد لها في البحر مشهور

بتنا بها في هواء فوق قلعتها
حتى شهدْنا هناك النفخ في الصّور

ثم لما أصبحنا في يوم الثلاثاء، الثامن والأربعين، والتاسع عشر من صفر، ركبنا وسرنا نحن والإخوان، في أتمّ راحة وأكمل أمان، حتى مررنا على قبر «شمعون الصفا»، ونحن في غاية المسرّة والصفا، وقبره على جبلٍ عالٍ، وهو مشهور بين أهل تلك البلاد أنّه من الأنبياء أولاد «يعقوب»، عليه السلام، أو من الأحفاد...

(النّاقورة)

ثم سرنا إلى أن وصلنا إلى تلك العقبة الكؤود، التي على شاطىء البحر حتى أخذنا في الصعود، وسمعنا صوت الماء والأمواج تهدر تحت تلك الصخور. وما تلك النّاقورة وذلك النقار، إلّا كما يقرأ القارىء: ﴿وَإِذَا نُقِرَ فِيْ النَّاقُورِ﴾[١١٦].

وفي ذلك نقول على البديهة:

قد مشينا لنحو عكّة صُبْحا
نقطع السهل من مدينة صور

ورأينا نقّار عكّة لمّا
يهدر الماء تحت تلك الصخور

قلت للقوم: ها هنا حول حشر
نقر اليوم منه في النّاقور[١١٧]

(الزّيْب)

ثمّ توجّهنا إلى قرية «الزّيْب» بالزّاي، كما

هـو في «القامـوس»(١١٨)، وذاك مشهور على السنة أهل تلك البلاد بالذّال المعجَمَة، ولعلّه تصحيف من الأصل.

وعبارة «القاموس» هي قوله: «وتَزَيَّب لحمه: تكتّل واجتمع. والزّيْب: قرية بساحل بحر الروم»...

•

الهوامش:

(٧٥) القاموس المحيط للفيروزابادي ــ ج ١/١٤٣.
(٧٦) أثبتها المعلوف في الموضعين بالذال المعجمة، وهو تحريف. والتصويب عن القاموس.
(٧٧) هو احد أجداد اسرة آل القصّار المعروفة حتى الآن ببيروت.
(٧٨) هو: أحمد بن عزّالدين البيروتي. ذكره الدكتور صلاح الدين المنجّد في قائمة تلاميذ النابلسي. (انظر مقدّمته لكتاب «رحلتان إلى لبنان ــ ص ٢١ ــ رقم ٤٦ ــ بيروت ١٩٧٩).
(٧٩) هو عيسى بن محمود بن محمد بن كنان الصالحي الدمشقي. كان يدخل بيروت وصيدا وجبل لبنان سياحة ماشياً. وُلد سنة ١٠٤٢ وتوفي ١٠٩٣هـ. (انظر: خلاصة الأثر للمحبّي ٣/٢٤٣ و ٢٤٤، جامع كرامات الأولياء للنبهاني ٢/٢٢٩ و ٢٣٠، وكتابنا: موسوعة علماء المسلمين في تاريخ لبنان ــ القسم الثالث ــ مجلّد ١٤/٤١٥ و ٤١٦ رقم الترجمة ٩٥٧).
(٨٠) توفي سنة ١٠١٤هـ.، (انظر تراجم الأعيان، للبوريني ــ ج ١/٩٢ ــ ١٠٨، وكتابنا: موسوعة علماء المسلمين ــ القسم الثالث ــ مجلّد ١٢/٤٣٢ رقم الترجمة ١٧٤).
(٨١) وهكذا إلى آخرها، وهي طويلة التزم فيها هذا البيت الرابع بعد كل دور مؤلّف من ثلاثة أبيات. (المعلوف).
(٨٢) انظر عنه وعن المدرسة المنسوبة إليه، كتاب تاريخ المساجد للشيخ طه الولي، ٧٨ و ٧٩.
(٨٣) وُلد في بعلبك سنة ٨٨ وتوفي ببيروت سنة ١٥٧هـ. (انظر مصادر ترجمته في كتابنا موسوعة علماء المسمين ــ القسم الأول ــ مجلّد ٣/٦١ ــ ١١١ رقم الترجمة ٧٧٥).
(٨٤) هكذا في الرحلة، وفي تاريخ المساجد للشيخ طه الولي، ص ١٠٤ «جامع شيخ الضهرة».
(٨٥) بيت سيفا من البيوت العريقة في طرابلس وعكار، حكموا باشوية طرابلس في العصر العثماني، وأوّل حكامهم «يوسف باشا ابن سيفا» الذي تولّى باشوية طرابلس سنة ٩٨٨هـ ./ ١٥٨٠م. ولهم تاريخ حافل مع الأمير فخرالدين المعني الثاني. (انظر تاريخ الأمير حيدر الشهابي ١/٦١٧ وما بعدها).
(٨٦) ذكر المعلوف إن هذا التاريخ لابن حجر العسقلاني المتوفى سنة ٨٥٢هـ. وهذا وهْم، والصحيح ان الكتاب لزين الدين بن تقيّ الدين بن عبدالرحمن الخطيب ــ وقد نشره المرحوم شكيب ارسلان ــ طبعة عيسى البابي الحلبي بمصر.
(٨٧) هنا مقدار ثلاث صفحات مُقْحَمَة من كتاب «محاسن المساعي» لا مبرّر لسردها.
(٨٨) نسبة إلى الامراء المعنيّين، وهو جبل الشوف شرقي صيدا وبيروت.
(٨٩) دير القمر: بلدة في قلب مقاطعة المناصف، تبعد عن بيروت ٣٨ كلم. وترتفع عن سطح البحر ٨٥٠ متراً.
(٩٠) القول: مصطلح تركي بمعنى العسكر المولجين بالحراسة.
(٩١) الينكجرية: أو الانكشارية (Yeniceri) وتسقط الكاف لفظاً. ومعناها: الجيش الجديد، فهي مركّبة من «يني Yeni» بمعنى «جديد» و «جري Ceri» بمعنى «جيش».
(٩٢) عيناب: بلدة تبعد عن بيروت ٢٣ كلم. وترتفع عن سطح البحر من ٧٥٠ إلى ١٠٠٠ متر. (إعرف لبنان ــ لعفيف بطرس مرهج ١/ دون ترقيم للصفحات).
(٩٣) هو نهر الدامور.
(٩٤) جسر الدامور، أنشأه قديماً شخص يُدعَى «الدمياطي» ثم اعاد بناءه «ابو بكر بن البُصَيْص البعلبكي» حول سنة ٧٤٥هـ./ ١٣٤٤م. وهو الذي بنى الباب الغربي من جامع العطار بطرابلس، وبنى جسر نهر الكلب. (انظر: تاريخ بيروت، لصالح بن يحيى ١٠٤، وكتابنا: تاريخ وآثار.. ــ ص ١٩٥).
(٩٥) هو الأمير أحمد ملحم المتوفى سنة ١٦٩٧ ولم يعقب، وانقطعت به السلالة المعنية. (اخبار الأعيان في جبل لبنان، للشدياق ١/١٨٧).
(٩٦) هو جامع الأمير فخرالدين الأول ابن عثمان المعني، بناه سنة ٨٩٩هـ./ ١٤٩٣م.
(٩٧) هو أبو الحسن علي بن ميمون الهاشمي القرشي المغربي، أصله من فاس. دخل بيروت في أول القرن ١٠هـ.

واجتمع فيها بمحمد بن عراق. وسكن مجدل معوش حتى توفي سنة ٩١٧هـ. (شذرات الذهب، لابن العماد الحنبلي ٨/٨١ ــ ٨٤).

(٩٨) قال المعلوف في حاشية الرحلة: «وإلى هذه القرية يُنسب الشيخ محمد بن عبدالقادر بن عكي المعوشي الشافعي من اهل القرن العاشر للهجرة، تلميذ المؤرّخ ابن طولون في دمشق».
وأقول: تبعد مجدل معوش عن بيروت ٥٠ كلم، وترتفع عن البحر من ٨٠٠ ــ ٩٠٠ متراً.

(٩٩) هو أبو علي محمد بن علي بن عبدالرحمن الشهير بابن عراق الدمشقي، نزيل المدينة المنوّرة، نزل بيروت ورابط فيها، وهو من كبار الزّهّاد في عصره، توفي سنة ٩٢٣هـ. (شذرات الذهب ٨/١٩٦ ــ ١٩٩) وانظر كتابنا: موسوعة علماء المسلمين في تاريخ لبنان ــ القسم الثاني ــ المجلّد ٩ ــ ص ٩١ ــ ٩٧ ــ رقم الترجمة ١٠٩٠.

(١٠٠) المعتمَد انه متوفّى بمكة المكرّمة. (شذرات الذهب ٨/١٩٩).

(١٠١) بلدة تبعد عن بيروت ٤٦ كلم، وترتفع عن البحر من ٥٥٠ ــ ٧٥٠ متراً.

(١٠٢) يقصد نهر الأَوْلي الذي يصبّ شماليّ صيدا.

(١٠٣) الكِتْخِدا: بكسر الكاف والخاء المعجَمَة، بينهما تاء مثنّاة ساكنة، Kethida اصطلاح تركي بمعنى الممثّل الرسمي للوالي في عاصمة الولاية.

(١٠٤) لم أجد له ترجمة.

(١٠٥) قرآن كريم، سورة مريم ــ الآية رقم ١٣.

(١٠٦) ورد محرّفاً عند المعلوف «الشرفي (بالفاء) بن نظامي»! وهو: الوليد بن الحُصَيْن، كان علّامة نسّابة اخبارياً من اهل الكوفة، كان يدخل على الخليفة أبي جعفر المنصور. (انظر: الوافي بالوفيات للصفدي ١٦/١٣٢ رقم ١٥٤ وفيه مصادر ترجمته).

(١٠٧) انظر الأبيات في ديوان ابن الساعاتي (بهاءالدين ابي الحسين علي بن رستم بن هردوز الخراساني ــ نشره انيس المقدسي ــ طبعة الجامعة الأميركية ببيروت ١٩٣٩ ــ ج ١/١٦٨ ففيه تغيير طفيف ببعض الالفاظ.

(١٠٨) توفي في حدود سنة ٩٠هـ. انظر عنه في الوافي بالوفيات ١٦/١٠٢، ١٠٣ رقم ١١٦ وفيه مصادر ترجمته.

(١٠٩) ذكره النابلسي في رحلته الثانية إلى طرابلس (١١١٢هـ./ ١٧٠٠م.) ــ التحفة النابلسية ص ٦ و ٧ و ٢٤.

(١١٠) بيورلدي (Buyurulti) وتأتي بلفظ «بورلدي» و «بيولدي» بحذف الراء، و «بلردي» وتُجمع على «بيورلديات»، وهو اصطلاح تركي بمعنى: مرسوم، أو امر، أو بيان، أو تعميم، أو إعلان.

(١١١) تقع عند مصبّ نهر الليطاني، شماليّ مدينة صور، ويُعرف النهر عندها باسمها.

(١١٢) هكذا عند المؤلّف، وهو «الليطاني» أطول الأنهار التي تنبع وتصبّ في لبنان، طول مساره (١٤٥كلم).

(١١٣) هو أبو المحاسن علي بن عبدالله بن حجّة الحموي، رئيس ادباء عصره، صاحب «خزانة الأدب» و «ثمرات الأوراق» وغيره. توفي سنة ٨٣٧هـ./ ١٤٣٤م.

(١١٤) المشترك وضعاً والمفترق صقعاً ــ ص ٢٨٦.

(١١٥) القاموس المحيط للفيروزابادي ٢/٧٣.

(١١٦) قرآن كريم ــ سورة المدَّثّر ــ الآية رقم ٨.

(١١٧) يقصد المؤلّف بلدة الناقورة التي تُعتبر الآن آخر حدود لبنان الساحلية مع فلسطين المحتلّة.

(١١٨) القاموس المحيط ١/٨٠.



● «ليست هي مفاضلة بين رجلين ولا موازنة بين قدرتين.. ولكنها مسألة التوفيق بين الرجل والموضع الذي ينبغي أن يوضع فيه، والمهمة التي ينبغي أن يندب لها، والوقت الذي يحين فيه أوانه».

(عباس محمود العقاد)

● «ليست قيمة الانسان في الحقيقة التي يملكها أو يتصور أنه يملكها، بل هي في سعيه المخلص للاقتراب من الحقيقة».

«الانسان هو مقياس جميع الأشياء».

(فيثاغوراس)



د. يوسف عَاد



□ نموذج من الخط الكوفي النيسابوري، وهو من الخطوط النادرة. وتنص هذه الصفحة قوله تعالى:
«والله يعلم ما تسرون وما تعلنون، والذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون».

□ الدكتور يوسف عاد ــ الجامعة اللبنانية، كلية الآداب، الفرع الرابع ــ كسارة.



كانت الاشارة باليد وسيلة من وسائل التفاهم بين الناس، تبعتها الحركة بالراس أو بالجسم، ثم بالرسم بالأشكال فالرواية.

ولما كانت الاشارات الآنفة الذكر غير كافية، او عاجزة عن نقل الآراء بين البشر كافة، كانت الحاجة ماسة إلى اختراع الحرف فاصبحت اللغة أداة التخاطب بين الشعوب، وكانت الرواية إحدى محاولاتها الأولى إلّا انها ظلّت قاصرة عن تبادل الآراء، ونقل المعارف والعلوم.

ولما كان الحفظ إحدى وسائل الرواية، وهو، بالطبع، قاصر عن الوصول إلى الهدف المطلوب بسبب النسيان، أو لهدف عند الحافظ. ومن أجل حفظ الآثار والنقل الأمين والمتبادل، كان لا بد من «ظهور طريقة أفضل الا وهي النساخة»[١] اي الكتابة، هذه المحاولة المتقدمة نوعاً ما بالنسبة للطرق المعروفة آنفاً.

فبالاستنساخ والكتابة باليد يمكن نقل العلوم دون الحاجة إلى الانتقال والمشاهدة، وهكذا، وبهذه الطريقة، تمكّن الكتّاب من نقل آرائهم واستنتاجاتهم إلى قرّائهم، فحفظت الآثار للأحفاد. وهكذا، وفي هذه الحالة اصبح من الصعب القضاء على الآداب والعلوم، لا سيما بعد اهتداء الانسان إلى النساخة، ولجبور عبدالنور راي في هذا الصدد إذ يرى ان لوحة الرسام قد تتعرض للفساد او للحريق، وان التمثال قد يتحطم، إلّا ان الأثر الأدبي، لتعدد نسخه وانتشاره في أماكن مختلفة ينجو في معظم الأحيان من الضياع[٢].

إذاً، لم يكن بد من النسخ لحفظ آثار السلف، ولتدوين آرائه، ولم يكن العمل متيسراً في ذلك الوقت، بغير هذه الطريقة، الا وهي النساخة. فالنساخة ساعدت على حفظ الآثار من السلف إلى الخلف.

الكتابات القديمة

ورد عند حسن شهاب ان الله انزل الصحف على آدم، وأن هذا الأخير كتبها قبل موته في طين، ثم «طحنه»، لكن لا يُعرف بالتحقيق أول من خط بالقلم بعد آدم[٣].

وأقدم ما عُرِفَ من الكتابات ما سطّره البابليون ويعود إلى القرن الأربعين قبل الميلاد.

أما الكتابات السبئية أي العربية القديمة والمعروفة بالكتابة الحميرية فهي من القرن الثامن عشر قبل الميلاد.

ووجدت بعض الكلمات الكنعانية في مكاتيب تل العمارنة، ويرقى تاريخها إلى القرن الخامس عشر قبل الميلاد، عدا الكتابات الفينيقية والآرامية في القرنين الثامن والسابع قبل الميلاد وكتابات الحبشة القديمة المنسوخة في منتصف القرن الرابع بعد الميلاد[٤].

وترجع حقيقة بدء التاريخ إلى الكتابة، وأول انواعها هو الكتابة الصورية الدالّة على المعنى بصور تمثل الأفكار والشعور والآراء، وهي مرجع الخط واللغة الهيروغليفية المصرية القديمة وكتابة بعض هنود أميركا[٥].

ويقال: إن الفينيقيين كانوا في طليعة مخترعي الحروف الأبجدية للكتابة والتعبير عن آرائهم وأفكارهم، ونقل هذه الأفكار إلى سواهم، وقد جاراهم في ذلك المصريون والهنود ثم العبرانيون واليونان والشعوب الأخرى[٦]. وهنا لا بد من الاشارة إلى فضل الفينيقيين في ابتكار الأبجدية ونشرها حول حوض البحر المتوسط أثناء تجاراتهم وتنقلاتهم. ولا نغفلن أيضاً، فضل الشعوب الواردة آنفاً.

ويروي منير الخوري: «إن أعظم عمل قام به الفينيقيون للحضارة هو اختراع الحروف الهجائية في القرن الرابع قبل الميلاد. ولقد اشتقت الأبجديات القديمة والحديثة من الأبجدية الفينيقية»، يؤكد هذا القول روايات مؤرخي اليونان على أنهم عرفوا الحروف الهجائية عن طريق الصيدونيين الذين جاؤوا إلى بلاد اليونان حوالي ١٥٨٠ قبل الميلاد[٧].

ويقول الأب بولس مسعد: «إن الفينيقيين استنبطوا الأبجدية ونشروها في الأنحاء ابتداء من اليونان بواسطة قدموس الصيدوني»، ويتابع قائلاً: «وحسب الفينيقيين أن تكون الملاحة وفن الكتابة من أخصّ مميزاتهم ليشغلوا المركز الأول بين الأمم التي أسّست الحضارة العالمية»[٨].

كذلك اهتمت الكنيسة بنسخ الوثائق، فحفظت هذه الطريقة كميات كبيرة من وثائق الأمبراطورية الرومانية[٩].

إذاً، يُرجع المؤلفون الكتابة إلى القرون السحيقة. وليست النقوش والآثار القديمة الممثلة بالصور وبالرموز المعبرة سوى أدلة واضحة على ما ورد.

الكتابة العربية

ورد عند حسن شهاب أن أول ما كُتِبَ بالعربية هو بالخط الحميري المعروف بالمسند وهو خط بني قحطان، ويعود تاريخه إلى القرن الثامن عشر قبل الميلاد[١٠].

أما عبدالفتّاح عبادة فيرى أن أقدم ما كُتِبَ بالخط العربي هو بالشكل النسخي ثم الشكل الكوفي، فأولهما هو الخط النبطي، تعلّمه العرب من الأنباط في حوران أثناء رحلاتهم إلى الشام، وثانيهما متخلف عن الخط السطرنجلي السرياني، وهذان الخطان هما أصل الخط العربي[١١].

ويذكر ابن النديم أن العرب كانوا يكتبون في أكتاف الابل واللِّخاف وهي الحجارة البيض العريضة الرقّاق، وفي العسب، عسب النخل، وأنهم بعد ذلك كتبوا في الجلود المدبوغة، ثم كتبوا في الورق الخراساني[١٢].

ويذكر عن ابن عباس: «إن أول من كتب بالعربية ثلاثة رجال من بولاق وهي قبيلة سكن أهلها الأنبار، واجتمعوا فوضعوا حروفاً مقطوعة وموصولة، وقال ايضاً: «سئل أهل الحيرة ممن أخذتم الخط العربي، فقالوا: «من أهل الأنبار»[١٣]... وقال: «إن نفراً من أهل الأنبار من إياد القديمة وضعوا حرف ألف، باء، تاء، ثاء... وعنه أخذ العرب...» وقيل: «أول من كتب بالعربية إسماعيل»، وإن نفيساً ونصراً وتيماً ودومة أبناءه وضعوا كتاباً واحداً، وجعلوه سطراً واحداً موصول الحروف كلها غير متفرّق، ثم فرّقه نبت وهميسع وقيذار»[١٤].

ويقال إن الخط العربي هو من أصل يمني انتقل من اليمن إلى الأنبار والحيرة، وإن نفراً من إياد وضعوا الحروف وعنه أخذ العرب، وإن الذي كتب هذا الخط هو رجل من بني مخلد بن النصر بن كنانة[١٥].

تشير الآراء السالفة إلى أن الخط انتقل بشكله المسند إلى الأنبار وتطوّر فيما بعد فوصل إلينا بشكله الأول. وإن تحسن الخط هو نتيجة ممارسة وجهد قام به المهتمون، وما اجتماعهم ووضعهم الألف باء إلّا بدافع التعلّم والمعرفة، فاقتبسوا وحسّنوا واخترعوا وأضافوا.

ويذكر القلقشندي: «إن أول من وضع الخط والحروف الهجائية العربية ستة نفر من طسم من العرب البائدة كانوا نزولاً عند عدنان، فكانت أسماؤهم: أبجد، هوز، حطي، كلمن، سعفص، قرشت. فوضعوا الخط على أسمائهم، فلما وجدوا في الألفاظ حروفاً ليست في أسمائهم ألحقوها بها وسمّوها الروادف وهي: «ثخذ، ضظغ»[١٦].

يبدو إن آراء العلماء متباينة حول نشأة الكتابة، فبعضهم ارجع فكرتها الأولى إلى حوالي ستة آلاف سنة ق. م. في مصر وأميركا الوسطى. وإلى حوالي أربعة آلاف سنة ق. م. في الصين. وُيرى بعضهم أن فكرة الكتابة الأولى نشأت عند الفراعنة، ثم أخذها الفينيقيون عنهم باعتبارهم صلة الوصل بين العالم آنذاك، فأنضجوا فكرتها، وهذّبوها ونقلوها إلى العالمين اليوناني والروماني. ومنهم من يرجع تاريخ اللغة إلى الأزل. منذ كانت أعمال الناس مسجّلة قبل وقوعها، ومقررة في اللوح المحفوظ حسب علم الله الأزلي قبل أن يولد الانسان[١٧].

يتأكد لنا من هذا الرأي أن الفضل في اكتشاف الأبجدية يرقى إلى شعوب سبقت الفينيقيين ويعني هذا أن فضل الفينيقيين هو في نقلها إلى صورة افضل، أي في تطويرها، وهذا يناقض قولي منير الخوري وبولس مسعد الآنفي الذكر. وبالرغم من ذلك استمر كل شعب في عمله الكتابي، مما حسّن الخط وهذا ما دفع ابن خلدون إلى القول: «كان الخط العربي بالغاً مبالغة في الاحكام والاتقان والجودة في دولة التبابعة لما بلغت من الحضارة والترف، وهو المسمى بالخط الحميري الذي انتقل إلى الحيرة عندما كان بها دولة آل المنذر نسباء التبابعة في العصبية والمجددين لملك العرب بأرض العرب»[١٨].

الظاهر أن الخط نشأ في الأماكن المتقدمة أو المتفاعلة مع غيرها من حضارات، ثم انتقل إلى

المناطق الأخرى، وهكذا وبهذا الشكل ثم بالانتقال من مكان إلى آخر أخذ الخط ينتشر شيئاً فشيئاً في الجزيرة العربية.

وورد في الأغاني أن زيد بن حماد بن أيوب تولى الكتابة للنعمان الأكبر. وورد أيضاً أن جماعة من الشعراء كانت تكتب مثل المرقش الأكبر وعبدالله بن الزبَعْري[١٩].

ويجمع اغلب الباحثين على أن الكتابة نشأت وتطوّرت في أرض الوطن العربي القديم، وإن مراحل إيجاد الأبجدية تمّ على الأرض العربية القديمة، سواء أبجدية سيناء او أبجدية جبيل، او أبجدية رأس الشمرا. وإذا كان الخط الآرامي يعدّ جد الخطوط العربية إذ تفرّع عنه الخط النبطي الذي يعدّ أقرب ما يكون إلى الخط العربي، ثم استعمل عدد من الخطوط في الجزيرة العربية، وهي الخط المسند الصفوي[٢٠] والخط الثمودي، والخط اللحياني[٢١]، والخط الحميري، والخط الحيري[٢٢]. ويقال إنه عثر في أم الجمال، شرقي الأردن، على نقش من ثلاثة سطور، آرامي اللغة، نبطي الخط. وجد هذا النقش بلا تاريخ، وقيل إنه يرجع إلى عام ٢٧٠م. ويليه نقش «النمارة» وقد عثر عليه سنة ١٩٠١م. على أنقاض مخفر روماني قديم، شرقي جبل الدروز، على مقربة من دمشق، وقد كتب تخليداً لذكرى امرىء القيس بن عمرو المتوفي عام ٣٢٨م. وكان ملكاً للحيرة. أما الرسم فهو مدون بالنبطي المتّصل الحروف، ويقال إنه اقدم ما وصلنا مكتوباً من الأدب الجاهلي[٢٣].

وورد في الحوليات العربية أن الحرف العربي اقتبس عن الإسلام، وهذا يؤكّد اكتشاف الكتابات العربية، بخاصة المتكاملة منها في القرن السادس[٢٤]، فالحرف النبطي وصل مع الزمن إلى الأشكال التي نعرفها. وأكثر التطورات التي حصلت له كانت في عصر الاقتباس من الكتابة النبطية أي بين السنوات ٢٥٠ و ٦٠٠ ميلادية تقريباً وفي الكتابات الاسلامية الأولى[٢٥]. واكتشف نقش مستقل عن النقش النبطي، متقدم عنه تقترب صورة حرفه من الصورة المستخدمة الآن، أُطلق عليها اسم «زبد»، وهي مدينة خربة بين قنسرين ونهر الفرات، في الجنوب الشرقي من مدينة حلب. وعثر في حوران، جنوبي



□ سورة الفاتحة في مخطوطة مصحف كتب بالخطين الكوفي والنسخي بيد زين‌العابدين الشريف الصفوي (بدىء بكتابة هذا المصحف في عام ١٣٢٣ في عهد مظفر شاه قاجار في إيران).

دمشق، وشمالي غربي جبل الدروز على نقش أحدث من نقش «زبد» وهو سليم النص العربي، وواضح، ويمكن الاطلاع عليه بسهولة[٢٦]. وذكر ابن جني أن النعمان ملك الحيرة نسخ أشعار العرب ودفنها في قصره الأبيض ولعله النعمان الأكبر وهو النعمان الثاني الذي ولّاه كسرى الأول عرش الحيرة[٢٧].

نستطيع أن نسلّم بأن الخط العربي كان معروفاً في القرن السادس الميلادي وهو عهد قريب من الاسلام وأن النصوص المذكورة في كتب التاريخ والأدب التي تذكر أسماء من كتب الخط العربي وعمله ونشره، تجعلنا نتأكد بأن تكامل الخط لم يكن بعيد العهد. ويحدثنا

البلاذري أن الذين كانوا يعرفون القراءة والكتابة في الجاهلية هم عشرة أشخاص. ثم أصبحوا اربعين شخصاً بعد الاسلام في عهد الرسول(٢٨)، وهذا يدلنا على مدى انتشار الكتابة عند العرب في فجر الاسلام.

وورد عند فيليب دي طرازي أن الجاهلية لم تكن تعرف الكتابة، ولم تكن تعرف من العلوم إلا ما تقتضيه أدنى معيشة كتربية بعض الدواب، وانتجاع منازل الغيث، والعلم بالأنساب ورمي السهام والحداء وغير ذلك من المبادىء التي لا يسع البدوي جهلها، غير أن نصيبهم من العلوم كان قليلاً، فلم يبلغوا فيها إذ ذاك مبلغاً يضطرهم إلى التدوين. ولم يكن الجاهليون يعرفون الكتب، بل كانوا ينهون الناس عن النظر فيها والاعتماد عليها لئلا تتناولها أيدي التصحيف والتحريف أو التزوير المقصود فيقعون في شر أعمال المفسدين، أو خوفاً من أن يقصروا همتهم على اللفظ دون المعنى أو يعتمدوا على الكتب فيهملوا الرواية التي هي عندهم قوام العلوم لا سيما الأدبية والنقلية منها(٢٩). وتجاه هذا الرأي يمكن أن نتساءل ما إذا كان الجاهلي دوّن قصائده أم نقلها شفوياً، والمطالع كتاب «أدب العرب في عصر الجاهلية وديوان امرىء القيس»(٣٠)، يتأكد أن الجاهلي عرف الكتابة بدليل ورود إشارات في الشعر، إذ شبّهوا الأطلال بالصحف المكتوبة، كقول امرىء القيس:

«لمن طلل أبصرته فشجاني
كخط زبور في عسيب يماني»(٣١)

علاوة على ذكر أبيات أخرى تؤكد وجود الكتابة، يمكن الرجوع إليها عند الشعراء الجاهليين أو عند المؤلف المذكور، حسين الحاج حسن. ويدفعنا هذا الرأي إلى القول بأن بعض آثار الجاهليين قد دوّن وبخاصة الشعر، لكن هذا لا يدفعنا إلى التعميم لأن الشعر كان بأغلبه في البادية، وأنّ ما كتب فعلى الحجارة أو على العظم أو على العسب، والتدوين صعب على مثل هذه الأشياء، لذلك قد يكون اقتصر تدوينهم على الضروريات من عهود أو مواثيق وأحلاف وكتب دينية وبعض الشعر، إلاّ أنّ الغالبية منها كانت تحفظ في الذاكرة، ومن هنا كان الاعتماد على الرواية والتمرّس بها.

لم يكن ما ذكرناه آنفاً وحسب عن الكتابة، فعلاوة على اهتمام الجاهلي بها، فقد اهتم بتزيينها وتوشية ما يكتب، وهذا دليل على اهتمامه بها، وليس الشعر في هذا الصدد غير تأكيد على ما نقول، يبدو ذلك في شعر طرفة:

«كسطور الرّق رقّشه
بالضحى مرقّش يشمه»(٣٢)

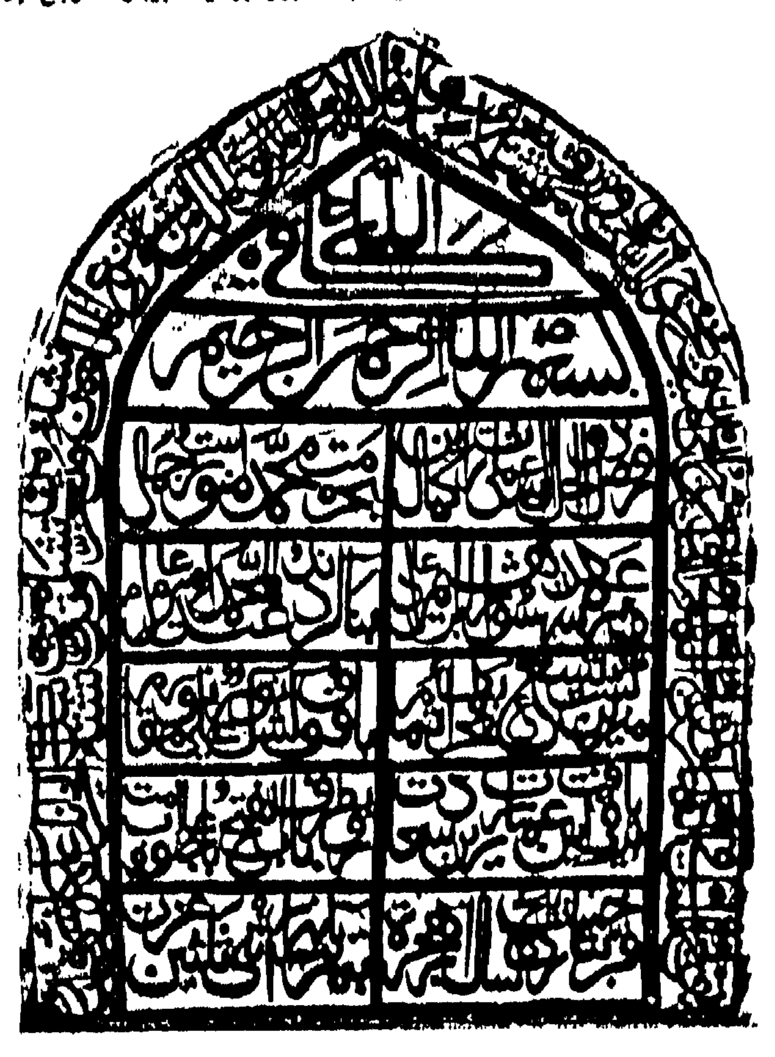
ويرى ابن خلدون أن المسلمين انصرفوا عن الشعر وتدوينه أول الاسلام لانشغالهم بأسلوب القرآن ونظمه، لكن، ما كاد النظام الإسلامي يستقر حتى عاد التدوين.

ويقول طرازي: «لما هاجر المسلمون إلى المدينة وجدوا في أهلها نفراً قليلاً من الأوس والخزرج يعرفون الخط، فاستعملوا منهم أكثر من ثلاثين رجلاً لكتابة الوحي، وأول من كتب الوحي هو ابن أبي كعب الأنصاري. وبعد أن استقر الاسلام في المدينة أمر النبي ـ صلعم ـ أن تعلّم صبيانها القراءة والكتابة، واستعمل في ذلك من أسرى بدر من لم يستطع أن يفدي نفسه بالمال، فكان فداء الواحد منهم تعليمه عشرة من أولاد المسلمين الكتابة والقراءة، ونظراً لتعظيم شأن الخط ومكانته إذ ذاك عند العرب وقلّة عارفيه، كانوا يسمون من يعرفه، ويعرف الرمي بالكامل(٣٣).

إذاً، كان للنساخين والخطاطين احترام كبير من بيئاتهم ومن خارجها، وكانوا صلة الوصل بين الدول بنقلهم الآراء وبتوزيعها، وكان من الممكن وقوع الأضرار عندما يخل أحدهم بالأمانة، فيضيف ويحذف حرفاً أو كلمة أو سطراً أو صفحة، لذلك كان المفروض على النساخ أن يكونوا دقيقي الملاحظة عند النسخ ليصلوا إلى الهدف العام وهو الافادة من غير تمييز ونقل علوم السلف بأمانة ودقة.

ويقال إنه عندما اقتبس العرب الخط من الأنباط والسريان، كان خالياً من الحركات والأعجام فالحركات فيه حادثة في الاسلام، والمشهور أن أول من وضعها هو أبو الأسود الدؤلي المتوفى عام ٦٩ للهجرة لما كثر في اللحن لاختلاط العرب بالأعاجم في صدر الاسلام، فكانت الحركات إذ ذاك نقطاً يميزون بها الفتح والكسر، فكانت النقطة فوق الحرف دليلاً على

□لوحة «بالخط النسخ» من مسجد خورشيدخان بمدينة بهاغالبور بولاية بيهار، ترجع إلى الحقبة نفسها.



الفتح، وإلى جانبه دليلاً على الضم، وتحته دليلاً على الكسر، ولم تشتهر طريقة أبي الأسود الدؤلي هذه إلاّ في المصاحف حرصاً على إعراب القرآن(٣٤). فقد كان الناس يقرأون في مصاحف عثمان وهي غير منقوطة ولا معجمة، فيخطئون في القراءة، فكلمة (سلو) قرأها حفص بن سلمان ابن المغيرة (تبلو)، وقرأها عبدالله بن مسعود (تتلو). وكلمة (سا) قرأها حفص (تثبيتاً) وقرأها مجاهد بن جبر (تبييناً). عدا أمثلة أخرى. وبالرغم من جهد أبي الأسود الدؤلي فلم تتوقف موجة اللحن إذ كثر التصحيف، وانتشر في العراق، واستمر إلى أيام عبدالملك بن مروان، وأدرك الحجاج خطر ذلك فطلب من الكتّاب أن يضعوا للحروف المتشابهة علامات، ويقال إن نصر بن عاصم قام بذلك فوضع النقط، فتحسّنت القراءة والكتابة فأتمّ هذا العمل عمل أبي الأسود. ظل الناس يكتبون على طريقة أبي الأسود الدؤلي، ونصر بن عاصم الدولة الأموية، وصدر دولة بني العباس، وفي الأندلس حتى القرن العاشر الميلادي، وبعد هذا التاريخ اخترع الخليل بن أحمد (المتوفى سنة ١٧٠هـ/ ٧٨٦م) الشكل المستعمل الآن، فجعل الضمة واواً صغيرة فوق الحرف، والفتحة ألفاً مستعرضة فوق الحرف، والكسرة ألفاً مستعرضة تحت الحرف، والشدّة رأس شين... إلخ(٣٥).

ويقال إنه في مطلع القرن الأول الهجري أصبح التدوين أمراً طبيعياً، فالخطاط خالد بن الهياج كان يكتب للخليفة الوليد بن عبدالملك المصاحف والشعر والأخبار. وأرسل

النبي ــ صلعم ــ كتاباً إلى المقوقس (رئيس اقباط مصر) مع حاطب بن ابي بلتعة سنة ٦ للهجرة / ٤٠ للميلاد، وهذه الرسالة تصور طريقة الكتابة في القرن الأول الهجري. وذكر أن اعشى همدان دوّن قصيدة، في عام ٦٥ للهجرة، تشير إلى الأحداث الحاصلة في تلك السنة. وعثر على نقش آخر في قصر برقة سنة ٨١ للهجرة / ٧٠٠ للميلاد. والخليفة الوليد بن يزيد ١٢٧هـ / ٧٤٤م، أمر بجمع ديوان العرب وأشعارها واخبارها وانسابها ولغاتها(٣٦). والظاهر أن التدوين كان فردياً، وبالرغم من التنقيط المذكور آنفاً فقد كانت قراءة النصوص صعبة لأنها متلاحقة بعضها ببعضها الآخر، أو غير واضحة الحروف.

وروى التاريخ أسماء رهط عظيم من الخطاطين اشتهروا بنسخ المصاحف في العصور الخالية بينهم سلاطين وخلفاء وأمراء ووزراء وائمة طبّق صيتهم الآفاق(٣٧). وبما أن الخط اعتبر من أشرف الفنون لأنه كان يخلّد كلام الله في الصحف، لذلك احتل الخطاطون مكانة أعلى بكثير مما كان للمصورين. وتفرد لنقل المصاحف علي بن محمد بن مقلة ٣٢٨هـ، وزير الخليفة العباسي المقتدر بالله، فقد وجدوا له بخطه الرائع مائة مصحف. وكتب أبو عبدالله الناسخ بخطه الف مصحف. ولم يكن خط النساء الخطاطات بأقل من خط الرجال الخطاطين في تحبير المصاحف، فالخطاطة بادشاه خاتون نسخت من المصاحف الشريفة ما لا نظير له(٣٨).

وكان الكتّاب يكتبون من وحي القرآن، فقد كتبوا القرآن كلّه ولم يكتبوا من الحديث إلّا قليلاً، لأن القرآن الكريم هو أول نص إسلامي مكتوب وصل إلينا(٣٩). وفي القرآن الكريم إشارات كثيرة إلى الكتابة والقلم واللوح، وهذا يشير إلى أهمية الكتابة في كل عصر ومصر وفي كل وقت.

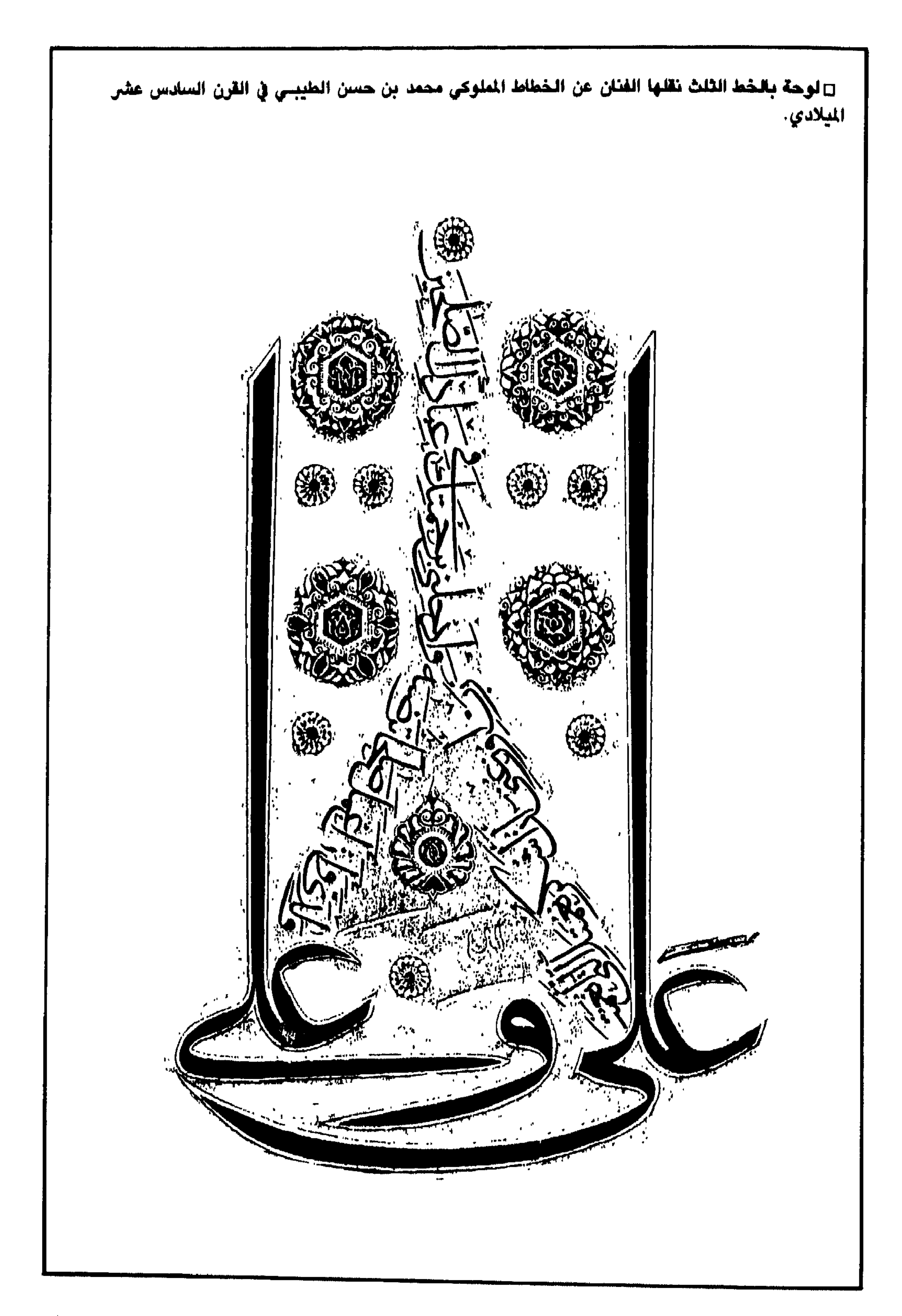
إذاً، انتشر الخط العربي نظراً للحاجة إليه، بخاصة في كتابة الوحي والرسائل التي كان ينفذها الرسول إلى الملوك والأمراء، وأول من عمل على نشره بطريقة عامة هو الرسول، فقد كان محباً لانتشار الكتابة وتعميمها، وكان بمكة حين الرسالة عدد قليل ممن يخط، وبعد الهجرة ابتدأ الخط يشيع، وقد نهج أصحاب الرسول وخلفاؤه هذا المنهج، واتخذ نساخ كل صقع طريقة لهم في الكتابة، وحينئذ أخذ الخط يترقّى ويتفرّع(٤٠).

إذا بقي الخط على حاله في زمن النبي ــ صلعم ــ وفي زمن الخلفاء الراشدين لاشتغال المسلمين بالحروب حتى زمن بني أمية، ثم ابتدأ بعد ذلك يسمو ويرتقي(٤١)، وسمي بالخط الكوفي، واستعمل في عهد بني أمية، وانتقل في عصرهم إلى أفريقيا، وتولّد منه الخط العربي ثم خط الرسائل الذي استنبط من الخط الكوفي والحجازي في أواخر الدولة الأموية، وتوجد له نماذج متعددة على جدران مساجد القاهرة ومدارسها وسبلها. ثم «الطومار» وهو أصغر من «الجليل»، وقد كتبت به أسماء السلاطين. وظهرت عناية الشام بالخط منذ أواخر القرن الخامس الهجري، فظهرت فيه أشكال جديدة من الخطوط، اهمها النسخي(٤٢).

ولما ظهر الهاشميون وجد خط سمي بالعراقي ولم يزل في الترقي حتى انتهى الأمر إلى المأمون، فأخذ كتابه في تجويد خطوطهم، وبقيت الحال كذلك حتى آلت الخلافة للعثمانيين فبرعوا فيه وأحدثوا الخط الرقعي والهمايوني(٤٣).

لقد أوجد الخطاطون المسلمون أساليب وانواعاً وزخرفة، فالتزيينات المقتبسة من النبات، والأشكال الهندسية ملأت الدنيا فازدانت بها المساجد، واستخدمت في القصور والحمّامات والأضرحة ودور السكن العامة والأسواق والخانات والقلاع والمخطوطات، وزينت نسخ القرآن الكريم بالخطوط الجميلة البديعة حتى غدا هذا الطراز من الرسم والتزيين صفة عربية سمّاها الغربيون آرَبسك أي الأرقشة أي الفنون الزخرفية العربية(٤٤). ومنذ العصر العباسي أخذ الخط الكوفي يتنوّع حتى زاد على الخمسين نوعاً، منها المشجّر، والمدوّر والمربّع، وفي العصر المذكور هذا استنبط أحدهم قلم الثلثين (ثلثا الطومار)، واخترع من الثلثين خطاً سمّاه (الثلث)(٤٥).

ويشدد أغلب المستشرقين ومنهم الدكتور غروهمان على أثر الآرامية أو السريانية والأسطرنجيلية في تطور بعض الحروف(٤٦). ويرى برجه (Berger) أن الخط الكوفي كان



□ لوحة بالخط الثلث نقلها الفنان عن الخطاط المملوكي محمد بن حسن الطيبي في القرن السادس عشر الميلادي.

يكتب في بلاد العرب وسواحل سوريا. أما النسخي فكان مستعملاً في مصر[٤٧]. اما بلاشير فرأى أن الكتابة السريعة كانت بالخط النسخي أي في اغراض العاجلة والمراسلات والعقود الرسمية أو الخاصة، أما الكوفية فهي مخصّصة للنقوش وحفظ النصوص الدينية[٤٨].

اما تطور الخط في المغرب والأندلس فقد اتّبع طريقاً خاصاً ظهر في الكتابات الأثرية وفي أسلوب الخط الباقي هناك[٤٩] وظل الخطاطون يكتبون على طريقة الخط الحجازي، واستخدموا فنوناً كـ «الجليل» و «الثلث»، كما يشاهد على جدران الحمراء بغرناطة[٥٠]، وتطور هذا الفن في إيران إلى أن وصل إلى خط التعليق الفارسي بأنواعه المتعدِّدة[٥١]، وكان استعماله عاماً في أواسط آسيا وفارس، اخترعه الخطاطون الأتراك من اشكال الخطوط العربية، وحوّلوا بعض أنواعه كـ «الرقاع» إلى ما نعرفه اليوم. واخترعوا من الخط المسلسل الخط «الهمايوني» ومن أشهر خطّاطيهم الحافظ عثمان بن علي[٥٢].

والملاحظ أن النساخة والكتابة والخط تحسّنت وتقدّمت بالتقدم الزمني والاختلاط بين الشعوب بحيث كان يأخذ خطاط من أمة عن آخر من أمّة أخرى، وهكذا وبهذا الشكل، ونظراً للحاجة إلى الكتابة كانت الشعوب تسعى إلى الأفضل، طبعاً، قبل ظهور الطباعة.

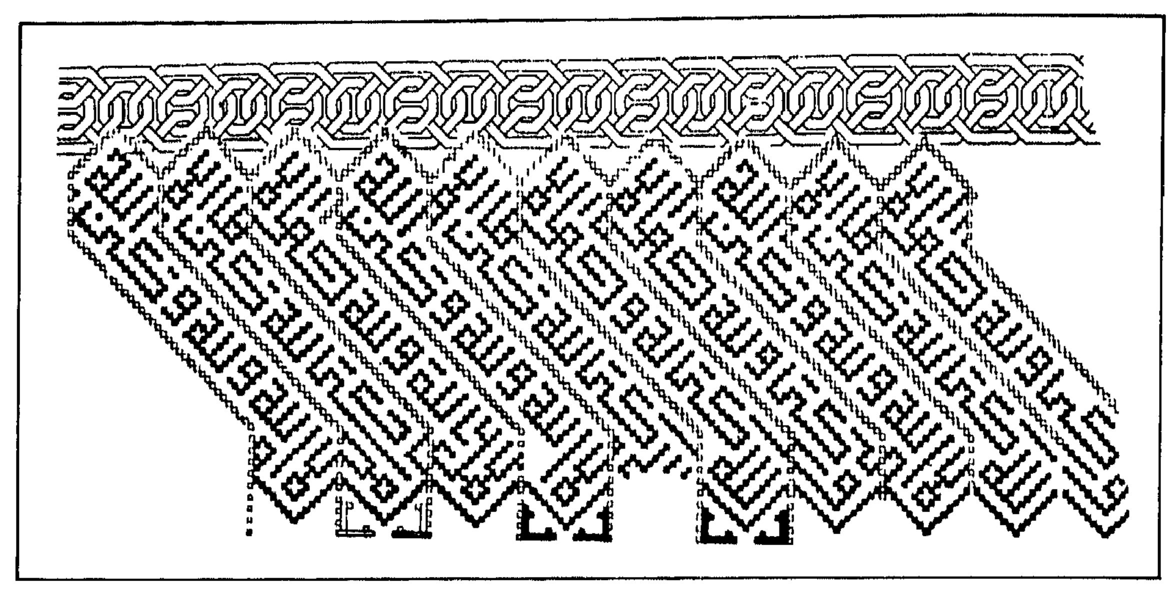
أما في مصر فقد برز منذ العصر الطولوني الخطاط طبطب الذي جاء على رأس المدرسة المجوِّدة للخط، ويقال أن مصر نافست دولة العباسيين في ذلك، وفتحت مدارس لتعليم الخط ظلّت عامرة حتى العهد المملوكي[٥٣]. ويقال إنه بعد استيلاء صلاح الدين على مصر باع رجاله خزانة كتب، وكانت من «عجائب الدنيا»، وقيل إنه لم يوجد في البلاد الاسلامية دار كتب أعظم منها، فقد كانت تضم الفي مجلّد، منها بالخطوط المنسوبة مئة الف[٥٤]، وكان الخطاطون يتبارَوْن في تنميق الكتب وتجويدها وتوفير عدد نسخها ترغيباً للأدباء والحكام في إحرازها وتزيين مجالسهم بها[٥٥]. وجاء في صبح الأعشى: أن الكتابة صناعة روحانية تظهر بآلة جثمانية، فالروحانية هي الألفاظ التي يتخيلها الكاتب في أوهامه، ويصور من ضمِّ بعضها إلى بعض صورة باطنة قائمة في نفسه، والجثمانيّة هي الخط الذي يخطّه القلم، وتعتبر به تلك الصورة، وتصير بعد أن كانت صورة باطنة معقولة، صورة محسوسة ظاهرة، والآلة هي القلم، وهذا التحديد يشمل جميع ما يسطّره القلم مما يتصوّره الذّهن ويتخيّله الوهم[٥٦].

وكانت هذه الرسوم بالمشرق والأندلس معبّدة الطرق، واضحة المسالك، ولهذا نجد الدواوين المنتسخة لذلك العهد في الأقطار على غاية من الاتقان والاحكام والصِّحة، إلّا أنّ الخط الذي بقي من الاجادة في انتساخ هنالك، إنما هو للعجم في خطوطهم، وأما النسخ بمصر ففسد كما فسد بالمغرب والمشرق»[٥٧].

طريقة تلقي العلم وأخطاء النسّاخ

كان لكل عالم مشهور، طالب ينقل عنه سماعاً أو استملاء أو استنساخاً. وكانت هذه الطرق جيدة كافية، شرط أن يبذل الأستاذ جهده في التصحيح، وأن يبذل الطلبة جهدهم في الكتابة، وأن لا يجيز الأستاذ الكتاب إلا بعد قراءة الخطوط بكامله. فالمخطوط الذي نسخه عالم ثقة، أو كان في حوزة عالم أو أكثر من الثقاة اعتبر نصاً موثوقاً به[٥٨]. ومن المفيد هنا ذكر طرق التدوين: فقد كان الأستاذ، أحياناً، يملي على تلاميذه، كما فعل ابن الأعرابي (المتوفى ٣٣٥هـ). أو كان التلميذ يكتب ما سمعه عن أستاذه بعد انتهاء الدرس[٥٩].

لا بد من الاشارة إلى أن وضوح الخط والتأني في النسخ، والأمانة في النقل تساعد الكاتب على إيصال الأفكار الحقيقية، ولا شك في أن النسخ مهنة صعبة جداً تتعب الناقل، لأنه لا يتمكن من إنجاز أعمال كثيرة في فترة وجيزة، لذلك كان الناسخ يسرع في العمل ليتقاضى مبالغ اكبر، وفي هذه الحال كان يقع في الخطأ وهذا يسيء إلى الأمانة في النقل، لذلك وجب محاسبة الناسخين لأن عملهم أصبح تجارة، وفي التجارة لا بد من دفع الثمن مقابل العمل، من هنا كان



□ هذا الشكل يمثل النصوص الواردة على منارة جامع الحيدر خانة في العراق، ففيها تكرار لكلمة او جملة، وفيها تجميع ثلاثي او رباعي لها، وبها تكرار تناظر. (مقتبسة من كتاب البعد الواحد لشاكر حسن آل سعيد).

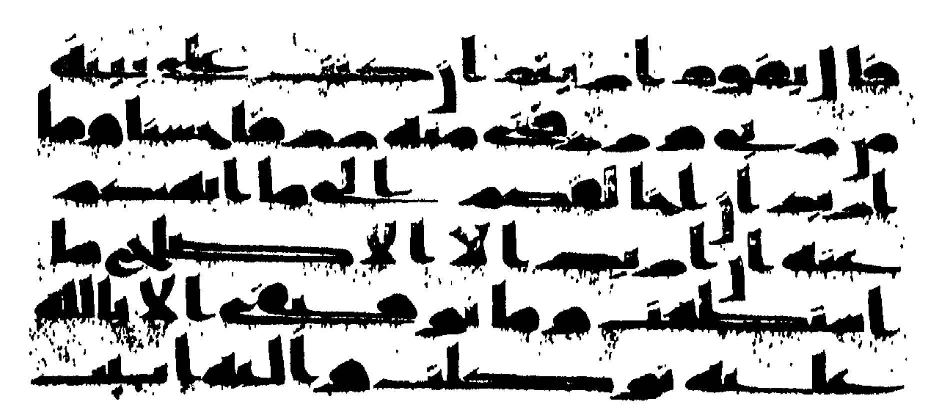
لا بد من مراجعة الكتاب قبل استلامه لمعرفة النواقص والأخطاء اللاحقة به.

وكان بعض النسّاخ لا يفهمون شيئاً مما كانوا ينسخونه من الكتب، في كثير من المواضع، فالناسخ لا يكاد ينسخ نسخاً صحيحاً إلّا ما يفهم معناه، ولهذا نشاهد كثرة التحريف في الأعلام، وتفيد المراجع أن رغبة بعضهم في المطالعة، كان يؤدي بهم أحياناً إلى التغيير نتيجة لعدم وضوح الخط أو التنقيط، وهذا ما حدث للأصمعي، يقول أبو حاتم السجتاني: «قرأ الأصمعي على أبي عمرو بن العلاء شعر الحطيئة:

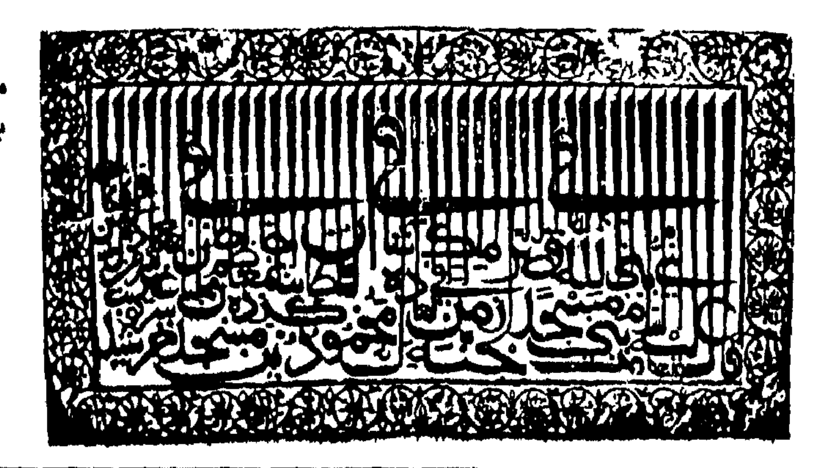
وغررتني وزعمت أنـ
ـك لابنٌ بالصيف تامر»

أي يريد أن يقول إنه كثير اللبن والثمر، فقد قرأها الأصمعي: لا تني بالضّيف تأمر»، أي لا تتوانى عن ضيفك فتأمر بتعجيل الطّعام له. فقال له أبو عمر: «أنت والله في تصحيفك هذا أشعر من الحطيئة وتفسيرك للتصحيف أغلط علي من تصحيفك»[٦٠].

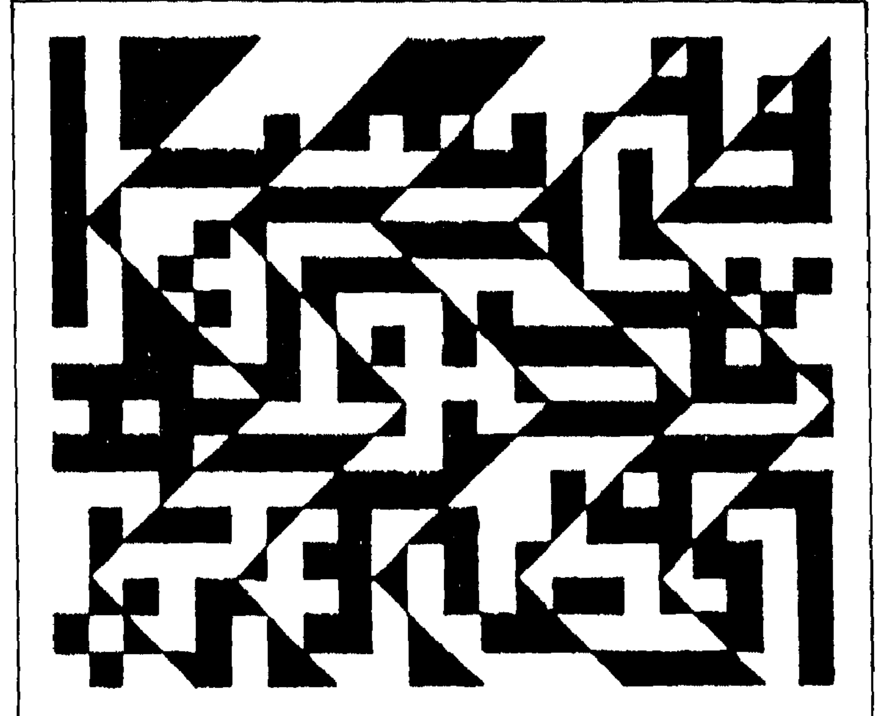
ونرى أحياناً ذكر شيء عن المخطوط الذي استنسخ منه الناسخ، مثال: «الأخبار الطّوال للدينوري، فقد بقي لذلك الكتاب ثلاث نسخ، الأولى فُرِغ من نسخها سنة ٦٥٥هـ. والثانية سنة ١٠٠٠هـ، ثم عدم ذكر الناسخ تاريخ النسخة، إمّا سهواً، وإمّا للغش رغبة في الترويج، وهذا يُفضي إلى التضليل إذا لم ينتبه إليه الناقد[٦١].



□ الآية ٨٨ من سورة هود، على طريقة الخطاط المغربي القندوسي في القرن التاسع عشر الميلادي.



□ لوحة من الخط العربي منقولة عن مسجد خورشيد خان بمدينة بهاغالبور بولاية بيهار. ترجع إلى ٣ آب ١٤٤٦م.



□ رسم تجريدي حديث، وهو مستوحى من الخط العربي الكوفي، وهكذا نلاحظ اثر الخط العربي في الزخرفة الكلاسيكية الاسلامية وقابليته للزخرفة التجريدية.

ولا بد من القول بأن الناسخ يجب أن يعرف أسماء الملوك والمدن والقلاع، فعندما يعرفها يجب أن يضبطها بالشّكل لتكون مقروءة كي لا تختلف في اللفظ بين شخص وآخر، وإذا وجد من تقارب بين الأسماء، لا بد من الاشارة إلى ذلك، ليكون المطالع على معرفة واضحة بما يقرأ فيلفظ الأسماء كما يجب أن تكون، ومن هنا قيمة ما ينسخ وما يكتب.

لكن إذا انفكّت ورقة من كتاب معين، ثم وضعت في غير موضعها، أو سقطت بعض ورقات، ثم نسخ الكتاب من النسخة التي وقع التبادل بين أوراقها، فهنا يقع بالضرورة تقديم أو تأخير أو خلل، كديوان قيس بن الحطيم وله نسختان، الأولى قديمة كتبت سنة ٤١٩هـ، وقد سقطت من هذه النسخة بعض ورقات قبيل آخر الكتاب، ومما يماثل سقوط ورقة سقوط سطر عند نسخ الكتاب، لأن الناسخ بعد إتمام السّطر لا يبدأ بما بعده، بل يجاوز سطراً كاملاً ويبتدىء بالثالث(٦٢).

ويجب أن يشار إلى النسخة إذا كانت كلّها بخط واحد وحجم واحد أو غير ذلك، كأن يقال مثلاً: من قانون ابن سينا ستة عشر مجلداً متداخلة، مختلفة الخط والقطع، أو من الخط المنصوري في الجزء الأول، مخرّم في آخره(٦٣).

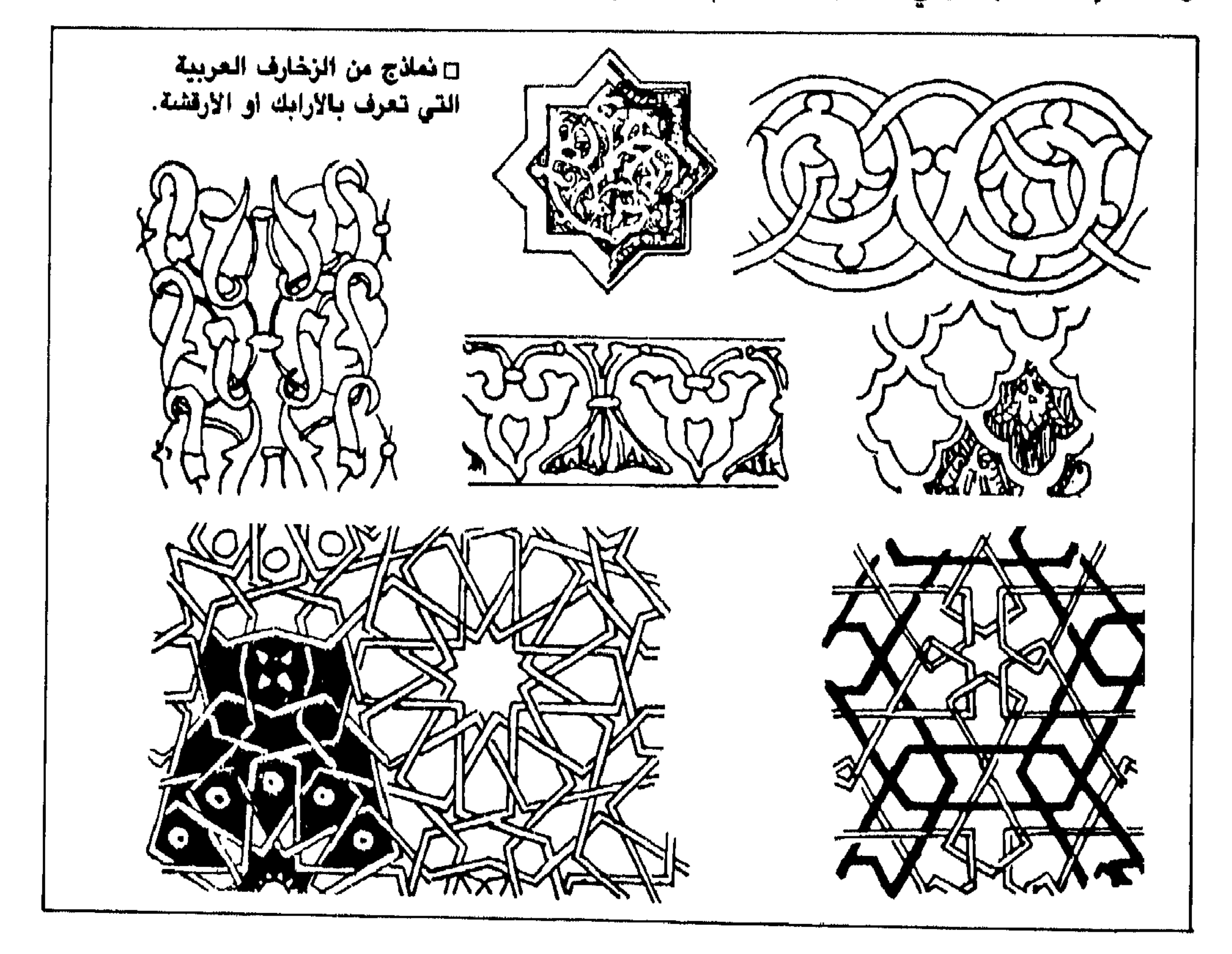
وينبغي أن يتنبه الناقد إلى كل فرق في الخط في كل ورقة، وإلى اختلاف الأصل الذي قد



□ سورة الكوثر باسلوب الخط العربي المستخدم في القرن الثاني الهجري.

لا يظهر بوضوح أو قد يُطمس، فمثلاً إذا نسخ ناسخ كتاب (المحتسب) بخط واحد، وكان نصه مأخوذاً من أصلين، أو إذا أخذ الكاتب نفسه قسماً من كتاب وقسماً من آخر لعلّة من العلل مثل: (كتاب الفهرست لابن النديم المتوفى سنة ٣٨٥هـ)[٦٤].

ويقول ابن خلدون: أمّا الشروط المعتبرة في الكتاب فقد استوعبها عبدالحميد الكاتب في رسالته إلى الكتّاب، وهي: أمّا بعد حفظكم الله يا أهل صناعة الكتابة وحاطكم ووفقكم.. فجعلكم (الله) معشر الكتاب في أشرف الجهات أهل الأدب، والمروءات والعلم والوزانة.. فتنافسوا يا معشر الكتّاب في صفوف الآداب وتفقّهوا في الدين. وابدأوا بعلم كتاب الله والفرائض، ثم العربية فإنها ثقاف ألسنتكم، ثم أجيدوا الخط فإنه حلية كتبكم[٦٥]. وإبراز الكتاب كان يتم إمّا بإهداء نسخة منه إلى رجل رفيع القدر ألّف له الكتاب، وإمّا بالاذن باستنساخ الكتاب،



□ نماذج من الزخارف العربية التي تعرف بالأرابك أو الأرقشة.

أو بـإملائـه على الطلبـة. ولما كـان المؤلفـون لا يطّلعون على كل ما ينسخ من كتبهم، ازداد احتمال وقوع الفـرق بينها مثـال ذلك: «درّة الغوّاص إلى أوهام الخوّاص للحريري»(٦٦).

إذاً، كان للنسخ أهمية كبيرة على البشرية لأنه كان وسيلة لنقل المعارف من سلف إلى خلف، فساعد على تلقّي العلم، وتفتح الأذهان، بخاصة لأن النسخ كان الوسيلة الوحيدة لنقل المعارف قبل ظهور المطبعة.

وإن كان نقل النصوص بأمانة قد أفاد فلعل بعضها دخلها التحريف عن قصد أو عن إهمال، فكان من المفروض على العالم المدقق معرفة الصحيح من المغشوش، وذلك بمقارنة الخطوط في المؤلّفات التي وضعها المؤلِّف نفسه بعضها مع بعضها الآخر.

ولا بد، أيضاً، من الاشـارة إلى أن بعض النساخ كانوا ثقة، لذلك يصح أن تؤخذ نسخهم كوثائق أساسية.

صحيح أن بعضهم كان بعيداً عن الأمانة أثناء النسخ، لكن لم يكن بد من الرجوع إلى المؤلفات الموضوعة في العصور المختلفة كونها تنقل صورة إن لم تكن واضحة، عن الحقبة التي جرى فيها النسخ، فعلى الأقل أنها تنقل لنا بعض الحقائق التي تفيدنا بعد الدراسة من استخلاص النتائج. ●

الهوامش:

(١) فارس (محمد احمد)، الكتابة والتعبير، لا مكـان، لا تاريخ، ص ٨.
(٢) عبـدالنـور (جبـور)، المعجم الادبـي، دار العلم للملايين، ط ١، بيروت، ١٩٧٩، ص ٣١٧.
(٣) شهاب (حسن)، دليل الكاتب، ط ١، ١٩٠٩، بلا دار طبع، ص ٧.
(٤) شهاب (حسن)، دليل الكاتب، ص ١٩.
(٥) الخـوري (منير)، صيـدا عبر حقب التـاريـخ من ٢٨٠ ق. م. إلى ١٩٦٦. منشورات المكتب التجاري، بيروت، ١٩٦٦، ص ٣٣.
(٦) صفير (يعقوب)، اختراع الحرف العربـي الموحّد، مطبعة الثبات، بيروت، ١٩٤٨، ص ٣.
(٧) الخوري (منير). صيدا عبر حقب التاريخ، ص ٣٣، ٣٤.
(٨) الخوري (منير)، صيدا عبر حقب التاريخ، ص ٣٣، ٣٤.
(٩) تاريخ العـرب والعالم، السنـة السابعـة، العددان ٨١ ــ ٨٢، تـمـوز ــ آب، دار النشر العـربيـة للدراسات، ص ٧١.
(١٠) شهاب (حسن)، دليل الكاتب، ص ٤٠.
(١١) عبادة (عبدالفتاح)، انتشار الخط العربـي في العالم الشرقي والعالم الغربـي، مطبعة هندية بالموسكي بمصر، ١٩١٥، ص ٨.
(١٢) هارون (عبدالسلام)، تحقيق النصوص ونشرها، ط ٢، مؤسسة الحلبـي وشركاه، مطبعة المدني، القاهرة، ١٩٦٥، ص ١٤.
(١٣) مدينة قديمة في العراق.
الرجـال الثلاثـة هم: مرامـر بن مرّة، واسلم بن سدره، وعامر بن جدره.
(١٤) مكي (الطاهر احمد)، دراسة في مصادر الأدب، ط ٤، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٧، ص ٢٩.
(١٥) الحوليات الأثرية العـربية السـورية، المجلد ٢٣، الجزء ١ و ٢، تصدرهـا المديـرية العـامة للآثـار والمتاحف في الجمهورية العربية السورية، ١٩٧٣، ص ٧٦، ٧٧.
(١٦) الرفاعي (أنور)، تاريخ الفن عند العرب والمسلمين، ط ٢، دار الفكر، ١٩٧٧، ص ١٢٧.
(١٧) فارس (محمد احمد)، الكتابة والتعبير، ص ١٢، ١٣.
(١٨) الحوليات الأثرية العربية السورية، ص ٧٧.
(١٩) الحوليات الأثرية العربية السورية، ص ٧٧.
(٢٠) نسبة إلى جبل الصفا في جبل الدروز.
(٢١) نسبة إلى بني لحيان، ولا يختلف هذا الخط عن الخط المسند.
والثمودي مشتق من المسند والخط الصفوي يشبه الخط اللحياني.
(٢٢) الرفاعي (أنور)، تاريخ الفن، ص ١٣٤.
(٢٣) مكي (الطاهر احمد)، دراسة في مصادر الأدب، ص ٣٥.
(٢٤) الحوليات الأثرية العربية السورية، ص ٧٨.
(٢٥) ابو غزالة (اديب)، الكيان المجرد للأحرف العربية، دار الريحـاني للطباعـة والنشر، بيروت، ١٩٥٤، ص ١.
(٢٦) مكي (الطاهر احمد)، دراسة في مصادر الأدب، ص ٣٧ و ٣٨.
(٢٧) الحوليات الأثرية العربية السورية، ص ٧٧.
(٢٨) الحوليات الأثرية العربية السورية، ص ٧٦.

(٢٩) طرازي (فيليب)، خزائن الكتب العربية ١، ط ١، بيروت، ١٩٧٩، ص ٢.
(٣٠) الحاج حسن (حسين)، أدب العرب في عصر الجاهلية، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، ط ١، بيروت، لبنان، ١٩٨٤، ص ٨٣.
(٣١) امرؤ القيس.. ديوان، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، طبع دار المعارف بمصر، ١٩٥٨، ص ٨٥.
(٣٢) طرفة، ديوان، تحقيق مكس سلفون، طبع باري، ١٩٠٠، ص ٦٨.
(٣٣) طرازي (فيليب دي)، خزائن الكتب العربية ١، ص ٣.
(٣٤) عباده (عبدالفتاح)، انتشار الخط العربي، ص ٢٧.
(٣٥) مكي (الطاهر احمد)، دراسة في مصادر الأدب، ص ٤٧.
(٣٦) مكي (الطاهر احمد)، دراسة في مصادر الأدب، ص ٤٠.
(٣٧) الرفاعي (أنور)، تاريخ الفن، ص ١٢٨، ١٢٩.
(٣٨) طرازي (فيليب دي)، خزائن الكتب العربية ١، ص ١٤، ١٥.
(٣٩) هارون (عبدالسلام)، تحقيق النصوص، ص ٩، ١١.
(٤٠) عبادة (عبدالفتاح)، انتشار الخط العربي، ص ١١، ١٢، ١٣.
(٤١) عباده (عبدالفتاح)، انتشار الخط العربي، ص ١٣.
(٤٢) الرفاعي (أنور)، تاريخ الفن، ص ٣١.
(٤٣) شهاب (حسن)، دليل الكاتب، ص ٤٨، ٤٩، ٥٠.
(٤٤) الرفاعي (أنور)، تاريخ الفن، ص ٤.
(٤٥) مكي (الطاهر احمد)، دراسة في مصادر الأدب، ص ٥١.
(٤٦) الحوليات الاثرية العربية السورية، ص ٧٩.
(٤٧) Berger (Ph.), Histoire de l'écriture, Paris 1981, 291.
(٤٨) Blachère, Histoire de la littérature arabe, Vol. 1, 163.
(٤٩) الرفاعي (أنور)، تاريخ الفن، ص ١٣٤.
(٥٠) مكي (الطاهر احمد)، دراسة في مصادر الأدب، ص ٥١.
(٥١) الرفاعي (أنور)، تاريخ الفن، ص ١٣٤.
(٥٢) مكي (الطاهر احمد)، دراسة في مصادر الأدب، ص ٥٢.
(٥٣) الرفاعي (أنور)، تاريخ الفن، ص ١٣٤.
(٥٤) طلس (أسعد)، مصر والشام في الغابر والمعاصر، دار المعارف بمصر، ١٩٤٥، ص ٦٨.
(٥٥) الرفاعي (أنور)، تاريخ الفن، ص ١٣٤.
(٥٦) طرازي (فيليب دي)، خزائن الكتب العربية ١، ص ٩١.
(٥٧) هارون (عبدالسلام)، تحقيق النصوص، ص ١٢، ١٣.
(٥٨) أصول نقد النصوص ونشر الكتب، ص ١٦، ١٧.
(٥٩) حاج حسن (حسين)، أدب العرب في عصر الجاهلية، ص ٨٧، ٨٨.
(٦٠) السيوطي (عبدالرحمن جلال الدين)، المزهر في علوم اللغة ٢، دار إحياء الكتب العربية، لا تاريخ طبع، ص ٣٥٥.
(٦١) أصول نقد النصوص ونشر الكتب، لا تاريخ، لا دار، ص ١٦، ١٧، ١٨.
(٦٢) أصول نقد النصوص ونشر الكتب، ص ٢٢، ٢٣.
(٦٣) المنجد (صلاح)، قواعد فهرسة المخطوطات العربية، ط ١، دار الكتاب الجديد، بيروت، ١٩٧٣، ص ٢١.
(٦٤) أصول نقد النصوص ونشر الكتب، ص ٢٥.
(٦٥) ابن خلدون، مقدمة، يطلب من المكتبة التجارية الكبرى بشارع محمد علي بالقاهرة، لا تاريخ طبع، ص ٢٤٨، ٢٤٩.
(٦٦) أصول نقد النصوص ونشر الكتب، ص ٢٦.



● «كان الخليفة عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، يشاور أفاضل الرجال في تعيين كبار موظفيه، فقال لهم يوماً: أشيروا عليّ ودلوني على رجل أستعمله في أمر قد دهمني، فقولوا ما عندكم، فإنني أريد رجلاً إذا كان في القوم وليس أميرهم كان كأنه أميرهم، وإذا كان فيهم هو أميرهم كان كأنه واحد منهم، فقالوا: نرى لهذه الصفة الربيع بن زياد الحارثي، فأحضره وولاه.. فوفق في عمله وقام فيه بما أربى على رجاء عمر وزاد عليه، فشكر عمر لمن أشاروا عليه بولاية الربيع».

● «لا يقال وجدت الحقيقة، بل يقال وجدت وجهاً من وجوه الحقيقة».

(جبران خليل جبران)

الدراسات التاريخية عن المدن في التاريخ العربي — الاسلامي قليلة جداً، ولا سيما فيما يخص أوضاعها الاقتصادية، وفيما يلي مقالة عن تاريخ القاهرة الاقتصادي في العصر الفاطمي تقدمها مجلة تاريخ العرب والعالم كنموذج لدراسة المدينة التجارية الاسلامية التي لعبت دوراً في حلقة الوصل ما بين المناطق في التاريخ العربي.

تاريخ القاهرة الاقتصادي

سليمان مصطفى زبيس

لمحة تاريخية:

ما من شك أن مصر قد كانت بلاداً غزيرة الثروة وقد لعبت بموجب ذلك أدواراً جليلة في السياسة والحضارة وأن الآثار الفرعونية الموجودة في ربوعها لهي دليل ساطع على عظمة المظاهر التي بلغها المجهود البشري في النهوض بالقيم الانسانية المبدعة الخلاقة.

وقد عاشت مصر في كنف هذا الماضي المجيد عيشة الرغد والسعة إلى أن أسدل الاسلام عليها رايته فكانت جوهرة ناصعة في عقد الخلافة وغرة باسقة في جبينها فكانت قاعدة الفتوح الاسلامية والعربية نحو المغرب قبل أن تتولى القيروان النهوض بالمشعل إلى «بواتييه» عبر الأندلس وجبال البيريني.

وبقيت مصر في انتشارها عهداً بعد عهد من فسطاط عمرو بن العاص إلى عسكر أحمد بن طولون فإلى قطائع الأخشيد المعقل الرئيسي والدعامة المتازة في جهاز الامبراطورية الاسلامية السياسي والحزبي والاقتصادي إلى أن خرج بها الفاطميون من هذه التبعية الذهبية فجعلوا منها مركزاً لخلافة فاقت في الأبهة والعظمة والحضارة جميع الخلافات السابقة، وإذ أنشأ الفاطميون مدينة القاهرة فإنما أنشأوا عاصمة لتبعث من أرجائها طاقات جديدة يستعيد بها الاسلام قواه السائرة إلى الوهن بعد فتور بغداد وتلاشي نفوذها وضعفها وعجزها عن قود الأمة في سبيل التقدم المطرد الذي عرفته في عصورها الزاهرة والذي أوشك تياره على الانقطاع، وإذ أنشأ الفاطميون مدينة القاهرة فإنما أرادوا تهيئة مركز وسط بين الغرب والشرق وبين الجنوب والشمال وشرفة على البحر ترصد منها مختلف التيارات السائرة على اليم، فالمظنون أن غايتهم التي تاقوا إليها من احتلال بغداد يوماً من الأيام وزحزحة الخلافة العباسية من الميدان لم تكن تفيد القطع بأنهم يتخذونها عاصمة للخلافة الفاطمية فلعلهم كانوا يرمون فقط إلى الاستيلاء على مدينة السلام وما ولاها ثم العودة إلى الوكر الذي لم يرضوا عنه بديلاً وهو القاهرة بجوار النيل وحقوله الطيبة الكريمة ومنتزهاته الفاتنة.

وعلى كل فإن الواقع الذي حدث أن الخلفاء الفاطميين لم يغادروا القاهرة طوال مدة دولتهم بالرغم من أنهم امتلكوا جانباً من الاقطار الشرقية ليس بالهين، وهذا ما جعل من القاهرة مركزاً سياسياً راسخ القدم طويل النفس في اتجاهاته ومعقلاً لقوة جبارة في عالم ذلك الوقت بل فقد أرسى الفاطميون لهذه المدينة قواعد البقاء والازدهار وضمنوا لها الاستمرار والدوام بالهيبة وحسن الاعتبار فمنها قام صلاح الدين الأيوبي بحملاته الموفقة على الحركات الاستعمارية الصليبية وعن طريقها توزعت خيرات المشرق وذخائره نحو أوروبا والمغرب خصوصاً في أيام المماليك وعن طريقها استمر توزيع هذه النفائس بعدهم وذلك قبل فتح ترعة السويس وبعدها، فلا غرابة إن كان لذلك فضل عظيم في ازدهار اقتصادها ازدهاراً خارقاً متواصلاً وإن كانت محل اعتبار مختلف الدول الغربية جميعها وخصوصاً التجارية منها والبحرية كجنوة والبندقية ثم هولاندا وانجلترا وفرنسا فكانت محل الاعتبار من طرف هذه الدول وكذلك مجلبة للأطماع وهدفاً للحملات الاستعمارية.

وفي هذه الكلمة المختصرة عن أحوال القاهرة الاقتصادية وعلاقتها الخارجية سوف لا نتعدى الفترة الفاطمية لأنها فترة الانشاء والانبعاث وكذلك لاتساع الموضوع وتشعب أبوابه ووفرة مادته إذا حاولنا تجاوز الفترة المذكورة.

وقد تصفحنا في المدة الأخيرة كتاب الذخائر والتحف للقاضي الرشيد بن الزبير فرأينا أن نستهل هذه الكلمة ببعض من الفصول التي أوردها عن تحف وذخائر القاهرة وهي ذخائر تصور لنا مكاسب ملوكها وكبرائها وثرواتهم

وروائــع كنوزهم ونفيس اعــلاقهم في صــورة مدهشة.

جاء في كتاب ابن الزبير أن القائد جوهــر أهدى «إلى المعز لدين الله بعد ما ملك مصر في سنة ٣٥٩هـ، هدية فيها ٩٩ نجيبة وقبة بأجلة الديباج المنسوجة بالذهب ومناطق من الذهب المكللة بالجوهر و ٢٢٠ ناقة بالديبــاج والأعنة المحلاة بالفضة و ٥٠٠ جمل، و ١٨ دابة، عليها اجلة الديبــاج المنقوش والســروج على جميــع أصناف الحلية من الذهب ومنها ما هو بالفضة مموه بالذهب ولجمها منها ما هو بالذهب ومنها ما هو بالفضة».

«ولما سار العزيز بالله إلى بلبيس متوجهاً للغزو سنة ٣٨٥ كان في جملة ما خرج معه من المال خمسة آلاف جمل على كل جمل صندوقان كبيران مملوءان مالاً، والف وثمانمائة بختية وبختي على كل واحد صندوقان في كل صندوق منهما مثل ما في الصناديق المحمولة على الجمال».

وأهدت السيدة الشــريفة ست الملوك أخت الحاكم بأمر الله إلى أخيها في التاسع من شعبان سنة ٣٨٧ هدايــا من جملتها ثــلاثون فــرساً بمراكبها ذهباً منها مركب مرصع ومركب من حجر البللور وعشرون بغلة بسروجها ولجمها وخمسون خادماً ومائة تخت من أنواع الثياب وفاخرها وتاج مرصع بنفس الجوهر وشاشية مرصعة وأسقاط كثيرة من طيب من سائر أنواعه وبستان من الفضة مزروع من أنواع الشجر».

وقــد وجد للأستــاذ أبــي الفتوح بــرجوان العزيزي حين قتله الحاكم في سنة ٣٩٠:

ـــ مائة منديل شروب ملونة معممة كلها على مائة شاشية.

ـــ ألف سراويل دبيقية بألف تكة حرير.

ـــ آنية الذهب والفضة ما لا يحصى كثرة.

ـــ الخيل الجياد ١٥٠ فرساً.

ـــ البغال المثقلة ٣٠٠ بغل.

ـــ السروج الثقيلة الحلى ١٥٠ سرجاً.

ـــ الكتب المصــورة وكتب الأغــاني الشيء الكثير.

«ووجد لقائد القواد الحسين بن جوهر حين قتله الحاكم سنة ٣٩٩ في جملة ما وجد:

ـــ ٧٠٠٠ مبطنة حرير.

٩ مثارد صيني أسود مملوءة حب كافور (من فنصورة وهي بلدة في جنوب جاوة) وزن كل حبة ثلاثة مثاقيل.

وقد أهدى المعز بن باديس صاحب القيروان هدايا إلى الخليفة الظاهر لاعــزاز دين الله في سنة ٤٢٠ فانفذ إليه الظاهر ـــ على حد قول القاضي الرشيد ـــ هدية جليلة المقدار فيها من غرائب طرف بلاد الهند والصين وبلاد خراسان من ســائر أنــواع الطيب والجوهــر وغير ذلك ما لا يحد، ومن دق تنيس ودمياط وتونة وأعمالها من المــلابس والفــرش والتعــاليق والأعــلام والمنجنوقات والبنود والألوية على القصب والفضة المجراة بالذهب من سائر الصــور كل بــديعة وغريبة قدرها وتمنع وجود مثلها، وحمل إليــه القباب والمحافل المعمولة من العــاج والأبنوس والصندل المضبب بالذهب والفضة التي عليها أهلة الذهب المجللة بــفــاخــر الأجلة ومــن الخسرواني الأحمر المــذهب والمخمل والدبيقي المذهب، ومن الخيل العراب ذوات الأثمان الغالية والصفات البديعة شيء كثير على أكثرها سروج الذهب والفضة والجوهر والعنبر والكافور، ومن الدروع والخوذ والجواشن المذهبة والسيــوف المجوهرة».

وقد وجد للسيدة راشدة بنت المعز لدين الله حين ماتت سنة ٤٤٢ ما قيمته ألف ألف من الثياب المصممة ألواناً ومائــة قطرميــز مملوءة كافوراً قنصورياً.

ومــاتت أختهــا عبــدة بنت المعــز في هــذه السنة (٤٤٢) بعد ثلاثة أيام فكان مما وجب أن يختم عليه في خزائنها ومقاصيرها وصناديقها مما حوته من موجودها ذهباً أربعون رطلاً من الشمع وأن بطائق المتاع الموجود المسجل لها بلغ ٣٠ رزمة من الورق ووجد لها:

ـــ اربعمائة سيف محلى بالذهب.

ـــ ٣٠,٠٠٠ شقة صقلية.

ـــ اما الجواهر فما لا يحد كثرة.

ـــ والزمرد كيلة أردب واحد.

ووجد لها طست وإبريق من البللور فلما رآهما سيد الوزراء اليازوري فلفرط استحسانه لهما وعــظيم قدرهمــا عنده ســأل السلطان فيهمــا فوهبهما له (واستأثر اليازوري) بمدهن ياقوت احمر وزنه ٢٧ مثقالاً أخذه سراً من السلطان».

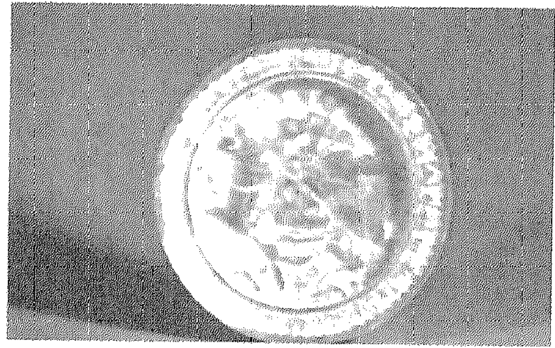
الدول منذ ظهر الاسلام إلى وقتنا هذا نفاسة وجلالة وغرابة وكثرة وحسناً وملاحة وجودة وسناء قيمة وغلة ثمن، على أن الذي أخرج يسير من كثير وقليل من جليل، ولقد قيل أنه نقل منه مياسير التجار إلى سائر الأمصار وجميع الأقطار، سوى ما أخذته النار وغرق في البحار وامتلأت قياسير مصر وأسواقها من الأمتعة المجرجة من قصر السلطان المبيعة على الناس بما يعجز الوصف عن وصفه وقد عدد شيئاً منها صاحب كتاب الذخائر والتحف بما يقف الانسان حائراً في أمره أيطلق العنان للاعجاب بالجريدة التي تضمنت هذا العدد العديد من النفائس؟ أم يطلقه لهذا القاموس الفني الغزير الألفاظ الطريف المادة كأنه ألف خصيصاً لهذه الطرف النادرة؟.

بعد هذه الطرائف حول مكاسب بعض أمراء الدولة الفاطمية وكبار رجالتها يتضح بجلاء أن مثل هذه الثروات إنما لا تتيسر إلا إذا كان اقتصاد البلاد اقتصاداً مزدهراً، نعم إننا لا ننسى أن القائد جوهر ثم الخليفة المعز قد نقلا جميع ما أمكن نقله من الذخائر والنفائس والأموال والصناع التي انكبت الدولة على جمعها في بلاد المغرب طيلة ما يقرب من السبعين سنة ولكن البلاد المصرية كانت بها ذخائر الأخشيد وممتلكاته وممتلكات أهل بيته وممتلكات رجال دولته وحاشيته وكل ذلك صار في قبضة الفاطميين فدعموا به ثروتهم الطائلة، زد على ذلك صقلية وقد بقيت تابعة للقاهرة بعد خروج الفاطميين إلى مصر لا تابعة للقيروان كما كانت سابقاً فسيقت خيراتها، منذ حل القائد جوهر بأرض مصر، مباشرة إلى القاهرة بعد أن كانت السفن تسير بها إلى مرسى المهدية.

ولا ننسَ في النهاية أن الوزير يعقوب بن كلس وعسلوج بن الحسين قد وضعا منذ سنة ٣٦٣ ــ أي بعد عام من حلول الدولة الفاطمية بالقاهرة ــ وضعا نظاماً جبائياً مبتكراً وقرابة خراج مصر بصورة عظيمة وبالجملة فإن النظام الفاطمي قد كان نظاماً مركزاً على جباية بالغة الالحاح فكانت هناك ضرائب مفروضة على التجارة والصناعة في مختلف أطوار تنقل البضاعة عند دخولها إلى الحدود وفي تجوالها داخل البلاد من مكان إلى مكان مع استلزام







□ قطع فنية من العصر الفاطمي / القرن الثاني عشر ميلادي.

وخلفت السيدة ست مصر بنت الحاكم بأمر الله حين ماتت في مستهل جمادى الثانية سنة ٤٥٥ ما لا يحصى كثرة، وكان إقطاعها في كل سنة يغل ٥٠,٠٠٠ دينار ووجد لها ٨,٠٠ جارية ونيف وثلاثون زيراً صينياً مملوءاً جميعاً مسكاً مسحوقاً ووجد لها جوهر نفيس من جملته قطعة ياقوت فيها ١٠ مثاقيل».

وأما ما جاء في أخبار المخرج من خزائن قصر المستنصر بالله في سنتي ٤٦٠ و ٤٦١ حين تغلب الأتراك على دولته واستباحوا ما وجد في بيت ماله واقتسم مقدموهم دور المكس والجبايات فحصل لهم من ذلك مال لم يعرف مثله فيما تقدم من

البقاع المخصصة للبيع والمسالخ والمذابح وعلى مصانع السفن يضاف إلى ذلك احتكار بعض المواد كالشب ودار الضرب ودار الطرز ودار العيار ودار الاحباس.

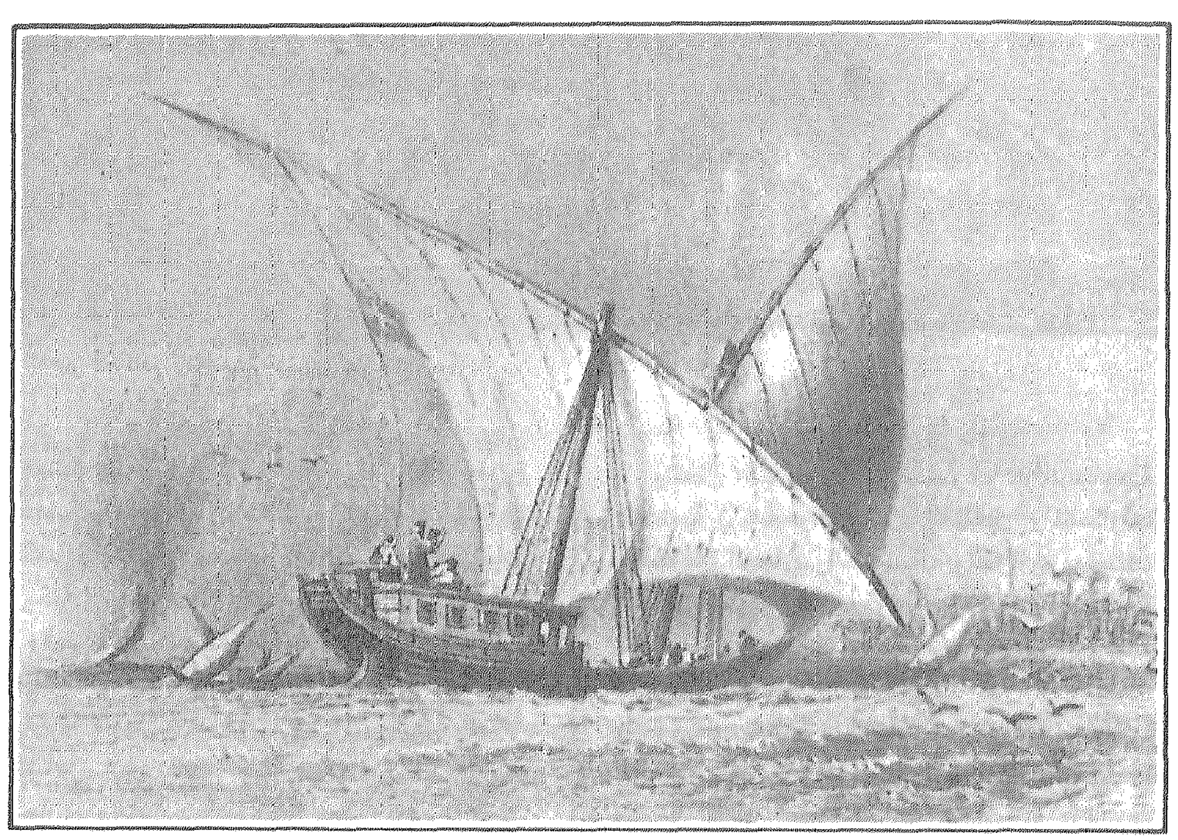
فلا غرو والحالة هذه أن تكون مداخيل الدولة الفاطمية مداخيل عظيمة تفوق بلا شك موارد الدول العربية السابقة إلا أن الفاطميين لم يكونوا من الملوك الذين يقترون في ميدان الانفاق بل انهم جعلوا من الرياء والتظاهر وحب البهرج قاعدة من قواعد سوس الدولة وكان الخليفة الآمر يطرح الدنانير على الناس من الشباك وكانوا جميعاً يكثرون البذل والأعطيات للجواري والمغنين والشعراء ولكن بيت المال كان محل نزيف رهيب من جراء الرواتب المالية المبذولة للجيش العرمرم من الموظفين لهم ولأبنائهم وأزواجهم وإخوانهم وأصهارهم وذلك بالاضافة إلى الأعطيات القارة والهدايا من أطعمة والبسة وغير ذلك مما جاء مفصلاً في صبح الأعشى والمقريزي، على أن ذلك يشكل معياراً دقيقاً لثروة مصر العامة وسعتها ومرآة للازدهار الاقتصادي الخارق الذي عمر القاهرة منذ تأسيسها وإن ازدهار الزراعة بمصر قد ازداد أشواطاً على ما كان عليه منذ أسس الخليفة المعز لدين الله القاهرة إذ حرص على شق مساحات كبيرة من الأرض كانت جدباء بشبكة ثخينة من الخلجان والأبحر والترع والجسور وتعددت في أيامه مقائيس النيل لرقابة سيله واتخاذ الاحتياطات المحكمة لتفادي المكروه واتقائه ورتبت الاراضي حسب نوعها لتزرع بأنواع البقول والغلال الصالحة لها كما رتبت الزراعة لتكون المحاصيل متوزعة على كامل العام الشتوية منها والصيفية وقد عني الفاطميون بصورة خاصة بزراعة الفواكه من كرم وتين وتفاح وتوت ولوز وخوخ ومشمش ونخل وموز وبالرياحين من ورد ونرجس وياسمين وفل وقرنفل كل ذلك على نسق ما كانوا يتعاطونه في البلاد التونسية في برج عريف وهيبون بضاحية المهدية وبمختلف المنيات التي كانت بضواحي القيروان مثل جلولا وسردانيا والمعروف أن من هذه الأخيرة قد شد المعز لدين الله الرحال إلى القاهرة، ومن جملة انواع الليمون التي أوجدت في مصر — على حد قول المقريزي — ليمون يقال له التفاحي يؤكل بغير سكر لقلة حموضته ولذة طعمه وكذلك كان فيها ما يسمى بالليمون الشتوي والليمون السائل.

وكان أحسن التفاح بمصر التفاح المسمى بالشامي وكان مضرب المثل في الحسن، كما قال السيوطي في حسن المحاضرة وأما قصب السكر فليس هناك من الاخباريين من ذكره بالنسبة إلى عهد الفاطميين الأول إلا أن الكميات الهائلة من أوراق البردي التي كانت رائجة بمصر قبل ظهور الكاغذ دليل قاطع على وفرة قصب السكر بمصر قبل الفاطميين وبعدهم على أن هذا القصب قد زاد وفرة ورواجاً في أيام الفاطميين بصورة محسوسة حتى قال المؤرخ ناصر خسرو (حوالي عام ٤٤٠هـ/ ١٠٤٨م)، في ذلك ما يلي: «وتنتج مصر عسلاً كثيراً وسكراً».

ومن فلاحة مصر الكيماوية للتلوين النيلة والقرمس والزعفران وهي فلاحة رقيقة تستدعي الخبرة والصبر، هذا ومن المعلوم أن فلاحة مصر قوامها ماء النيل فكان توزيعه معقداً متشعباً ولكنه مبني على قاعدة لا تقبل النزاع وهي أن الماء لا يجوز بيعه أو شراؤه فلم يكن جائزاً للأفراد أو للدولة أن يجعلوا من الماء بضاعة للكسب أو للاتجار وقد وفر الفاطميون الانتفاع بماء النيل بربط سدين وذلك منذ صدر دولتهم بالقاهرة وهما سد عين شمس وأسلفه سد سردوس، وقد بني سد عين شمس بالحلفاء والتراب وكان يقام قبل زيادة النيل فإذا أقبل السيل رده السد وعلا الماء فسقى ما وراء السد من ضياع وقد عرف هذا السد أيضاً بخليج أمير المؤمنين.

ولمصر ميزة في تربية الدواجن وخصوصاً في تربية الدجاج بالترقيد الصناعي على النحو المتعارف اليوم والذي يسرته وسائل التكنكة العصرية المتقدمة والظاهر أنها طريقة لم يستعملها غير المصريين في ذلك العهد.

وقد فاقت الصناعات المصرية جميع الصناعات المعروفة في الحوض الشرقي من البحر الأبيض المتوسط وذلك لأن القاهرة بوصفها عاصمة الخلافة قد جلبت إليها من مختلف العواصم التابعة لها أمهر الصناع فتدعم



□ الرحيل من القاهرة القديمة / لبارليت.

بذلك ساعد طوائف الصناعات المصرية الأصيلة، فمن المعروف مثلاً أن القائد جوهر عندما خرج من القيروان لبناء القاهرة لم يكن مصحوباً فقط بالجنود والعتاد الحربي، بل كان معه النخبة من أهل الصنائع وأنفس النفيس من التحف المصنوعة في صبرة المنصورية عاصمة الفاطميين بإزاء القيروان. ولنتصور إلى تلك الربعة الصغيرة البديعة الصنعة المحفوظة في المتحف الأثري بمادريد والتي تحمل كتابة مرصعة بالعاج تفيد أنها صنعت في صبرة المنصورية وأنها صنعت برسم الخليفة المعز لدين الله الفاطمي مع تاريخ سابق لنقلة الخلافة إلى القاهرة، ويفيدنا وجود هذه التحفة الفريدة اليوم في بابها أن مثلها قد كان يصنع في القيروان بالعشرات وأن البعض منه قد نقل إلى المشرق في حقائب جوهر وحقائب المعز وعليه فلنحث الباحثين على التروي عندما ينعتون فريقاً من التحف بأنه فاطمي وأن يتساءلوا هل هو فاطمي من الطور القيرواني أو من الطور المشرقي. كما يتعين على الباحثين إمعان النظر في نوعية الزخارف لأن الطورين يمتازان كل على حدة بميزاته الفنية. فالفن التونسي على جودته لا شك وأنه تطور في بيئته الجديدة وتكيف فخرج بذلك نوعاً ما عن أشكاله ومظاهره الأصلية فلا شك أن إعادة النظر في التحف الفاطمية الموزعة في متاحف الدنيا سوف تفيدنا الافادات الجمة للتفرقة بين فصيلتين من الانتاج الفني الرائع بدل فصيلة واحدة.

وعلى كل فإننا لا نتردد لحظة عن إعادة ما سبق الافصاح به وإن الانتاج الفني المصري في عهد الفاطميين قد كان أبدع وأروع إنتاج عصرهم وقد تناول مختلف الفنون ومختلف المواد.

فقد ازدهر النسيج على اختلاف أنواعه من نسيج الكتان الرفيع الذي كان يصنع بالفيوم ونتيس ودمياط وشطا ومن المنسوجات الحريرية النفيسة المصنوعة بدبيق وقد اشتهرت بالثياب الدبيقية ومنها العمامة الدبيقية المذهب ومنها أيضاً كانت تصنع كسوة الكعبة المشرفة وقد أقام المعز لدين الله دار الكسوة ومنها كان يلبس الأمراء وكبار القوم من البلاط الخلافي وكانت



□ القصر الفاطمي العربي ــ حفر على الخشب.

الأقمشة الرائجة في ذلك العصر محلاة ومطرزة بالذهب والفضة مع مختلف أنواع الزخارف والكتابات الجيدة الرائعة الحاملة لمعلومات تاريخية على غاية من النفاسة.

وقد كان الخشب قليلاً في مصر فكانت السلطات الفاطمية تحتكر جميع الأخشاب الواردة عليها من أي بلاد، وأن شغل الدولة الشاغل هو بناء السفن وتدعيم الأسطول التجاري والحربي بالاكثار المطرد بعددها. وقد بنى المعز لدين الله دار صناعة بالمقس صنع فيها ٦٠٠ سفينة على وتيرة واحدة وكان الخشب يرد من صقلية ومن أوروبا عن طريق سفن البندقية بالرغم من معارضة امبراطور الروم الذي كان لا يرتاح لنمو أسطول مصر بهذه السرعة، وفي غير الأسطول كان الخشب يستعمل في شتى المآرب ولكنه كان مادة سهلة الاستعمال قد يسرت أنواعاً من الصناعات الفنية كالحفر والنقش والترصيع والتطعيم وفي متحف القاهرة للفنون الاسلامية نماذج رائعة لهذه الفنون وخصوصاً المحراب الفاطمي المجلوب من جامع الأزهر.

ولقد عني صناع القاهرة بصناعة الجلد التي حذقوها وأخذوا شيئاً عظيماً من فنون دبغها وتهيئتها عن الأقوام الصحراوية التي استوطنت مصر ولنلاحظ من بين منتوجات الجلد التي يتجلى فيها منتهى الابداع صناعة الكتب، من أوراق الرق الملونة أو الناصعة البياض ومن دفات مجلدة الكتب تحمل أنواع الزخارف وقد ضاعت معظم مجموعات التجاليد الفاطمية المشرقية وبقيت المجموعات الفاطمية التونسية على حالها الأول وعددها بضع عشرات.

وتتمثل البقايا من المصنوعات الزجاجية الفاطمية في مجموعات من القناديل والمشكاوات وفصوص الزجاج والشمسيات والقوارير ومختلف الأواني ولكن هناك مجموعة من البللور الصخري تمتاز عن الكل بالصفاء والرقة والمعروف أن هذا البللور الصخري قد كان يجلب من بلاد المغرب وكما كانت صبرة المنصورية مركزاً ممتازاً لصناعة الزجاج الفاطمي فقد أوجد الفاطميون في الشرق مراكز جديدة لهذه الصناعة وذلك في الفسطاط والأشموريين وقد برع صناع الفسطاط في زخرفة البللور بالميناء والذهب وأنواع الدهن كما حذقوا نقشه ونحته وجرده وترصيعه.

أما الخزف فلم يفت أهل مصر نوع من أنواع فنونه فمنه المطلي طلاء بالذهب له بريق المعدن ومنه الأواني الشفافة ومنه الأقداح والأزيار المنقوشة وعلب البخور والعطور والأزياد المحلاة بمختلف الزخارف فلنذكر بالخصوص تلك الأجرار الصغيرة التي جعلت لكل مصفاة متقوية بطرز فنية مختلفة.

ولصناع مصر براعة في فنون الترصيع والفسيفساء وصناعة الذهب والفضة وتحلية الأقمشة والسروج والسيوف والمصاحف وتكفيت أواني النحاس والبرنز.

وبالجملة فقد كانت القاهرة تجمع جمهرة من الصناعات الرقيقة التي كان لانتاجها رواج عظيم بالخصوص في الخارج فكان ذلك مادة ثراء خارق للبلاد ومادة مبادلة تجني من ورائها البضاعات المحتاج إليها من الأقاليم الأخرى.

وكانت التجارة المصرية تجارة نشيطة سواء أكانت في القطاع الداخلي أم في القطاع الخارجي.



أما التجارة في الداخل فقد كان قوامها الحجم الضخم للبضاعة التي تتجول كمادة خام وكمنتوج مصنوع من مركز صناعي إلى مركز تجاري وأحسن طرق هذا التجوال وأرخصها هو النيل. وفي ذلك تأثير طيب على أثمان البضاعة وتيسير اقتنائها وتنشيط صناعتها وترويجها فلا شك أنه كانت أسواق المدن المصرية وأسواق القاهرة بالخصوص أسواقاً ضاقت بالدكاكين واكتظت بالزبائن بصورة جعلت رقعتها تمتد شيئاً فشيئاً إلى أن اتخذت مساحات ضخمة وكانت القيسريات فيها والخانات تزداد يوماً بعد يوم لايواء التجار القادمين من الخارج وخزن بضاعتهم وبيعها بالجملة لتتوزع على صغار التجار.

وأما التجار الأوروبيون من أهل بيزة وأمالفي والبندقية وجنوة فكانوا يحلون في فنادق لهم على نسق القيسريات. فيها كنيستهم ومصرفهم ومدرستهم وحرسهم وغير ذلك مما يجعلها شبه القلاع تعيش فيها الجاليات الأجنبية عيشة الانفراد عن سكان مصر متى أراد أهلها الانفراد.

هذا ولما كانت التجارة والصناعة في داخل البلاد مرتبطة الارتباط الكلي بما يرد إليها من بضاعة خارجية وما يصدر منها إلى الخارج من بضاعة داخلية بقي لنا أن نستعرض قليلاً مشكل العلاقات بين مصر الفاطمية والعالم الخارجي.

العلاقات الاقتصادية بين القاهرة والأمم الخارجية

لقد لاحظنا أن موقع القاهرة في مفترق الطرق بين الشمال والجنوب وبين الغرب والشرق قد جعلها في المحور الرئيسي الذي كان يدور حوله دولاب التجارة العالمية فكانت القاهرة نقطة التجمع للبضاعة الآتية إليها مركزاً لصنعها وكانت أيضاً المنطلق لترويجها وتوزيعها في البلدان الراغبة في اقتنائها وذلك إما غرباً وإما شمالاً، فهناك غرباً سلسلة من الموانىء تشتمل على الاسكندرية فبرقة فطرابلس فالمهدية وكانت هذه أعظم الموانىء المذكورة جميعاً قبل تأسيس القاهرة منذ كانت المهدية عاصمة الفاطميين الحرية، وكانت السلسلة تمتد إلى الأندلس عبر المغرب الأوسط والمغرب الأقصى مؤلفة في ذات الوقت طريقاً بحرياً للحج وكان الحج إلى بيت الله الحرام هو الباعث على هذا النشاط الاقتصادي والمحرك لتجوال السفن بين مختلف السواحل المغربية والضمان لدوامه واستمراره وإلا فإن المنافسة الشديدة التي كانت بين الفاطميين والأمويين وأخلافهم بالأندلس سريعاً ما كانت لتقوم عرقلة في سبيل التبادل التجاري بين القاهرة وقرطبة ثم بين القاهرة وبعض عواصم الطوائف كبلنسية وغرناطة وإشبيليا التي كانت توزع هي بدورها البضاعة الواردة إليها من المشرق إلى مختلف العواصم الأوروبية وكانت تشتمل هذه البضاعة على العطور والابزار والتوابل والقمارى وخشب الساج والجوهر والياقوت والماس والعقيق وأنواع البخور وكانت السفن تعود من الأندلس إلى القاهرة وقد تزودت بالخشب الطرطوشي والفضة والزئبق، وعند مرورها بالموانىء المغربية كانت تتزود بالقمح والشعير والتمور والصوف والعسل وزيت الزيتون وخصوصاً زيت مدينة صفاقس التونسية ومن الموانىء الساحلية الجزائرية والتونسية كان تصدير المرجان الرفيع والاسفنج والحرير والخفاف وأنواع من الفواكه وخصوصاً

تفاح جربة وقابس ومنها كان أيضاً تصدير البضاعة الواردة إليها من الصحراء وبلاد السودان كالعاج والتبر وكذلك الرقيق الأسود الذي منه الكثير في قصور الخلفاء والجيش.

وكانت الطريق المتجهة من القاهرة غرباً تنعرج أحياناً شمالاً وتتصل مباشرة بصقلية أو تنعكس نحوها بعد أن وصلت إلى المهدية وذلك طالما كانت صقلية مملكة تابعة للفاطميين، فلما امتلكها ملوك النرمان في الربع الأخير من القرن الخامس هـ (الحادي عشر م) انقطعت الصلة مدة بهذه الجزيرة حتى ربط ملوكها علائق تجارية منتظمة فكانت هذه الأخيرة تستورد الخشب الصقلي النفيس لصنع السفن من شيء من قمح الجزيرة وفاكهتها ومعادنها يضاف إلى ذلك أنواع من الأقمشة الحريرية كانت محل اعتبار عظيم في مصر.

وشمالاً كانت للقاهرة علاقات تجارية نشيطة جداً مع مختلف الجمهوريات الايطالية وبالخصوص مع جمهورية ألمالفي وبيزا وجنوة



□ مشكاوات إسلامية مصرية.



□ تاجر جوال.

والبندقية فكان لتجارة هذه الدويلات فنادق كثيرة في الاسكندرية وفي الموانىء الشامية التابعة للامبراطورية الفاطمية وخصوصاً في أنطاكية وكان حرص التجار الأوروبيين عظيماً على تواصل العلاقات الطيبة مع مصر لا من حيث الحفاظ على الخيرات المغدقة عليهم فقط ولكن ايضاً للتمتع بإمكانية الزيارة لبيت المقدس بدون حرج، وكانت السفن الايطالية تحمل على السواء إلى المشرق البضاعة والحجيج النصارى. أما البضاعة المصدرة على متن هذه السفن فكانت تشتمل على أنواع من المصنوعات اليدوية من نسيج وأوان وبالخصوص الخشب.

وكانت بيزنطية توصي وتلح على جمهورية البندقية أن لا تستعمل سفنها لحمل الخشب إلى مصر وذلك خوفاً من أن يتدعم بذلك الأسطول الفاطمي ولكن البندقية لم تذعن إلى ذلك. قصارى ما في الأمر أنها قصرت في طول هذا الخشب، وكانت هذه الجمهوريات حريصة على تقديم شواهد الود لأصحاب القاهرة كما كانت

وبأوروبا وهي بغداد عقدة المسالك من الهند ومصر والشام إلى دول البلقان وروسيا إلى بخاري وسمرقند والصين، وقد كانت محاولات النصارى أيام عنفوان الدولة الفاطمية محاولات لا تفوت السعي لنيل الامتياز والظفر بإذن التجول والبقاء في منطقة من ترابها حتى بدت عليها علائم الضعف فتجرأ الجانب الأوروبي وأقبل على عمليات الفتح للسيطرة على هذا التراب بحد السيف، وقد نجحت الخطة الحربية الصليبية نوعاً ما فاحتل الصليبيون سواحل الشام مدة من الزمن ولكنهم لم يظفروا لما كانوا عولوا على اجتنائه من الناحية الاقتصادية إذ بقيت القاهرة بعد زوال الفاطميين طوال أيام الأيوبيين والمماليك مسيطرة على احتكار الخيرات الواردة من المشرق تاركة توزيعها نحو البلاد الأوروبية ـــ على نحو ما كان العمل به من ذي قبل ـــ إلى سفن الجمهوريات الطليانية.

ومن الدول العظمى المجاورة لمصر والتي كانت لها علاقات متواصلة مع



□ السقا.



شديدة التنافس فيما بينها وذلك لما كانت تجنيه من أرباح خارقة من ترويج بضاعة المشرق في البلاد الأوروبية.

ولم يكن نشاط سفن مرسيليا وسكان بروفنسا بجنوب فرنسا دون نشاط الجمهوريات الايطالية. وقد أبهر البلاد الأوروبية مدى الخيرات التي تزخر بها الموانىء الاسلامية فأدى بها الجشع والطمع في الاستحواذ عليها والاستئثار بها إلى القيام بالحملات الصليبية المعروفة فكان ظاهرها فسح المجال في وجه الحجيج النصارى إلى بيت المقدس وكانت في الباطن عمليات استعمارية ترمي إلى احتكار البضاعة التي كانوا يقتنونها عن طريق موزعيها المسلمين والحلول محلهم لتوزيعها بعد أن يضعوا يدهم على بعض البلاد الاسلامية كي تمكنهم من بلوغ نقاط وصول البضاعة الشرقية كأيلة وجدة في البحر الأحمر وعدن على أبواب المحيط الهندي، هذا من جهة ومن جهة أخرى الفوز بالوصول إلى أبرز سوق تجارية تربط عن طريق البر افريقيا بآسيا



□ صانع السلال.

هذه نذكر بيزنطية وكانت هذه العلاقات تمر بين الفينة والأخرى بأطوار حسنة للغاية تعقبها أطوار تصادم ونزاع وفي الجملة فإن الروم البيزنطيين كانوا شديدي الرغبة في المصنوعات المصرية الرقيقة من نسيج ومجوهرات كما كانت مصر تحتاج إلى الفراء المجلوب من البلاد الروسيّة وإلى غلال هضبة الأناضول.

ولم تفتر الدولة الفاطمية في السعي للوصول إلى بغداد لا لزحزحة الخلافة العباسية عنها فقط، بل وبصورة أوكد لوضع يدها على سوق تجارية عالمية من أبرز الأسواق وأغناها.

ولنلق الآن نظرة على الأمم الواقعة في جنوب مصر فهذه بلاد «النوبة» وكان ملوكها يكنون المودة للقاهرة سالكين معها سلوكاً مرضياً يتفق ومبادىء حسن الجوار اتفاقاً كلياً فكانوا يشترون منها الأقمشة وأدوات الزينة، وكانت السفن المبحرة من الحبشة وزنجبار تحمل إلى مصر أنواع الخشب النفيس والعاج والتبر والماس وذلك بدل المصنوعات اليدوية المصرية، هذا ومعظم أصناف الرقيق التي كانت تدخل القاهرة إنما كانت من بلاد النوبة وبلاد الأحباش.

وأما الضفة الشرقية من البحر الأحمر فكانت عليها بشواطىء الجزيرة العربية مرسى جدة وهو محط الحجيج للمسلمين القادمين عن طريق أيلة والقلزم وعيذاب، ويلي مرسى جدة في الجنوب مرسى عدن الذي كان في مثابة باب مفتوح بين البحر الأحمر والمحيط الهادي ومنه كانت تمر السفن والقوافل المحملة بالتوابل المجلوبة من سواحل ملبار وجزر الهند الشرقية وجزر الملايو والعطور والند والكافور والعنبر الخام زيادة على أنواع البخور النادرة التي تمتاز بإنتاجه جزيرة جاوة مع العود الصيني وكافور زنجبار والقمارى المجلوب من سيلان والهند الصينية.

ومن هذه الحوصلة عن علائق القاهرة بالعالم الخارجي يتضح جلياً أن هذه العاصمة الفاطمية قد كانت محوراً رئيسياً للتجارة العالمية ووسط الدائرة الذي تلتقي فيه وتشع منه جميع تيارات النشاط الاقتصادي في عصر من عصورها الزاهرة. ●

جرير وجارية الحجاج (*)

نزل جريرٌ على عَنْبَسَة[1] بن سعيد بوَاسِط، ولم يكن أحدٌ يدخلها إلا بإذن الحجَّاج، فلما دخل على عَنْبَسَة، قال له: وَيْحَك! لَقَدْ غرّرت بنفسك، فما حملك على ما فعلت؟ قال: شِعْرٌ قلته اعْتَلَجَ في صدري، وجاشَتْ به نفسي، وأحببتُ أن يسمعه الأمير. فعنفه وأدخله بيتاً في جانب داره، وقال: لا تُطْلِعَنَّ رأسك حتى ننظرَ كيف تكونُ الحيلةُ لك.

ولم يلبث أن أتاه رسولُ الحجاج من ساعته يدعوه في يوم قائظ، وهو قاعد في الخَضْرَاء[2]، وقد صُبَّ فيها ماء استَنْقَع[3] في أسفلها، وهو قاعد على سرير، وكرسيٌ موضوعٌ ناحية.

قال عنبسة: فقعدتُ على الكرسيّ، وأقبل على الحجاج يحدثني، فلما رأيتُ تطلُّقه وطيبَ نفسه قلتُ: أصلح الله الأميرَ! رجل من شعراء العرب قال فيك شِعْراً أجاد فيه، فاستخفه عَجَبُه به حتى دعاه إلى أن رحل إليك، ودخل مدينتك من غير أن يُسْتَأْذن له. قال: ومَن هو؟ قلت: ابنُ الخَطَفَي. قال: وأين؟ قلت: في المنزل. قال: يا غلام، فأقبل الغِلْمَانُ يتسارعون. قال: صفْ لهم مَوْضعه من دارك؛ فوصفت لهم البيتَ الذي هو فيه.

فانطلقوا حتى جاؤوا به، فأُدْخل عليه وهو مأخوذ بضَبْعَيْه[4] حتى رُمي في الخَضْراء، فوقع على وجهه في الماء، ثم قام يَتَنَفَّش كما يتنفَّش[5] الفرخ. فقال له: هيه! ما أقدمَك علينا بغير إذننا؟ لا أمَّ لك! قال: أصْلَحَ الله الأمير! قلتُ في الأمير شعراً لم يقل مثلَه أحدٌ؛ فجاشَ به صَدْري، وأحببت أن يسمعه مني الأميرُ، فأقبلتُ به إليه.

فتَطَلَّق الحجَّاجُ وسكَن، واستنشده، فأنْشَده، ثم قال: يا غلام، فجاؤوا يَسْعَوْن. فقال: عليّ بالجارية التي بَعث بها إلينا عاملُ اليمامة؛ فأُتِي بجاريةٍ بيضاءَ مَديدةِ القامةِ. فقال: إن أصبْتَ صِفَتَها فهي لك. فقال: ليس لي أن أقولَ فيها وهي جاريةُ الأمير. فقال: بلى، فتأمّلْها واسألها؛ فقال لها: ما اسمكِ؟ فأمسكت. فقال لها الحجاج: خَبِّريه، فقالت: أمامة، فأنشأ:

وَدِّع أُمامةَ حَانَ منك رحيلُ
إن الوداعَ لمن تُحِبُّ قليلُ
مثلُ الكَثِيبِ تمايَلَتْ أعطافُه
فالريحُ تَجْبُر متنَه وتهيلُ
هَذِي القلوب صوادياً تَيَّمْتِها
وأرى الشفاءَ وما إليه سبيلُ

فقال الحَجاج: قد جعل الله لك السبيل إليها، فخُذْها فهي لك. فضرب بيده إلى يَدِها، فتمنعت عليه، فقال:

إن كان طِبُّكم[6] الدلالُ فإنه
حسنٌ دلالُك يا أمامَ جميلُ

فاسْتَضْحَك الحجاج، وأمر بتجهيزها معه إلى اليمامة.

وكانت من أهل الريّ، وكان إخوتها أحراراً، فاتبعوه، فأعطوه بها حتى بلغوا عشرين ألفاً فلم يقبل •

(*) الأغاني: ٨ ــ ٧٥، الكامل: ١ ــ ٣١٢.

(١) هو عنبسة بن سعيد بن العاص أحد أشراف بني أمية، حبسه عبدالملك بن مروان يوم قتل أخيه عمرو بن سعيد الأشدق.

(٢) الخضراء: يُراد بها خضراء واسط، وتعرف بالقبة الخضراء بناها الحجاج مع قصره في هذه المدينة.

(٣) استنقع الماء: اجتمع.

(٤) الضبع: العضد كلها أو وسطها بلحمها.

(٥) تنفش الطائر: نفض ريشه.

(٦) الطب: المذهب، والدلال: الدالة.

نساء شهيرات

فيجايا لاكشمي بانديت

قسم التوثيق والأبحاث



«على المرأة أن تعمل على الحؤول دون وقوع حرب ثالثة، على نشر راية السلم والحق في العالم، وعلى بناء عالم أفضل».

هذا ما تقوله دبلوماسية الهند الأولى فيجايا لاكشمي بانديت وشخصية عام ١٩٥٣ في العالم، إذ أنها ترأست الدورة الثامنة للجمعية العمومية في منظمة هيئة الأمم. وقد فازت السيدة العظيمة بهذا المنصب في الخامس من أيلول عام ١٩٥٣، بالاقتراع السري وبأكثرية الأصوات، ففازت بفوزها الهند ونالت أكبر شرف يمكن أن تمنحه هذه المنظمة الدولية. كان من أهم ما تميز به هذا الاختيار، التأييد الكبير الذي نالته السيدة بانديت، لا من الكتلة العربية الأسيوية الممثلة في هيئة الأمم، ولا من دول الغرب فحسب بل من جانب الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي أيضاً... لقد ذاع نبأ انتخابها في العالم كله وأتى دليلاً على أن بين نساء عصرنا عظيمات من الشرق متفوقات من طراز جديد...

ولدت فيجايا لاكشمي في ١٨ آب سنة ١٩٠٠ في بيت آل نهرو الكبير فأطلق أبوها عليها أسم (سواروب) أي الجميلة وهي شقيقة جواهر لال نهرو زعيم الهند ورئيس وزرائها. كان أبوها محامياً ثرياً ووطنياً معروفاً بجهاده وإخلاصه فتفتحت عينها وذهنها على جو وطني يفيض بالحماسة ويزخر بالمبادىء الروحية والقومية المثلى فتشربت منذ طفولتها هذه المبادىء...

بدأت عملها السياسي وهي في الثامنة من عمرها إذ كانت تستمع إلى المناقشات التي تدور في بيت أبيها وبوجود أخيها جواهر لال أبان حركة النضال القومية وكان الزعماء السياسيون على صلة دائمة بهذا البيت يقصدونه للمداولة والنصح...

ولما أطلق المهاتما غاندي صيحة الدعوة إلى النضال في سبيل التحرر من الأستعمار كانت الزعيمة الصغيرة قد نضجت وأصبحت على استعداد لخوض المعركة والكفاح من أجل قضية بلادها...

تزوجت عام ١٩٢١ بمحام شاب من المناضلين اسمه بانديت... ونزولاً عند التقاليد الهندية، أطلق عليها اسم فيجايا لاكشمي ومعناه آلهة النصر... وكان السيد باندیت عالماً معروفاً ويعتبر من ألمع رجالات الهند وأكثرهم بغضاً للأنكليز وحقداً عليهم... ولكن لم تنقض شهور على اقترانهما حتى قذف به الأنكليز بين جدران السجن فأقسمت الزوجة الثائرة على أن تمضي في الكفاح الذي بداه أبوها وشقيقها من قبل، تحت لواء الزعيم الكبير غاندي... الذي أثرت مبادؤه على حياة السيدة باندیت وقد تمكنت فيجايا لاكشمي ان تربط بين القيم السياسية والأخلاقية في كل مواقف حياتها السياسية، فعندما تولت رئاسة وفد بلادها لدى هيئة الأمم عام ١٩٤٦، برهنت عن وجهت نظرها هذه يوم ألقت خطاباً مؤثراً نددت فيه بسياسة التفرقة العنصرية وعرضت فيه المأساة بكثير من الكبرياء والهدوء، ومما قالته:

— «لو عاد المسيح إلى الأرض وزار جنوب أفريقيا لحرموا دخوله إليها وعاملوه كأي مهاجر...»».

قضت فيجايا لاكشمي في السجن مدة عامين

وتسعة أشهر في فترات مختلفة أولها ستة عشر شهراً ثم سبعة أشهر وأخيراً أحد عشر شهراً عندما اكتشف الانكليز أنها اشتركت في المؤامرة التي حاكها الزعيم مهاتما غاندي ضدهم... قامت يومئذ بحملة خطابية عنيفة... وهي كانت أول مرة تصعد فيها إلى المنبر وتخطب ساعة كاملة وتهز الجماهير.

تقول السيدة بانديت:

— «لم تكن عندي فكرة واضحة عما أنوي أن اقوله... كانت لحظة من أحرج لحظات حياتي، وفجأة حدث شيء ما ... شعرت بأن الجموع المحتشدة إنما هي قطعة من نفسي. وأننا أصبحنا قوة خفية هائلة... فاندفعت الكلمات وراحت تتدفق بسرعة وحماسة تعبر عن إيماننا كلنا بالحق والعدل وعن ثورتنا على الظلم والاستبداد...».

إن السيدة بانديت أم لثلاث بنات... ومع أن الظروف أرغمتها فراقهن بعض الأحيان ولكنها كانت تعوض عليهن أثناء وجودها إلى جانبهن وقد ألّفت كبرى بناتها كتاباً نشرته في انكلترا باللغة الانكليزية عام ١٩٥٧، ومن أروع ما جاء فيه قولها:

— «كانت أمي جميلة رائعة في كل شيء، وقادرة على أن تجعل من الغرفة الصغيرة داراً دافئة سعيدة بمجرد وجودها معنا فيها، وعلى أن تجعل من أي صنف من أصناف الطعام مائدة عامرة بمجرد اهتمامها به...».

لما وصلتا بنتا السيدة بانديت إلى نيويورك، وجدت نفسيهما وحيدين في عالم كبير، صاخب، مخيف... ووجدت نايانتارا، كبراهن، في مفكرتها التي كانت مليئة بمقاطع مختارة من خطابات أمها، مقطعا رائعاً قرأته على اختها، فاتخذته الفتاتان شعاراً لهما في المحيط الجديد...

تقول السيدة بانديت:

— «كلما يبرح مواطن هندي بلده إلى مختلف انحاء العالم الكبير يحمل معه قطعة من الهند نفسها، ويجب عليه أن لا ينسى هذه الحقيقة، والا يتجاهلها لانه مسؤول في تصرفاته عن وطنه، فأما أن يجلب له الخزى والعار، وأما أن يصون ماله من كرامة واعتبار...».

وصلت السيدة بانديت إلى قمة المجد عام ١٩٤٤ يوم مثلت بلادها في الولايات المتحدة حيث ذهبت لتبسط فيها قضية استقلال الهند، فتنقلت من بلد إلى بلد، يدفعها الإيمان بحق بلادها، لتخطب في الجماهير الغفيرة التي كانت تحتشد لسماعها... وبينما كانت الدول العظمى مجتمعة في سان فرنسيسكو عام ١٩٤٥ لبحث قضية نزع السلاح وحق الفيتو وغيرها... كانت السيدة المناضلة تقف في مؤخرة قاعة الاجتماع لترفع صوت الشعوب المغلوبة على أمرها، وتطالب بحقها في الحرية والاستقلال.

— ولما عادت إلى بلادها فجعت بموت زوجها، المجاهد العالم الشاب فبعث الزعيم غاندي إليها برقية تعزية قال فيها:

— «سيتسابق الناس لتعزيتك في هذه الفاجعة ولكني لا أفعل مثلهم. لماذا؟ لأني لا أجد المناسب أن أحزن عليك، على ابنة رجل شجاع، وأخت رجل شجاع، وزوج رجل شجاع، فأنك ستجدين الشجاعة في نفسك...».

زارت السيدة بانديت مصر وسوريا ولبنان في مرات ومناسبات مختلفة وانتزعت فيها احترام الجميع وإعجابهم... ولقد أوصت النساء العربيات أبان الزيارة التي قامت بها عام ١٩٥٣ بالحفاظ على طابعهن الشرقي، وفي خطاب القته في الجامعة الأميركية ببيروت قالت:

—«اقتبسن حضارة الغرب وانطلاقه بقدر ما تخدمكن في تقديم قسطكن للحضارة العالمية، ولا تنسين أنكن شرقيات وأن حضارة الشرق العتيقة هي أساس جميع الحضارات».

من أهم المناصب التى تولتها السيدة بانديت إلى جانب ترؤسها الجمعية العامة لهيئة الأمم منصب وزارتي الحكم الذاتي والصحة وعضوة في المجلس التشريعي وأخيراً سفيرة لبلادها في انكلترا، وتحمل لقب المندوب السامي...

هذه هي سيرة السيدة بانديت مثال العظمة المتواضعة البناءة... إنها قصة كفاح... إنها قصة نصر. •

الكهرمان

عباس ميخائيل حدادين



□ صورة من الكهرمان الأردني.

أهمية الكهرمان

كان للكهرمان أهمية كبيرة جداً في السابق تشبه أهمية الذهب لما له من استعمالات عديدة كحلى للزينة حيث يوضع على صدور الحسان أو يستعمل بخور يحرق في المعابد والهياكل أو لعمل التحف الثمينة.

أما اليوم فأهمية الكهرمان العلمية فاقت أهميته المادية لأنه يضم في داخله حشرات مثل العناكب وتنين الجو (الرعاش) والسوس والذباب والنمل والنحل والعت والخنافس وغيرها، ثم يضم بقايا النباتات مثل الأزهار، الأوراق، البذور وغبار الطلع ويضم أيضاً فقاعات هوائية أو قطرات مائية ورماد البراكين الثائرة وغبار الرياح العاصفة القادمة من الصحراء ثم يدخل

□ عباس ميخائيل حدادين، ليسانس آداب فرع الجغرافية من جامعة دمشق، دبلوم الدراسات الاجتماعية جامعة اليرموك. عمل في المتحف الطبيعي ــ جامعة اليرموك. اكتشف الكهرمان في الأردن. له ابحاث عديدة في العلوم الطبيعية، وله كتاب العنبر الأردني.

الكهرمان هو المادة السائلة اللزجة التي تفرزها أنواع من أشجار الصنوبريات (الراتنج) فتجمد على جذوع وأغصان هذه الأشجار وعندما طغى البحر على هذه الغابات في الأزمنة الغابرة تحللت الأشجار إلى أتربة، وبقي هذا السائل المتجمد محافظاً على خصائصه الطبيعية ملايين السنين.

وكشف عنه بحر البلطيق الذي قذفه من جوفه عن طريق أمواجه إلى سواحله حيث يجده المصطافون.

ثم وجده الانسان عن طريق الحفريات في المناجم وعلى سطح الأرض وسمي بالأحفورة أو المستحاثة.

وأهم مصادره في العالم سواحل بحر البلطيق وبحر الشمال ثم اكتُشف في لبنان والأردن والدومنكان وصقليا ومنطقة سيبيريا.

يتراوح عمر الكهرمان بين ١٠ ـــ ١٣٥ مليون سنة ويوجد على شكل كرات أو قطع صغيرة يتراوح أوزانها من الغرام حتى الكيلوغرام وألوانه بين الأصفر والعسلي والأحمر والبني والأزرق والأسود ومظهره بين الفاتح الشفاف حتى الداكن المعتم.

في صناعة الادوية والحلى والتحف والسبحات.

الكهرمان عند القدماء

أول من عرف الكهرمان هم الفينيقيون حيث وجد في قبورهم على شكل حبات من الخرز. ثم استعمله الفراعنة في التحنيط وعرف باسم (الراتنج) وعرفه اليونانيون القدماء واستعملوه كمجوهرات وعرفوا فيه الكهرباء الساكنة عندما يدلك في الصوف فإنه يجذب الشعر والخيوط والأوراق الجافة. ولكن اليونانيين لم يعللوا هذه الظاهرة الكهربائية، حيث سموه (Elektron) وأخذ اسم الكترون من هذه التسمية. ومن هذا اللفظ اشتقت اسم الكهرباء في لغات الغرب فكان (Electricity) وإن اسم الكهرمان بالانجليزية (Amber) وبالفرنسية (Ambre) وتقول المصادر أن أصل هذا اللفظ هو اللفظ العربي عنبر جاءهم من إسبانيا العربية.

وفي عام ٧٧ م طلع بلني بكتابه «التاريخ الطبيعي»، وذكر أن الكهرمان من منتوجات الأشجار. ويذكر بلني أن قطعة من الكهرمان المنقوشة تشتري عبيداً. وفي القرن الثاني كتب المؤرخ الروماني تاسيتوس (Tacitus) أول من وصف طبيعة تكوين الكهرمان بأنه مزيج من حامض السكسنيك (Saccinic-Acid))، وقال أن الكهرمان هو صمغ بعض الأشجار الذي يحتوي على كل أنواع الحشرات الزاحفة حول الأرض وحتى الحشرات الطائرة التي أسرت عندما كان سائلاً على الأشجار والآن هو متجمد.

وكتب عن كهرمان البلطيق الذي كان معروفاً منذ زمن قديم وقال: «للكهرمان أهمية وقيمة ثمينة عند الرومان والشعوب التي قبل الرومان حيث كانوا يقايضون به الحديد والنحاس والبرونز».

ولقد انبهر القدماء بجمال الكهرمان وشفافيته السحرية فنسجوا حوله الأساطير من حيث أصله ونشأته. فمنهم من قال بأن الكهرمان نور الشمس المتجمد، بينما قال الآخرون أنه دموع الإله، ثم عرّفه العرب باسم العنبر وأسموه لاقط التبن لأنه يجذب التبن عند دلكه بالصوف.

كيف استعمل القدماء الكهرمان

استعمله الفينيقيون كعقود للزينة واستعمله الرومان في المعابد والهياكل. ويقول المؤرخون بأن نيرون أرسل الجنود للبحث عن أماكن الكهرمان، حتى أن بعض محاربي الرومان يتخذون من الكهرمان دبابيس في ملابسهم التي يلبسونها في

المعارك واستعملوه في الطب فكان يعلق حول الرقبة لشفاء التهاب اللوزتين والحمى والأوجاع وكان مسحوق الكهرمان يعجن بالعسل للتدوي به من العدوى وضعف البصر ويستعمل مراهم للجروح وكان في التجارة يكافىء الذهب وأكثر من ذلك.

طرق تجارة الكهرمان

إن أكبر مكامن العنبر في العالم السواحل الجنوبية الشرقية لبحر البلطيق حيث استخرج منه أكثر من عشرة آلاف طن وإن أهم مكامن الكهرمان هي شبه جزيرة ساملاند (Samland) التي تمتد داخل بحر البلطيق شرقي نهر الفيستول وهناك مكامن أخرى على شواطىء هذا البحر بين نهري الألب والأودر وعلى الشاطىء الغربي من الدنمارك.

كما توجد مكامن أخرى على الشواطىء الجنوبية من سكاندينافيا.

يغسل بحر البلطيق الكهرمان ويرمي به على الشاطىء فيجده الناس في رمال الكثبان، وقد عثر على الكهرمان في مقابر وحفريات تمت في جنوب وشرق أوروبا وهذا يعني انه نقل من الشمال إلى الجنوب وإلى ما بعد أوروبا الوسطى وذلك عن طرق بقيت مستخدمة حتى عهد الرومان، ويوجد خمس طرق للكهرمان:

١ ــ طريق يمر من جوتلاندة ومصب نهر الألب عبر وديان نهر الرين والرون ليصل حتى مدينة مرسيليا على شواطىء البحر الأبيض المتوسط.

٢ ــ طريق يمر من وادي نهر الألب وبوهيميا ومورافيا إلى وادي نهر الدانوب حتى ينتهي إلى سهل البندقية.

٣ ــ طريق يبدأ من مصب نهر الفستول ويتبع وادي هذا النهر حتى منعطف (Bydgosesc) ثم يتبع نهر الوارتا فنهر الأودر ويقطع سيليزيا العليا ويتصل بالطريق السابق في منطقة (Pannonie).

٤ ــ الطريق الرابع عند الطريق السابق ويتبع نهر الفستول حتى المصاطب العليا في منطقة غاليسيا ثم يهبط نحو البحر الأسود عبر وادي الدنييستر.

٥ ــ طريق من ساملاند ويتبع نهر النيمن ثم ينحرف نحو الجنوب ويتبع الدنيبر حتى موقع مدينة كييف ثم يهبط نحو الجنوب وعبر السهوب المحيطة بالبحر الأسود ليصل إلى قرب المركز التجاري الكبير أولبيا.



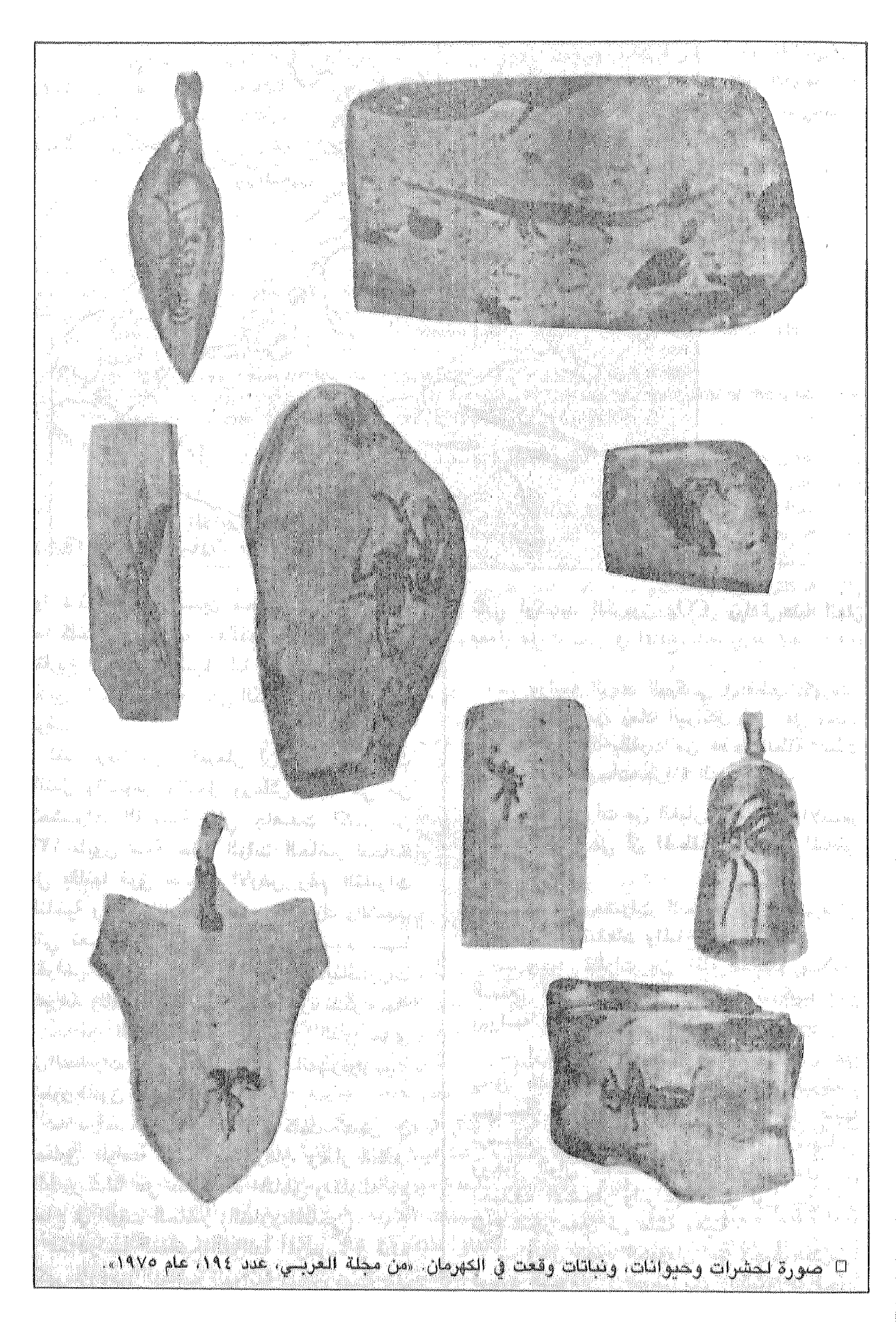
□ منمنمة من الكهرمان دقيقة الصنع (ارتفاعها ٩,٥ س.م.) تصوّر احتفاء الرعاة بميلاد يسوع المسيح. صنعت حوالي عام ١٦٥٠ في شمال شرقي المانيا.

نجد أن الكهرمان كان ينقل إلى مسافات بعيدة شأنه شأن أي سلعة أخرى مثل التوابل والقصدير والفضة والعاج والسكر والملح.

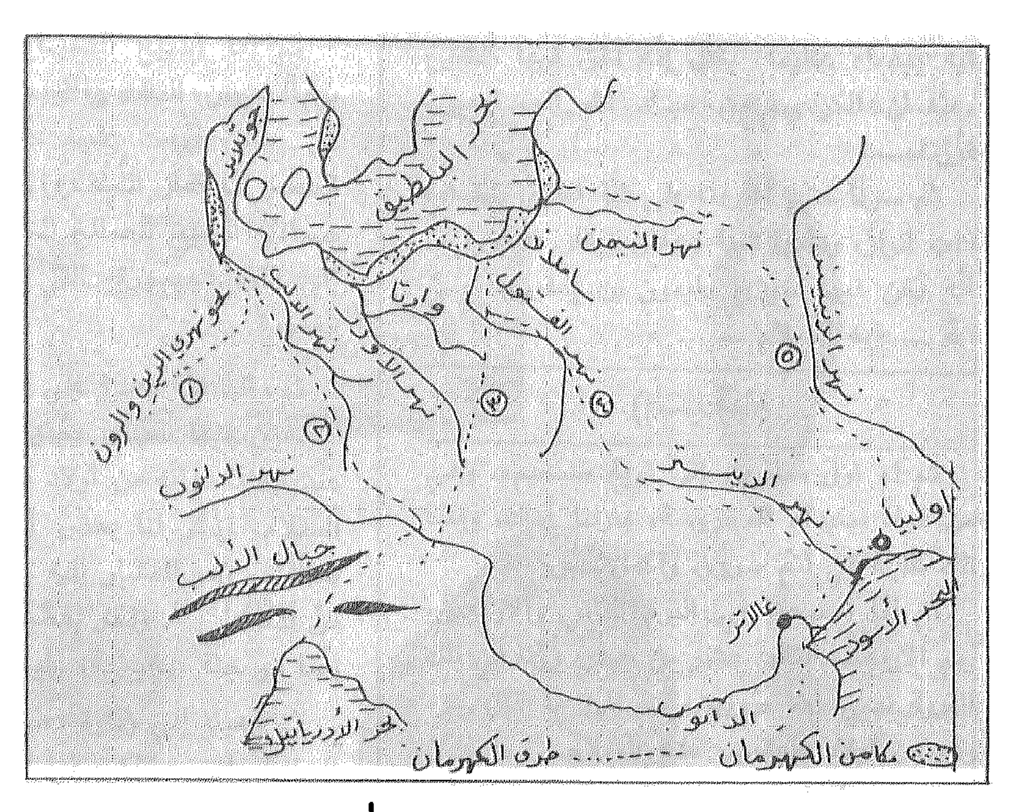
فقد لعبت تجارة الكهرمان دوراً هاماً على المراكب المنطلقة من البحر الادرياتيكي والبحر الأسود باتجاه جنوب إيطاليا واليونان وشمال افريقيا وبلاد المشرق ومصر وكانت هناك حركة تجارية منتظمة أقدم عهداً على البر والبحر ولا تقف عند حدود الشرق الأدنى وشمال أفريقيا وأوروبا وإنما تتجاوزها إلى مناطق أبعد من هذا بكثير، يذكر منها آسيا الوسطى وجنوب شرق آسيا والشرق الأقصى وكذلك في مناطق مختلفة من شرق افريقيا وغربها.

فوائد الكهرمان العلمية

إن الكهرمان إحفورة أو مستحاثة تضم في جوفها نباتات وحشرات ومواد أخرى أختزنت



□ صورة لحشرات وحيوانات، ونباتات وقعت في الكهرمان. «من مجلة العربـي، عدد ١٩٤، عام ١٩٧٥».



□ خريطة تبين مكامن الكهرمان والطرق التي تصل إليه.

بها منذ ملايين السنين محافظة على شكلها كما كانت في السابق. فالكهرمان هو السجل للتاريخ الطبيعي يسجل لنا ما كان يحفظ منذ ملايين السنين لنتعرف على الكائنات الحية في ذلك الوقت.

لقد عرفنا من الكهرمان أن العناكب والعث والنمل والسوس والنحل ورعاش الجو هي من الحشرات القديمة التي جاهدت أكثر من ١٣٥ مليون سنة حتى الوقت الحاضر لتحافظ على بقائها فوق سطح الأرض رغم التغيرات المناخية والفيضانات والبراكين والنيازك والشهب التي تعرضت لها الأرض والتي نجم عنها انقراض الحيوانات الكبيرة مثل الديناصورات وغيرها. وللكهرمان فوائد علمية كثيرة نذكر منها:

ــ من الكهرمان ندرس التطور الذي جرى على الحشرات وخاصة الوظائف الفيزيولوجية وتطور قانون الوراثة.

ــ دراسة النباتات التي كانت تعيش في السابق، دراسة الأوراق والأزهار، وغبار الطلع، والبذور تدلنا على مناخ هذه المناطق ومقارنته مع المناخ في الوقت الحاضر (التطور المناخي).

ــ دراسة الفقاقيع الهوائية الموجودة في قطع الكهرمان ومن الفقاقيع الهوائية ندرس نسبة غاز ثاني أوكسيد الكربون CO_2، زيادة هذا الغاز يعمل على تسخن في المناخ.

ــ دراسة الرماد البركاني في قطع الكهرمان فوجود ذرات من رماد البراكين يدل على وجود براكين قد ثارت بالقرب من هذه المنطقة عملت على تخفيض درجات حرارة الجو.

ــ وجود ذرات من الغبار ذات اللون الأصفر (اللوس) يدل على أن المنطقة قريبة إلى المناطق الصحراوية.

ــ وجود حشرات البعوض في الكهرمان هو وجود المستنقعات والمناخ الحار الرطب.

ــ وجود قطرات من الماء سجينة ملايين السنين في الكهرمان هي دراسة تركيب الماء ودراسة الشوائب التي كانت عالقة في الجو.

ــ إن وجود الكهرمان في منطقة يدل على وجود غابات قديمة في هذه المنطقة انقرضت بواسطة الطغيان البحري الذي عمل عليها ترسبات بحرية ودفنت تحت هذه الترسبات، ووجود ألوان مختلفة من الكهرمان يدل على اختلاف الأشجار وأنواعها، فكل لون يدل على نوع شجر معين من عائلة معينة.

ــ ويدل وجود الكهرمان على وجود البترول، فوجود الكهرمان في حوض بحر البلطيق هو وجود

البترول في حوض بحر البلطيق ووجود الكهرمان في جنوب العراق يدل على وجود البترول في جنوب العراق.

ويقول العلماء السوفييت بأن وجود الكهرمان هو وجود غابات الصنوبر والأشجار العريضة الأوراق التي كانت تعيش في مناطق دافئة.

إن أحفورة الكهرمان التي توجد بها كائنات متحجرة مثل النباتات والحشرات لا تقدر بثمن لأنها تاريخ طبيعي يحكي لنا قصة عن الخلق القديم. ●

المــراجــع

(1) Klous Bandel, Abbas Haddadin: The depositional environment of Amber bearing rocks in Jordan. Dirasat, Volume VI, May 1979, Number I.

(2) A. Acra, R. Milki and F. Acra: Quatrieme reunion science meeting 14/12/1972 Decembre. The Occurrence of Amber in Lebanon.

(3) Albert M.: Quennel Trans Jordan. Jordan East of the Rift Former, London 1951.

(4) Lloyd J.W.: The hydrology of southern desert. Jordan UNDO/F Au investingation of the sand stone Aquifersof east Jordan. Technical Report No. I, 1969.

(١) عباس حدادين: العنبر الأردني. المطبعة الاقتصادية، عمان ١٩٨٣.

(٢) عادل حاتم: الجيولوجيا للجميع.

(٣) مجلة دنيا العلم، العدد ٣٧، السنة الرابعة: حجار الكوريا.

(٤) الدوحة، العدد ٤٢، يونيو ١٩٧٩: الكهرمان.

(٥) الدكتور صلاح باشا: المواصلات والنقل (طرق العنبر).

(٦) الدكاترة نورالدين حاطوم، نبيه عاقل، احمد طربين، صلاح المدني: ص ٥٩٨، ٦٣٣، ٦٥٥، موجز تاريخ الحضارة.

(٧) الدكتور أحمد زكي: الكهرمان. مجلة العربي، عدد ١٩٤، يناير ١٩٧٥.

(٨) تحقيق غازي حداد: العنبر الأردني عمره (١٣٥) مليون سنة. مجلة الاثنين، ٣/١٢/١٩٨٤، عمان — الأردن، كانون الثاني، الأسبوع الأول، ١٩٨٤، عدد ٣٥.

(٩) الأسبوع العربي، العدد الثاني، السنة الأولى، ٢٧ أيار عام ١٩٧٤.

(١٠) جريدة الراي الأردنية، الأحد ٤/٤/١٩٨٢: ذبابة عمرها ٤٠ مليون سنة.

(١١) فالتر راونيج: طريق الكهرمان. مجلة اليونسكو، عدد ٢٨١، كانون الأول عام ١٩٨٤.

(١٢) جريدة الراي الأردنية: الكهرمان في سيبيريا أيضاً، ٢٧/١٢/١٩٨٤.

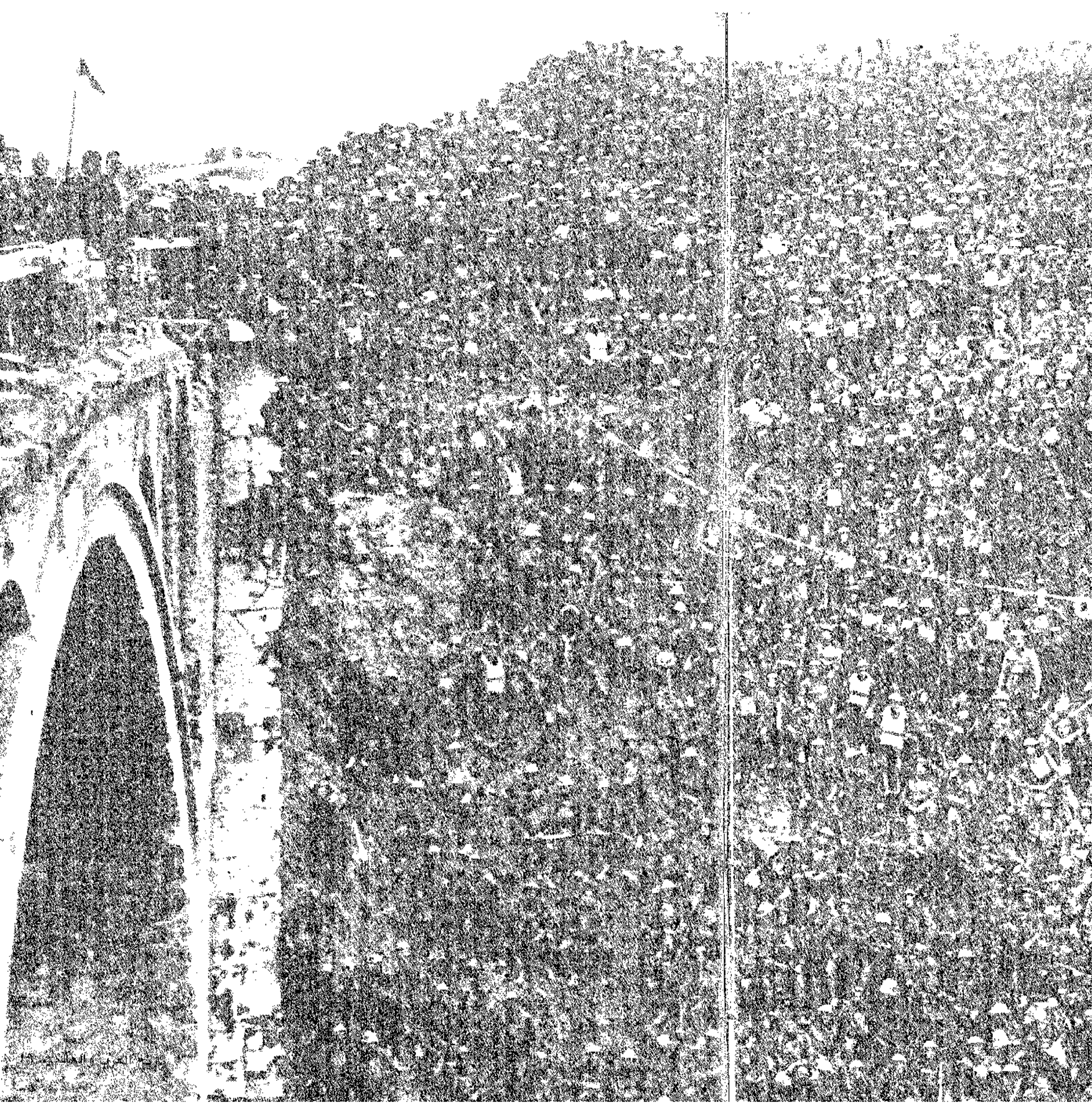


اتفاقية يالطا

● خلال الفترة الواقعة بين الرابع من شباط (فبراير) ١٩٤٥ والحادي عشر منه، اجتمع في بلدة يالطا الواقعة في شبه جزيرة القرم كل من تشرشل وروزفلت وستالين واتفقوا على مجموعة من الموضوعات والمشكلات التي توقعوا أن تواجههم بعد انتهاء الحرب وفي أثناء الأشهر الثلاثة التي تلت استسلام المانيا وان يضع الاتحاد السوفياتي يده على كل ما كان من ممتلكات روسيا وانتزعته اليابان منها بعد نهاية الحرب الروسية اليابانية ١٩٠٤ — ١٩٠٥ مثل جنوب جزيرة سخالين ومرفأ بورت آرنز وجزر كوريل ومنغوليا الخارجية الخ... وقد تمّ هذا الاتفاق في وقت لم يكن فيه الاتحاد السوفييتي يعرف شيئاً عن المخططات الاميركية لانتاج القنبلة النووية. أما فيما يتعلق بالمانيا فقد اتفق على أن تشترك الدول الكبرى الأربع: الاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا في احتلالها بحيث تحتل كل دولة منها قطاعاً معيناً من البلاد، وتحل جميع المؤسسات النازية. أما التعويضات المالية الحربية فلم يتم التوصل إلى اتفاق بشأنها. ومن بين ما تم الاتفاق عليه، أن تنال بولندا استقلالها وأن تكون حدودها الشرقية وفقاً لخط كرزون وبذلك يظفر الاتحاد السوفييتي بمساحات واسعة من الأراضي البولندية.

بصمات مريرة من أيام مريرة!!
١٩١٤ - ١٩١٨

د. رياض العالي



□ قبيل انتهاء الحرب بعدة أسابيع.. كان جند تابعون للواء المئة وسبعة وثلاثين (ستافوردشاير Staffordshire) ينعمون باستراحة على ضفتي قنال القديس كوينتين (St. Quentin)، كان الارهاق بادٍ على وجوههم – إثر معركة دامت ثلاثة أيام تمّ فيها الاستيلاء على القنال – وفرحة النصر تغمر نفوسهم.
من على جسر ريكويرڤال (Riquerval) يخاطبهم نائب الرئيس العميد ج. ف كامبل (J.V. Campell).



ما زالت رائحة الخنادق إبان السنوات ١٩١٥ ـ ١٩١٧، تعبق في انفي. كانت مزيج من روائح مختلفة، أوحال نتنة، مراحيض ثكنات، حامض الجير، جثث لم توارى الثرى كلياً أو جزئياً، اكياس رمل متعفنة، عرق بشري متراكم ورائحة دخان المتفجرات.
وكانت تلك الرائحة تتلطف أحياناً برائحة دخان السجاير ولحم الخنزير المقلي على نار حطب صناديق الذخيرة المحطمة، والتي كانت بدورها تفسد برائحة الغاز السام.

روبرت غرايفز
Robert Graves



□ آب ١٩١٤ جند الامبراطور يزحفون خارجين من برلين. كانوا يتوقعون ان يصلوا باريس في غضون اربعين يوماً كما هو مقرر حسب خطة شليفن (Schlieffen Plan)، لكنهم اضطروا إلى التوقف بعد عدة اسابيع في معركة المارن الأولى.

● كان زحفنا باتجاه المحطة تجربة تبعث في النفس الشعور العميق بالاعتزاز والمقدرة.. إنّ زحفاً كهذا لهو من القدسية بمكان نظراً لما يحمله من المعاني السامية والخطورة. وساعة كهذه بدت وكأنها تختصر العمر كله من حيث غناها وعمقها... كم كان ذلك الحماس عظيماً!! والكتيبة تشق طريقها وسط الهتافات، المناديل تلوح باستمرار والجنود يرتدون الخوذ [السِتر] المزدانة بالزهور، ولا يتعبون من ترداد العهود الرائعة المتجددة باستمرار. تلك الساعة يندر حدوثها في حياة أمة، وقد كانت من الروعة والقوة بحيث تشكل بحد ذاتها، تعويضاً كافياً إزاء الكثير من المعاناة والتضحيات.

والتر ليمر (٢٤ سنة)، تلميذ حقوق في جامعة ليبزغ (Leipzig)، توفي متأثراً بجراحه بتاريخ ٢٤ أيلول ١٩١٤

والدي العزيز

اكتب هذه الرسالة عشية صعودنا عبر القمة، لشن هجوم كبير.. رسالتي هذه توديعية، إذ لن ترسل إلا في حال استشهادي ولولا علمي بذلك لما أقدمت على كتابتها، أعلم، يا والدي العزيز، أنك سوف تتحمل الصدمة بنفس الشجاعة التي مكنتك من تحمل عبء وجودي في هذا المكان، ومع ذلك فإنني أود أن أقدم لك مساعدتي، بقدر الامكان، من أجل أن تتابع تحمل الأعباء وتتجاوز المحنة بقلب جريء وشجاع.

لقد أنبأتك سابقاً، على ما اعتقد، أني لا أرهب الموت بحد ذاته. ذلك العالم لا يخيفني إطلاقاً، وإني على أتم الاستعداد لأن أموت من أجل قضية وهبتها ثلاث من عمري تقريباً. أملي الوحيد أن أتمكن من أن أواجه الموت بشجاعة كما فعل الرجال الآخرون.

لست نادماً على أي شيء سوى أني قد حُرمت من فرصة بذل أقصى الجهد لرد جميلك إزاء ما أبديته تجاهي من لطف وإخلاص لا متناهين.. وكان أملي أن أفعل ذلك أثناء صراعي مع الحياة، إنما يجوز أني أقوم بذلك الآن ضمن الصراع بين الموت والحياة، بين انكلترا والمانيا، بين الحرية والعبودية. في كل الحالات، سوف أكون قد أدّيت واجبي على طريقتي المتواضعة.

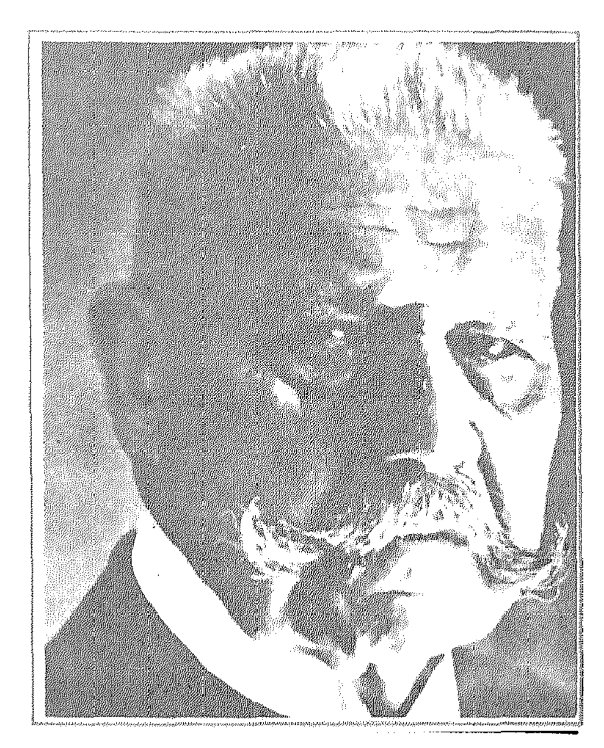
أرجو، يا والدي العزيز، أن تكمل مشوار الحياة بقلب محب متسامح، وإذ ذاك، أكون قانعاً وسعيداً. وداعاً يا أعز الآباء.. وداعاً «إي» (E) و «ج» (G) أتمنى أن تحصدوا جميعاً ثمار هذه الحرب العظيمة وتحظون بالفرح والسعادة على مدى العمر.

ولدكم واخوكم المخلص غلين

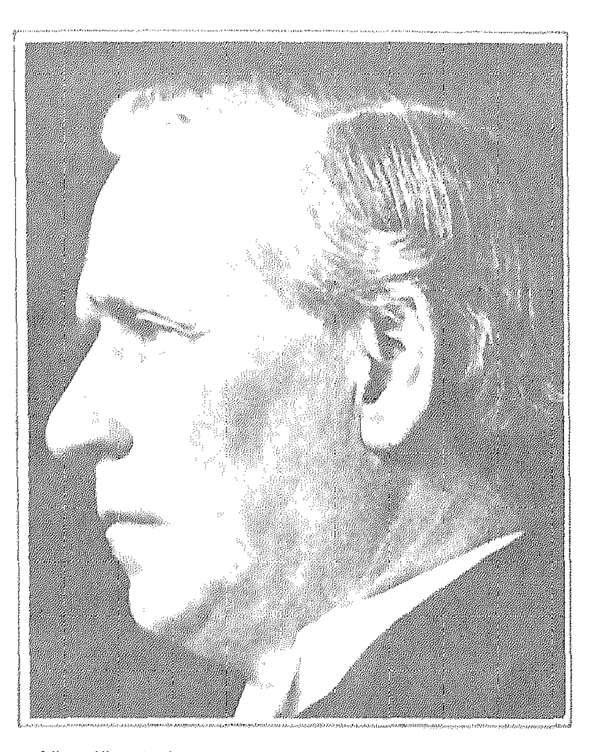


□ تموز ١٩١٨ الهجوم الذي شنّه الجنرال لودندورف عام ١٩١٨. كان المحاولة الألمانية الأخيرة لكسب الحرب ولكنها منيت بالفشل ــ في الصورة، يبدو جند فرنسيون جرحى وجندي بريطاني، أثناء عودتهم من معركة المارن الثانية.

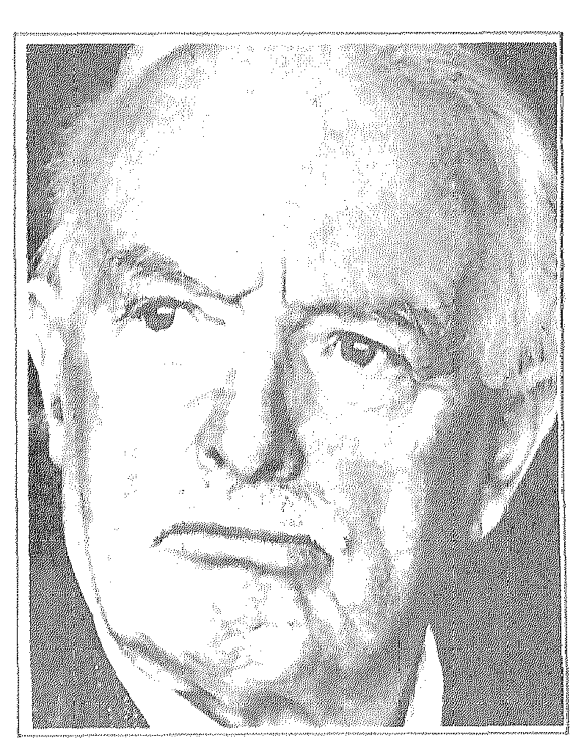
□ غلين رايز مورغان (Glyn Rhys Morgan) (٢١ عاماً) ملازم ثان في ــ فرقة حملة البنادق الويلزية الملكية ــ استشهد بعد كتابة الرسالة بيومين في الأول من آب عام ١٩١٧.



□ المارشال هندنبرغ (Hindenburg): استدعي بعد إحالته على التقاعد لاستلام قيادة الجيش في الجبهة الشرقية.



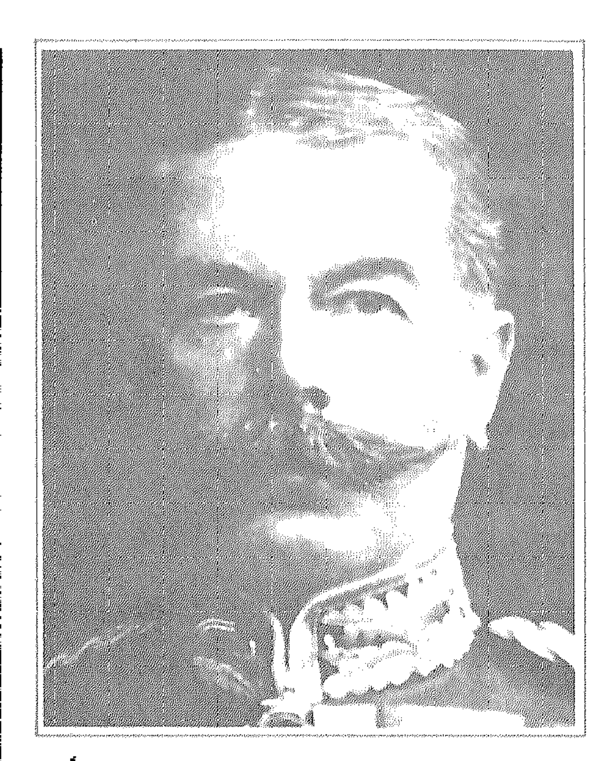
□ هربرت هنري اسكويث (Asquith): شكل (التحالف زمن الحرب) بعد فضيحة النقص في القذائف.



□ لويد جورج (Lloyd George): اثبت جدارته كوزير للذخيرة، شغل منصب رئيس الوزراء بعد اسكويث (Asquith) في كانون اول ١٩١٦.



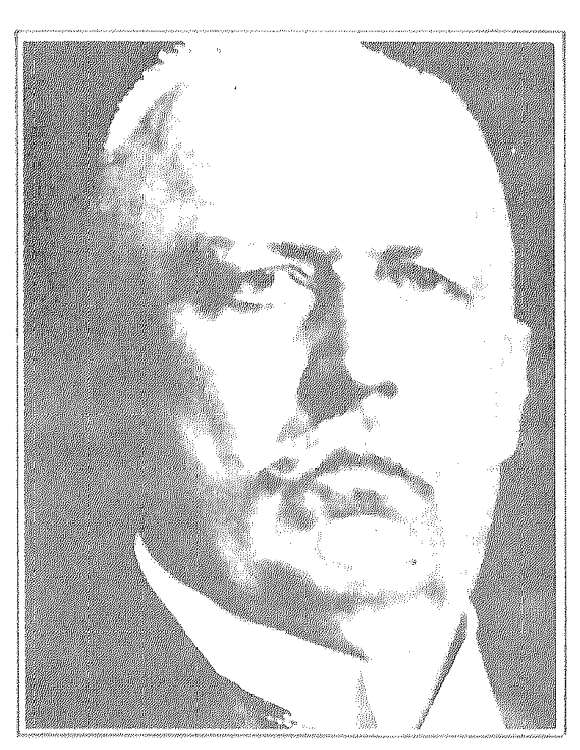
□ الامبراطور ولهلم الثاني (Kaiser Wilhelm II): الهَوْصار [(] جندي (في وحدة) من الوحدات العسكرية الاوروبية المنظمة على طريقة سلاح الفرسان الهنغاري الحقيقي في القرن الخامس عشر [)] الاوروبي السفّاح. انتهى به عهد آل هوهنزولرن (Hohenzollerns) في المانيا.



□ المارشال لورد كتشنر (Lord K. tchener): مات غرقاً في حادثة غرق سفينة جلالة الملكة ابّان فيضان سكابا ــ هامبشاير (Hampshire) عام ١٩١٦.



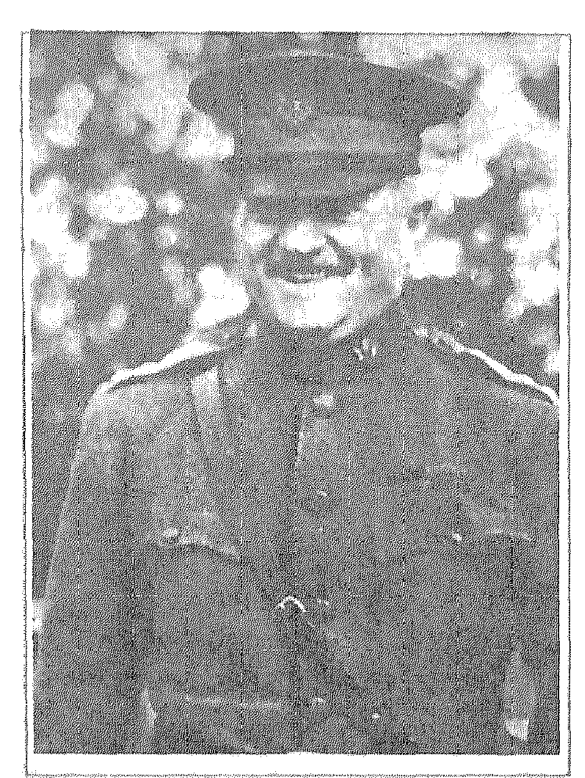
□ الأدميرال السيّد جون جلليكو (Sir John Jellicoe): تأكدت قوة أسطوله بعد جتلاند (Gutland).



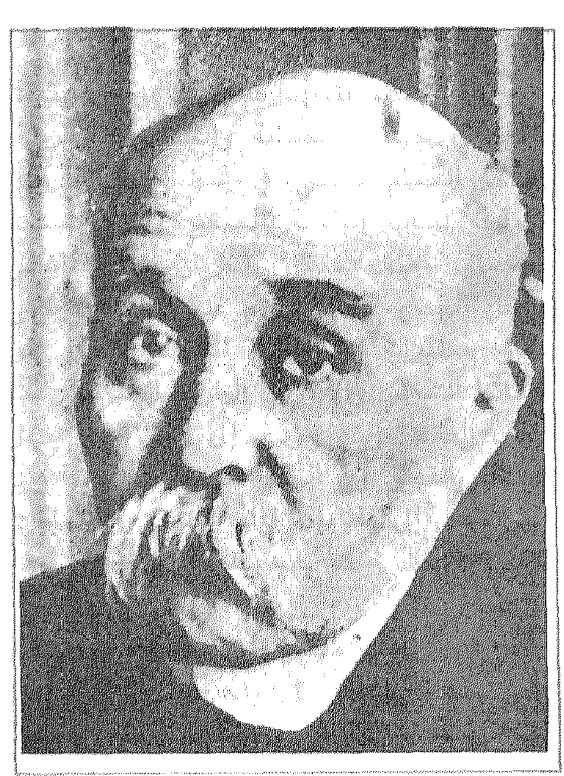
□ الجنرال لودندورف (Ludendorff): نابغة في الأمور العسكرية التنظيمية، ولكنّه سيء الطالع.



□ الجنرال ڤون مولتك (Von Moltke): أعاق الزحف نحو باريس عام ١٩١٤.



□ الجنرال جون بيرشنغ (John Pershing): قائد المشاة، يتصف بالقسوة وتصلب الراي.



□ م. كليمنصو (M. Clemencean): «النمر» الذي ابقى فرنسا متماسكة في نهاية الحرب.



□ الجنرال فوش (Foch): رمز الارادة الفرنسية لاحراز النصر.



□ الملك جورج الخامس (George V): بن عم الامبراطور. دعم هايغ (Haig) بقوة مما اثار غضب لويد جورج.



□ ماتا هاري (Mata Hari): رمز الجاسوسة الجميلة، قتلها فرنسيون.



□ أدميرال فون سبي (Von Spee): الد أعداء بريطانيا في البحر واكثرهم شهامة ــ توفي في فوكلاند (Falkland) عام ١٩١٤.



□ الرئيس وودرو ويلسون (Woodrow Wilson): جاهد لانشاء حلفاً بين الأمم.. ثم شهد انسحاب اميركا.



□ المارشال لورد اللنبي (Lord Allenby): دخل اورشليم (Jerusalem) عام ١٩١٧ كان اول مسيحي يتسلم مقاليد السلطة منذ الحملات الصليبية.



(١) وجدت هذه الصورة في علبة شركة تصوير فوتوغرافي (Johnson's of Hendon)، وهي تمثل مركز إسعاف كتيبة متقدم، بعد معركة السوم (Somme) تموز ١٩١٦. كانت موضوعة على الزجاج، ومن المحتمل أن تكون استعملت كوسيلة ايضاح أثناء المحاضرات التي كانت تلقى بعد الحرب بفترة قصيرة. ما يميزها هو ما تحمله من تفصيلات دقيقة. إلى الشمال، يبدو ممرضان يكتبان أوراقاً تصف حالة كل مصاب وتوضح إن كان قد أعطي المورفين أم لا. كانت تشبك هذه الأوراق إلى كتفية (Epaulettes) بزّة كل جندي، مثل الرجل الذي في وسط الصورة — ويبدو التمييز جلياً بين الحذاء الرث الذي ينتعله، وكان قد أمضى أياماً في الخندق — والحذاء النظيف الذي ينتعله الممرض.

يشاهد أيضاً، سلك كهربائي معلق بواسطة ضمادات، أكوام من الضمادات النظيفة إلى اليسار، وممرضون يقومون بمعالجة الجرحى.

● اذاقتنا يد القدر الصلبة المر، رفعتنا إلى رتبة أتاحت لنا أن ندرك الأمور الخطيرة التي تتحكم بمصير امة. لم تعد قمم المجد الشاهقة ذات أهمية بالنسبة لنا، فقد غابت عن أذهاننا لترتفع مكانها قمم الواجب والشعور الوطني، يغطيها الرداء الأبيض اللامع، فيما بدت قمة التضحية العظمى ــ وهي تمثل أعلى القمم على الاطلاق، كإصبح يشير بصلابة نحو السماء.

دافيد لويد جورج ١٩١٤



□ قادة بريطانيون: إلى الشمال الجنرال السير هربرت بلومر (Plumer) ــ ويبدو المارشال السير دوغلاس هايغ (Haig) إلى اليمين، كما يبدو في الوسط رئيس اركانه اللواء السير هربرت لورنس (Lawrence).

● لقد كان موقفي في الصراع بسيطاً واضحاً. فمن وجهة نظري لم تكن النمسا تحارب للحصول على بعض المكتسبات من الصرب، ولكنها حرب المانيا في سبيل الحياة، حرب الشعب الالماني من أجل أن يكون او لا يكون، من أجل الحرية والمستقبل. لا بد من السير في خطى بسمارك. إن على المانيا الفتية أن تدافع مجدداً عما قد حارب الأجداد ببسالة من أجله من وايزنبرغ (Weissenburg) إلى سيدان (Sedan) وباريس. ولكن إذا قدر لهذا الصراع أن يتكلل بالنصر، فإن دولتنا سوف تستعيد بقواها الذاتية، مكانتها إزاء الدول العظمى، ومن ثم فإن الرايخ الألماني سوف يتمكن من أن يصبح حامي السلام القوي، دون الحاجة إلى تقليص كميات الغذاء للأطفال من أجل هذا السلام.

في الثالث من آب، وجهت إلى فخامة الملك لودفيغ الثالث كتاباً خطياً التمس فيه ان يسمح لي بالخدمة في كتيبة بافارية. كانت هناك وفرة في الطلبات المقدمة، وقد كان سروري عظيماً حين قبل طلبي في اليوم ذاته.

الآن تبدأ بالنسبة لي، كما بالنسبة لكل الماني، الفترة الأكثر أهمية وعظمة في حياتي. بالمقارنة مع احداث ذلك الصراع الجبار، يسقط الماضي كله في هوى النسيان الفارغ، إني أتذكر تلك الأيام بمزيج من الكبرياء والحزن، وأعود إلى الأسابيع الأولى لنضال شعبنا البطولي، هذا النضال الذي حظيت بشرف المشاركة فيه.

ادولف هتلر

□ ٢ آب ١٩١٤. «الجيش الالماني الامبراطوري، يبدأ زحفه». يصغي المواطنون في ميونيخ إلى نبأ إعلان الحرب. بين الجموع يبدو طالب يدرس الفنون، ويدعى هتلر.

● إني أعشق الحرب.. فهي أشبه ما تكون بنزهة كبيرة، غير انها ليست بدون هدف كما كل النزهات.. طوال حياتي لم اكن أكثر سعادة وارتياحاً، ففي غضون الأيام العشرة الأخيرة لم أخلع حذائي سوى مرة واحدة كما لم أغتسل سوى مرتين.. إلاّ أنه ليس هناك من يتذمر على الاطلاق من أمور النظافة.

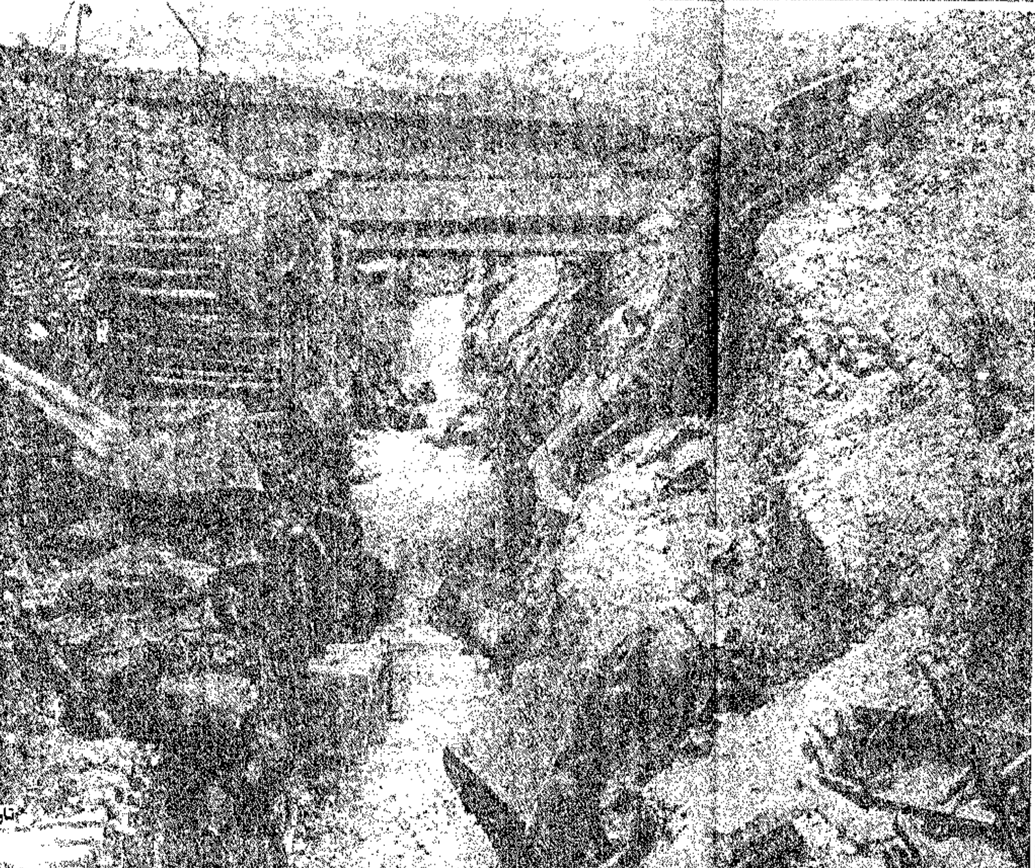
النقيب جوليان هنري فرانسيس (Grenfell)
(٢٧ عاماً) ـ فرقة سلاح الفرسان الملكية الأولى
توفي متأثراً بجراحه بتاريخ ٢٦ أيار ١٩١٥

● حرب الخنادق في الربيع أمر جميل للغاية ـ باستثناء الروائح.. تتجمع لدينا الآن كميات هائلة من الجير، ونقوم بالتخلص من أكوام الأجساد الغريبة.

دنيس اوليفر بارنيت (٢٠ عاماً) ـ ملازم اول في كتيبة لينشر (Leinster Regiment) ـ استشهد بتاريخ ١٥ آب ١٩١٥

● سنجعلها (اي المانيا) تستنزف حتى الرمق الاخير تماماً كما تعتصر ثمرة ليمون بل وأكثر ـ ساعتصرها حتى يصبح بالامكان سماع صوت البذور وهي تتحطم.

السّيد اريك جدز (Eric Gedds)، السيد الأول للبحرية



□ جندي بريطاني يقوم بحراسة رفاقه فيما يخلدون إلى النوم في خنادق السوم (Somme).



الهجرة القسرية للفلسطينيين

من الضفة الغربية وقطاع غزة

(١٩٦٧ - ١٩٨٣)

جورج القصيفي

إن تعميم الطابع «القسري» على كافة أشكال الهجرة الفلسطينية بما فيها الهجرة التي بدأت طوعية بأسباب اقتصادية أو أسرية، مرده إلى سياسات رفض حق عودة الفلسطينيين، وقرارات مصادرة ملكياتهم وخصوصاً بالنسبة للمهاجرين من الضفة الغربية وقطاع غزة قبل عام ١٩٦٧، إضافة لتوسيع عمليات الاستيطان.

وقبل التطرق إلى حجم وخصائص المهجرين قسرياً من الضفة الغربية وقطاع غزة بعد عام ١٩٦٧، لا بد من إلقاء الضوء على الحجم الكلي للفلسطينيين وعلى توزعهم حسب مكان إقامتهم.

بلغ عدد الفلسطينيين في نهاية عام ١٩٨٤ ما ينوف عن خمسة ملايين نسمة (٥,٠٧١,٥٠٠)(١)، يتركز قسم كبير منهم (٤٠,٢ بالمائة في فلسطين المحتلة) (١٨ بالمائة، ١٠ بالمائة و ١٢ بالمائة في الضفة الغربية، غزة، وفلسطين المحتلة قبل ١٩٦٧ على التوالي)، وحوالي ربعهم في الضفة الشرقية للأردن (٢٥,١ بالمائة) وأقل من ثلثهم (٢٩,٤ بالمائة) في بقية الدول العربية، مع تواجد ملحوظ في كل من لبنان (١٠,٨ بالمائة) والكويت (٦,٥ بالمائة)، انظر الجدولين رقم ١ و ٢، وعليه فإن المجتمع الفلسطيني الذي سنتطرق إليه في هذا البحث يشكل ما يزيد قليلاً عن ربع مجموع الفلسطينيين، أي (٢٨,١ بالمائة).

الحجم

يجب أن لا يغرب عن بالنا ونحن نتكلم عن الضفة الغربية وقطاع غزة بأننا بصدد مناطق جغرافية ذات مساحات متغيرة. فما كان يسمى بقطاع غزة أيام الانتداب البريطاني فقد مساحة قدرت بحوالي ٧٣٤ كلم٢. وكذلك تقلصت مساحة الضفة الغربية حوالي ١٩٤٦ كلم٢ بعد إنشاء دولة إسرائيل (Kossaifi, 1976). وعندما عمدت

إن الهجرة بكافة أشكالها، قد وسمت الوضع السكاني الفلسطيني بطابعها الخاص، فالشعب الفلسطيني عرف كافة أنواع الهجرات. فمن هجرة عربية وافدة للعمل إلى فلسطين إبان الانتداب البريطاني، إلى التهجير القسري الجماعي الأول الذي لحق بالفلسطينيين مع إنشاء دولة إسرائيل، إلى الهجرة الطوعية للعمل باتجاه الضفة الشرقية للأردن ودول الخليج العربية خلال الخمسينات ومنتصف الستينات، إلى التهجير القسري الجماعي الثاني بعيد حزيران ١٩٦٧، وصولاً إلى التهجير القسري الفردي من الضفة الغربية وقطاع غزة الذي ما نزال نشاهده لغاية يومنا هذا.

وفي مقابل هذا النزف الفلسطيني المستمر من فلسطين، شكل صافي الهجرة اليهودية الوافدة إلى فلسطين ٦٠ بالمائة من مجمل الزيادة السكانية اليهودية في فلسطين المحتلة خلال الفترة ١٩٤٨ ــ ١٩٧١ و ٢٥ بالمائة خلال الفترة ١٩٧٣ ــ ١٩٨٢ (Israel, 1983).

السلطات الاسرائيلية إلى ضم القدس الشرقية بعد حرب حزيران ١٩٦٧ أخذت توسع الحدود الادارية لمدينة القدس بحيث وصلت إلى تخوم بيت لحم. إن هذه الملاحظة لها دلالتها عند دراسة تهجير الفلسطينيين من الضفة الغربية وقطاع غزة لأن أعداد المهجرين من القدس تصبح غير واضحة حيال ضم الأراضي الجديدة وإضافة سكانها عبر إلحاقهم إدارياً بمنطقة القدس، وسوف لن تظهر البيانات أياً من هذه التحركات السكانية إذا لم تؤخذ التغيرات الجغرافية الادارية للمناطق بعين الاعتبار.

مرحلة ما قبل حرب حزيران ١٩٦٧

يبين الجدول رقم ٢ حجم المهاجرين الفلسطينيين من الضفة الغربية خلال الفترة ١٩٥٢ ــ ١٩٦٧. ويبدو أن حجم القاطنين في الضفة قد بقي شبه ثابت خلال الفترة المذكورة، إذ أنه ارتفع من ٧٤٢ ألفاً في ١٩٥٢ إلى ٨٠٤ آلاف عشية حرب حزيران ١٩٦٧، أي بمعدل للنمو السنوي، لم يتعدّ الواحد بالمائة (٠,٥٤ بالمائة) ويعني ذلك أن الهجرة قد استنفذت مجمل النمو السكاني الطبيعي تقريباً. ويبدو أيضاً أن تيار الهجرة كان قد اشتد في بداية الستينات عنه في الخمسينات إذ بلغ معدل النمو العام ٠,٠٥ بالمائة في المرحلة الأولى (١٩٦١ ــ ١٩٦٧) مقارنة بـ ٠,٨٣ بالمائة في المرحلة السابقة (١٩٥٢ ــ ١٩٦١).

وبالطبع فإن عوامل الجذب الاقتصادي والاجتماعي في الضفة الشرقية أولاً، وفي دول الخليج ثانياً، وبالأخص في الكويت، هي التي تفسر تيارات الهجرة هذه إلى خارج الضفة الغربية. فالوضع الاقتصادي والاجتماعي المتردي الذي ساد في الضفة الغربية بعد عام ١٩٤٨ وتركيز المشاريع التنموية في الضفة الشرقية وظهور النفط في دول الخليج، كلها عوامل ساعدت على دفع السكان إلى خارج الضفة الغربية سعياً لتحسين ظروفهم المعيشية.

أما في قطاع غزة، فتدل البيانات المتاحة، إلى أن تيارات الهجرة قد بقيت في مستوياتها الدنيا، إذ بلغ معدل النمو السنوي ٢,٧ بالمائة خلال الفترة ١٩٥٣ ــ ١٩٦٤، وارتفع حجم السكان من ٣٠٦ آلاف في بداية الفترة إلى ٤١٢ الفا في نهايتها (Kossaifi, 1976). ولقد شكل المعلمون والموظفون والطلاب القسم الأكبر من هؤلاء المهاجرين، «في فترة ما قبل الحرب مباشرة كانت هنالك أعداد من المعلمين والموظفين والعاملين في الأقطار العربية وكذلك عدد من الطلاب

الفلسطينيين، وهناك مجموعة أخرى من الشبان من أبناء القطاع أصبحوا مهاجرين بدون قصد وقد كان عدد هؤلاء ٣٢٠٠ موظف» (أبو عمرو، ١٩٨١، ص ٣).

مرحلة ما بعد حرب حزيران ١٩٦٧

بعد حرب حزيران ١٩٦٧ طرأ تغيير نوعي على الهجرة من الضفة الغربية وقطاع غزة كما أشرنا سابقاً، إذ تحول طابعها من الهجرة الطوعية إلى الهجرة القسرية. فالمهاجرون الذين كانوا يغادرون الضفة ويعودون إليها ساعة ما يشاؤون لم يعد بإمكانهم القيام بذلك إلا إذا استحصلوا على «لم شمل» وشريطة أن يبقوا في الخارج مدداً معينة تختلف باختلاف أعمارهم. كما أن قسماً كبيراً ممن كان خارج الضفة والقطاع عشية حرب حزيران لم يتمكن من الاستحصال على «لم الشمل» فبات مضطراً للبقاء خارج وطنه. وبالاضافة إلى كل هذا كثفت السلطات الاسرائيلية عمليات مصادرة الأراضي وبناء المستوطنات.

إن حجم السكان في الضفة الغربية عشية حرب حزيران ولغاية أواخر سنة ١٩٨٢ لم يزد بأكثر من ٧٤ ألفاً خلال تلك الفترة، أي بمعدل للنمو السنوي لم يتعد ٠,٥٦ بالمائة[٢]. وبمعنى آخر إن ما يوازي حصيلة النمو الطبيعي السنوي تقريباً كان يهجر إلى خارج الضفة. ولقد بلغت تيارات التهجير القسري أشدها بعيد حرب حزيران مباشرة، إذ هجر حوالي ١٤٨ ألفاً خلال الثلاثة أشهر الفاصلة بين حزيران وأيلول ١٩٧٦ (الجدول رقم ٣).

ويمكن تمييز مرحلتين من التهجير بعد نهاية ١٩٦٧ ولغاية نهاية ١٩٨٢. في المرحلة الأولى (١٩٦٧ ــ ١٩٧٤) بلغ حجم الهجرة حوالي عشرة آلاف سنوياً، بينما ارتفع هذا الحجم إلى ١٥ ألفاً في المرحلة الثانية (١٩٧٤ ــ ١٩٨٢). ويتماشى هذا التمييز مع الانتعاش الاقتصادي الذي عرفه الاقتصاد الاسرائيلي بعد ١٩٦٧ ولغاية منتصف السبعينات، والذي نتج عنه زيادة الطلب على الأيدي العاملة العربية من الأراضي المحتلة، كما يتماشى أيضاً مع تسريع عمليات التحديث في دول الخليج بعد تصحيح أسعار النفط في عام ١٩٧٣، وازدياد الطلب على الأيدي العاملة العربية.

ولم يكن حظ قطاع غزة من الاحتلال الاسرائيلي بأحسن حال من حظ الضفة الغربية، إذ لم يزد حجم سكانه خلال ١٩٦٧/١٩٨٢ بأكثر من ٢٤ ألفاً، أي بمعدل للنمو السنوي بلغ ٠,٣٣ بالمائة. وإذا ما أخذنا بعين الاعتبار أن تيارات الهجرة كانت محدودة في القطاع قبل عام ١٩٦٧، فيعني ذلك أن القطاع قد شهد للمرة الأولى نسبة ركود في حجم سكانه. وكما كانت الحال في الضفة الغربية، فقد بلغت تيارات التهجير أشدها بعيد حرب حزيران، إذ هجر حوالي ١٠٠ ألف نسمة من القطاع خلال حزيران / أيلول ١٩٦٧[٣].

وبخلاف الضفة الغربية انخفض حجم المهجرين خلال الفترة ١٩٧٤/١٩٨٢ (ثلاثة آلاف سنوياً) عنه في الفترة السابقة (ثمانية آلاف سنوياً خلال ١٩٦٧/١٩٧٤) ويبدو أن ذلك مرتبط بالارتفاع المستمر للعاملين من القطاع في الاقتصاد الاسرائيلي خلال فترة السبعينات[٤]. وبالحد من قبول طلبات سكان القطاع للهجرة الدائمة إلى الضفة الشرقية. «وشعوراً منها بالأخطار المترتبة على النزيف السكاني من القطاع إلى الأردن، قامت مجموعة مؤلفة من ٦٨ شخصية وطنية بصياغة وثيقة تناشد فيها السلطات الأردنية بإغلاق الجسور أمام المهاجرين وقد أبدت السلطات الأردنية تعاوناً في هذا المجال وبدأت برفض قبول العابرين إلى أراضيها كمهاجرين دائمين». (أبو عمرو، ١٩٨١).

وهكذا بعد مضي أقل من ١٦ عاماً (١٩٦٧/١٩٨٢) على احتلال الضفة الغربية وقطاع غزة تم تهجير حوالي ربع مليون بعيد حرب حزيران مباشرة (مقارنة بثلاثة أرباع المليون بعد حرب ١٩٤٨). واستمر النزف بعد ذلك التاريخ بمعدل بلغ ١٩ ألفاً سنوياً، ولم يزد حجم السكان في هاتين المنطقتين بأكثر من ٩٨ ألفاً أي بمعدل للنمو السنوي لم يتجاوز ٠,٤٨ بالمائة.

إسقاط السكان المقيمين في الضفة الغربية ١٩٦٧ ــ ١٩٨٢

في محاولة لتقدير حجم المهجرين من الضفة الغربية (باستثناء القدس الشرقية) ولدراسة بعض خصائصهم، تم إسقاط السكان المقيمين في نهاية عام ١٩٦٧ بالاستناد إلى التوزيع حسب العمر والجنس الذي وفرته الاحصاءات الاسرائيلية، بعد تصحيحه، وإلى مؤشرات الخصوبة والوفاة المستقاة من المسوحات السكانية التي أجريت في الضفة الشرقية للأردن[٥]. ويدل الجدول رقم ٤ على نتائج هذه الاسقاطات.

يمكن القول إن سكان الضفة الغربية (باستثناء القدس الشرقية) كانوا سيتزايدون بمعدل للنمو السنوي يبلغ ٣,٣ بالمائة خلال فترة ١٩٦٧ ــ ١٩٨٢، فيما لو استبعد عامل التهجير. وبالواقع فإن معدل نموهم السنوي لم يتجاوز ١,٦ بالمائة خلال هذه الفترة، وعليه فإن معدل التهجير السنوي بلغ ١,٧ بالمائة خلال الفترة المذكورة. وبالاضافة إلى معدلات التهجير التي يمكن احتسابها من الجدول رقم ٤، يمكن أيضاً دراسة بعض خصائص المهجرين، كتوزعهم حسب العمر والجنس كما سنرى لاحقاً.

الخصائص

تصعب دراسة خصائص المهجرين من الضفة الغربية وقطاع غزة بعد ١٩٦٧ وذلك لندرة المسوحات المتخصصة المتعلقة بهم، فلا السلطات الاسرائيلية اهتمت بهذا الموضوع، فيما عدا تقدير الحجم، ولا مختلف الهيئات العربية أولته العناية التي يستحقها. ولقد تم الحصول على إحدى الدراسات النادرة المتعلقة بالخصائص السكانية والاسكانية لسكان الضفة الغربية لغرض استخدامها في هذا البحث[٦]. كما سيتم الاعتماد على خصائص الفلسطينيين / الأردنيين المتواجدين في دول الخليج لاعطاء فكرة حول خصائص المهجرين من الضفة الغربية وقطاع غزة. ولا نخال أننا نخطىء كثيراً في تبني مثل هذا الافتراض، خاصة إذا ما علمنا أن القسم

الأكبر من فلسطينيي/ أردنيي الخليج يفد من هاتين المنطقتين بالذات[٧].

تهجير الأسر

قد تكون أهم سمة لتهجير الفلسطينيين من الضفة الغربية وقطاع غزة، هي أن التهجير اصبح يطال أسراً بكاملها، ولا يقتصر بالتالي على تهجير الشباب الذكور في سن العمل. وهذه الظاهرة هي أحد الأسباب الاضافية التي تحدو بنا لاستخدام تعبير «التهجير» وليس «الهجرة». فالواقع أن التهجير الجماعي للأسر قد تم بعيد حرب حزيران مباشرة، واستمر بعد ذلك ليومنا هذا وسنحاول فيما يلي توضيح هذه الظاهرة بشيء من الاسهاب.

يبين الجدول رقم ٦، التوزيع المئوي للمهاجرين والمهجرين من الضفة الغربية خلال الفترة الممتدة من التعداد الأردني في عام ١٩٦١ (تشرين الثاني) إلى تاريخ إجراء التعداد الاسرائيلي في ١٩٦٧ (أيلول). ويستفاد من هذا الجدول أن ٤٣ بالمائة من المجموع هم من الأولاد في سن ما دون الخامسة عشر، مما يؤكد الطابع الأسري للانتقال السكاني خلال هذه الفترة. وإذا ما أخذنا بعين الاعتبار أن هجرة الأردنيين إلى الخارج كانت قد اتسمت بطابع هجرة الذكور الشباب في سن العمل في الفترة السابقة لعام ١٩٦٧[٨]، فسيعني ذلك أن نسبة المهجرين دون الخامسة عشر بعيد حرب ١٩٦٧ مباشرة، كانت أعلى من النسبة المذكورة أعلاه (٤٣ بالمائة)، مما يؤكد الطابع الأسري للتهجير.

من ناحية أخرى يبين الجدول رقم (٧) توزيع المهجرين الفلسطينيين من الضفة الغربية (باستثناء القدس) حسب العمر خلال الفترات ١٩٦٧/ ١٩٧٢، ١٩٦٧/ ١٩٧٧، و ١٩٦٧/١٩٨٢. ويستفاد من هذه البيانات أن نسبة الأولاد ما دون الخامسة عشر إلى مجموع المهجرين، بلغت ٨١ بالمائة في الفترة الأولى، ٦٢ بالمائة في الفترة الثانية و ٥٦ بالمائة في الفترة الثالثة. وهذا يؤكد طابع تهجير الأسر من الضفة الغربية بعد نهاية ١٩٦٧[٩].

أخيراً نشير إلى ارتفاع نسبة الأولاد الفلسطينيين / الأردنيين دون الخامسة عشر في دول الخليج إلى أكثر من نصف مجموعهم في عام ١٩٧٥ (٥١ بالمائة)، وإلى أن هذه النسبة قد تجاوزت في حدها الأدنى الثلث بكثير في الامارات العربية المتحدة ١٩٧٥ (٣٨,٩ بالمائة). ومن الملفت للنظر تطور هذه النسبة في التعدادات الكويتية، إذ ارتفعت من أقل من الخمس بقليل (١٩,٢ بالمائة) في ١٩٥٧ إلى ما ينوف عن الثلث (٣٥,٣ بالمائة) في ١٩٦٥ ثم إلى النصف (٥٠,٤ بالمائة) في ١٩٧٠، وليس بمستغرب أن يكون التغيير الكبير قد حصل خلال ١٩٦٥/١٩٧٠ حيث يظهر أثر حرب حزيران ١٩٦٧. من ناحية أخرى تجدر الاشارة إلى الانخفاض المستمر لمعدل الجنس العام للفلسطينيين / الأردنيين في الكويت مع الزمن، إذ انخفض من ٣١١ بالمائة في ١٩٥٧ إلى ١٧٨ بالمائة في ١٩٦٥ وصولاً إلى ١١٨ بالمائة في ١٩٧٠ (الجدول رقم ٨). إن كل هذه البيانات إنما تدل بوضوح على أن الهجرة القسرية للفلسطينيين من الضفة الغربية وقطاع غزة قد لحقت بالأسر ولم تقتصر فقط على الشباب الذكور.

مكان الاقامة

تفيد دراسة «الضفة الغربية ــ غير المنشورة» أن المهجرين توجهوا بالتساوي إلى كل من الضفة الشرقية (٢٩,٩ بالمائة) وإلى الكويت وبقية دول الخليج (٣٠,٢ بالمائة)، فيما عدا العربية السعودية التي استقطبت ما مجموعه ١٣,٨ بالمائة. وتجدر الاشارة إلى الارتفاع النسبي للفئة المتوجهة إلى أوروبا (٨,٩ بالمائة) وأميركا (٩,٦ بالمائة). وإذا ما حاولنا أن نتطلع إلى مناطق جذب المهجرين بحسب مكان إقامتهم في الضفة، فسنجد أن مهجري نابلس اتجهوا بشكل خاص إلى الكويت في حين اتجه مهجرو الخليل إلى الأردن والعربية السعودية. أما مهجرو القدس فلقد اتجه أكثر من ثلثهم إلى اميركا.

وإذا ما حاولنا أن نركز على منطقة الخليج بشكل خاص، فسنجد أن مجموع الفلسطينيين / الأردنيين قد ارتفع من ٣٧٥ الفاً في نهاية ١٩٧٥ في دول مجلس التعاون الست،

ويبدو أن حصة منطقة الجذب الكبرى، الكويت، قد انخفضت من ٦٠ بالمائة إلى ٥٦ بالمائة، ولقد تم ذلك لصالح منطقتي الجذب الثانية، العربية السعودية والثالثة، الامارات العربية المتحدة، إذ ارتفعت حصتيهما من ٢٥ بالمائة إلى ٢٨ بالمائة ومن ٨ بالمائة إلى ١١ بالمائة على التوالي (Kossaifi Unpublished)، (الجدول رقم ١).

حق العودة

لقد سبق وأشرنا إلى أن معظم سكان الضفة والقطاع الذين لم يكونوا متواجدين هناك عشية حرب حزيران ١٩٦٧، لم يتمكنوا من الحصول على «لم الشمل» فيما بعد، وبالتالي منعوا من حق العودة إلى ديارهم. وتفيد دراسة «الضفة الغربية ــ دراسة غير منشورة» إلى أن ٤٠ بالمائة من المهجرين خارج الضفة الغربية لا يمتلكون «جمع شمل» وبالتالي لا يمكنهم العودة إلى الضفة. وترتفع بشكل خاص نسبة المهجرين من القدس بين من حظرت عليهم العودة، إذ تعدت نصف مجموع المبعدين من هذه المحافظة. وإذا ما ربطنا بين تكثيف عمليات الاستيطان في هذه المحافظة بالذات وبين إنكار حق العودة للمهجرين منها لاتضحت أبعاد عملية الانكار اكثر فأكثر.

يبقى أن نشير إلى أن نسبة الـ ٤٠ بالمائة المشار إليها آنفاً هي نسبة الحد الأدنى، إذ أن الدراسة لم تتطرق أصلاً إلى الأسر التي تتواجد بكامل أفرادها خارج الضفة. ومن المنطقي الاعتقاد أن هذا النمط من الأسر، إما أنه لم يستحصل أصلاً على «لم شمل» أو أنه لم يهتم بتجديده نظراً لتواجد كافة أفراد الأسرة في الخارج، وعليه يمكن القول أن حوالي نصف مجموع المبعدين بعد عام ١٩٦٧ قد خسروا حق عودتهم إلى ديارهم.

المستوى التعليمي

من المعروف أن الفلسطينيين يتمتعون بمستوى تعليمي مرتفع، مقارنة بغيرهم من العرب. ولم يشذ مهجرو الضفة والقطاع عن هذه القاعدة، إذ شكلت فئة الثانويين والجامعيين نسبة مرتفعة بينهم تعدت الخمس، كما أن نسبة الأميين بينهم كانت في حدودها الدنيا نسبياً. وتفيد دراسة «الضفة الغربية ــ دراسة غير منشورة» إلى أن نسبة الأميين بين المهجرين من الضفة لم تتجاوز ٣ بالمائة في حين تجاوزت نسبة الثانويين فأعلى الخمسين بالمائة[١٠]. وإذا ما تطلعنا إلى مجالات تخصص المتخرجين من أبناء المهجرين، فسنجد أن أكثر من نصفهم توجه نحو العلوم الانسانية وحوالي خمسهم للهندسة وتوزع الباقي في العلوم الطبية (حوالي العشر) والعلوم البحتة.

من ناحية اخرى يمكن القول أن الفلسطينيين / الأردنيين في دول مجلس التعاون الخليجي، قد تميزوا عن غيرهم من العرب بارتفاع مستواهم التعليمي، إذ تجاوزت نسبة الثانويين فأعلى بينهم الربع (٢٧ بالمائة) في حين لم تزد نسبة الأميين عن الـ ١٦ بالمائة (الجدول رقم ٩). هذا وقد بلغت النسبة الأولى حدها الأعلى في الامارات العربية المتحدة (٤٢ بالمائة) وحدها الأدنى في الكويت (٢٠ بالمائة). «اما بالنسة للجنسيات العربية فيتميز الفلسطينيون / الأردنيون بمستوى علمي مرتفع، إذ أن متوسط سنوات دراستهم تراوح من سبع سنوات في الكويت إلى عشر سنوات في الامارات العربية المتحدة، كما وأن نسبة الأميين بينهم كانت الأكثر انخفاضاً». (United Nations, ECWA 1982).

التوزيع المهني

تفيد دراسة «الضفة الغربية ــ دراسة غير منشورة» أن مهجري الصفة قد تركزوا في ثلاث مجموعات مهنية رئيسية، إذ فاقت نسبة العاملين منهم في المهن «الفنية والعلمية» و «الخدمات» الربع، كما بلغت نسبة «عمال الانتاج والفعلة» الخمس. وإذا كانت البيانات المجمعة من خصائص فلسطينيي / اردنيي دول الخليج تتوافق مع التركيز الملاحظ في المجموعتين الأولى والثالثة، إلا أنها تبتعد عن نسبة الدراسة المذكورة والمتعلقة بالعاملين في «الخدمات».

لقد تركز حوالي ثلث العاملين من الفلسطينيين / الأردنيين في دول مجلس التعاون الخليجي في ١٩٧٥، في مجموعة «المهنيين والفنيين» (٣٥ بالمائة) وفي

مجموعة «عمال الانتاج والفعلة» (٣٣ بالمائة) إلا أن نسبة العاملين بينهم في «الخدمات» لم تتعد ٦,٢ بالمائة، في حين بلغت نسبة الكتبة ١٤,٥ بالمائة. ويتضح من بيانات تعدادات ومسوحات بعض دول الخليج والتي أجريت في مطلع الثمانينات، إلى أن هذه الفئة من المهاجرين قد حافظت على توزيعها المهني الملاحظ في منتصف السبعينات (الجدول رقم ١٠).

وإذا ما حاولنا أن نتطلع بشيء من التفصيل إلى المهن التي كان يزاولها الفلسطينيون / الأردنيون في الكويت عام ١٩٧٥، فسنجد أنهم «كانوا يزاولون مهناً علمية وفنية تتطلب مؤهلات جامعية من ناحية، كما كانوا يزاولون مهناً تقنية تتطلب تدريباً مهنياً مرتفعاً. فلقد شكلوا ٢٨ بالمائة من مجموع «المهندسين»، ٣٤ بالمائة من مجموع «المساحين والرسامين»، ٣٧ بالمائة من مجموع «الأطباء والصيادلة»، ٢٥ بالمائة من مجموع «العاملين بالتمريض»، ٣٨ بالمائة من مجموع «الاقتصاديين والمحاسبين» و ٣٠ بالمائة من «هيئات التدريس». كما أنهم شكلوا أيضاً ٢٣ بالمائة من «مشرفي الانتاج ورؤساء العمال»، ٢٠ بالمائة من «النجارين»، ٢٥ بالمائة من «الحدادين وصانعي الأجهزة الدقيقة»، ٢٥ بالمائة من «الكهربائيين»، ٢٧ بالمائة من «عمال الأدوات الصحية» و ٢٦ بالمائة من سائقي معدات النقل» (United Nations, ECWA 1982).

السياسات

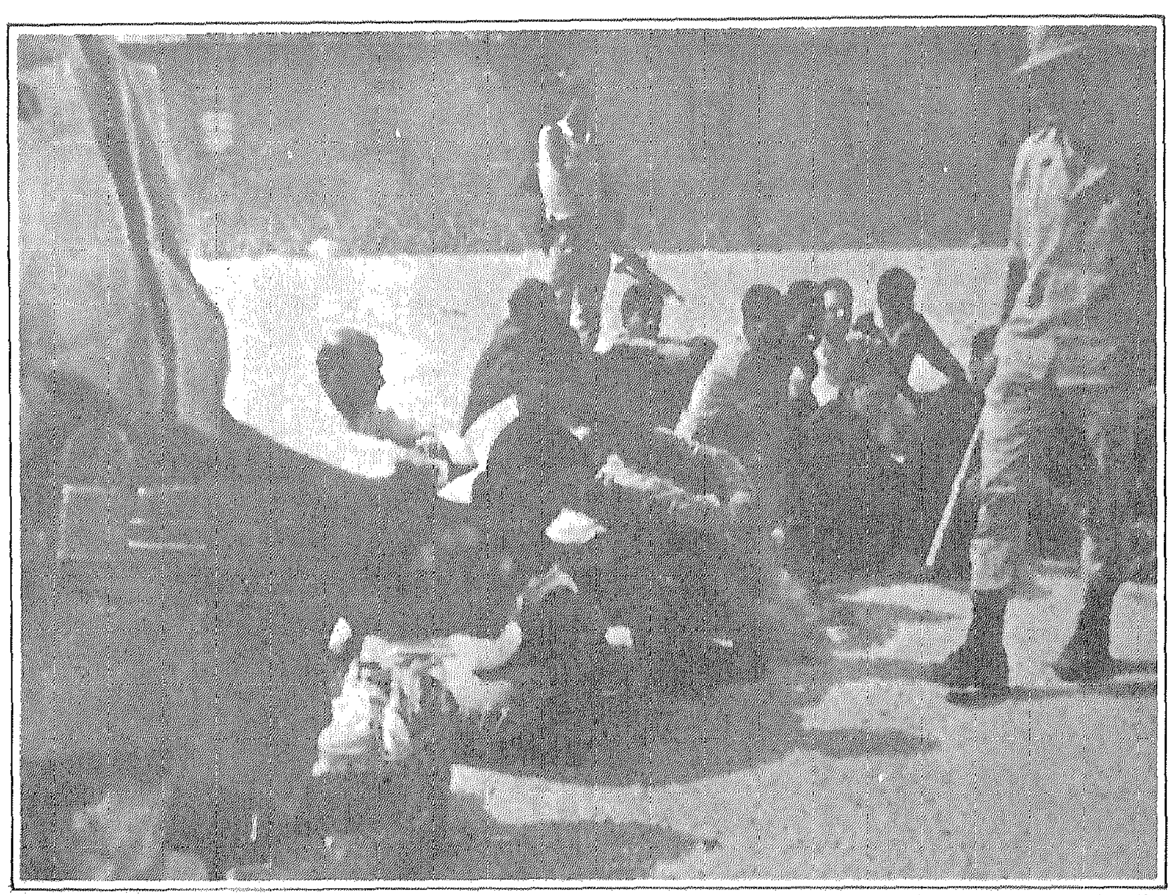
صادرت السلطات الاسرائيلية، منذ احتلال الضفة الغربية وقطاع غزة ولتاريخ نهاية ١٩٨٣، ما لا يقل عن ٤٠ بالمائة من مساحة الضفة وحوالي ثلث مساحة القطاع[11]، كما أنها أقامت ما لا يقل عن ١٦٠ مستوطنة واستقدمت حوالي ١٢٨ ألفاً من المستوطنين، تركز القسم الأكبر منهم في منطقة القدس. وفي المقابل، ولغاية إنشاء اللجنة الأردنية الفلسطينية المشتركة إثر مؤتمر القمة العربي التاسع، بغداد ١٩٧٨، كان هناك غياب شبه تام لسياسة عربية فعالة لدعم الصمود في الأراضي المحتلة. وحتى بعد ذلك التاريخ، لم يتسن بعد للجنة المشتركة أن ترسم وتنفذ سياسة عربية فعالة تقف بوجه مصادرة الأراضي وإقامة المستوطنات الصهيونية وتثبت عرب فلسطين في ديارهم.

بقي أن نلقي الأضواء على السياسات التي كان من شأنها استقدام حوالي ثمانية آلاف مستوطن إسرائيلي، وبالمقابل تهجير حوالي تسعة عشر ألف فلسطينياً سنوياً خلال الفترة ١٩٦٧/١٩٨٢.

السياسات الاسرائيلية

□ **مصادرة الأراضي**: إن تاريخ المشروع الصهيوني حافل بنهج سياسة الأمر الواقع من خلال مصادرة الأراضي وإنشاء المستوطنات، وذلك بغية تحقيق أهداف سياسية وعسكرية. إن معظم الاسرائيليين ينظرون إلى احتلال الأراضي كترجمة عملية للمشروع الصهيوني، وعليه فإن سياسات مصادرة الأراضي تنفذ دون كلل (Benvensti, 1984, P. 19). تعكس هذه المقولة بوضوح أن عملية مصادرة الأراضي ليست عابرة في تاريخ المشروع الصهيوني، ويمكن على ضوئها فهم السرعة التي تمت من خلالها مصادرة الأراضي العربية، واستصدار «القوانين» التي تشرع ذلك.

ويبين الجدول رقم (١١) مساحة الأراضي المصادرة في الضفة والقطاع لغاية ١٩٨٣. وتجدر الاشارة أولاً إلى أن المساحات الواردة هنا لا تتضمن تلك التي فرضت السلطات الاسرائيلية قيوداً على استعمالها، كما أن مجموع المساحات الواردة لا يمثل بالضرورة مجموع المساحات المصادرة. لقد كان هناك أربعة «قوانين» رئيسية تم الاستناد إليها لمصادرة الأراضي. الأول وعرف باسم قانون مصادرة أملاك الغائبين، وهم الذين كانوا قد غادروا الضفة قبل ١٩٦٧ أو إبان الحرب، (٤٣٠ ألف دونم و ١١ ألف مبنى في الضفة الغربية و ٨ آلاف دونم في غزة). القانون الثاني يتعلق بمصادرة الأراضي في الضفة بشكل خاص، والتي كانت تمتلكها السلطات الأردنية (٧٥٠ ألف دونم). القانون الثالث يتعلق بالأراضي المصادرة لأغراض التدريب العسكري والتي حولت في معظمها للمستوطنين اليهود لاحقاً (١,١٥٠ مليون دونم). أما القانون الرابع الذي صدر سنة ١٩٨٠ فهو الأخطر إذ قضى بمصادرة الأراضي غير المزروعة وغير المسجلة في الدوائر العقارية[12]، (مليون دونم في الضفة و ٩٣ ألف دونم في غزة). كما أنه قضى، بخلاف القوانين السابقة، بإسقاط حق الملكية واعتبار الأراضي المصادرة كجزء من الثروة القومية الاسرائيلية، كما أشرنا سابقاً.



□ فلسطينيون موقوفون في نابلس.

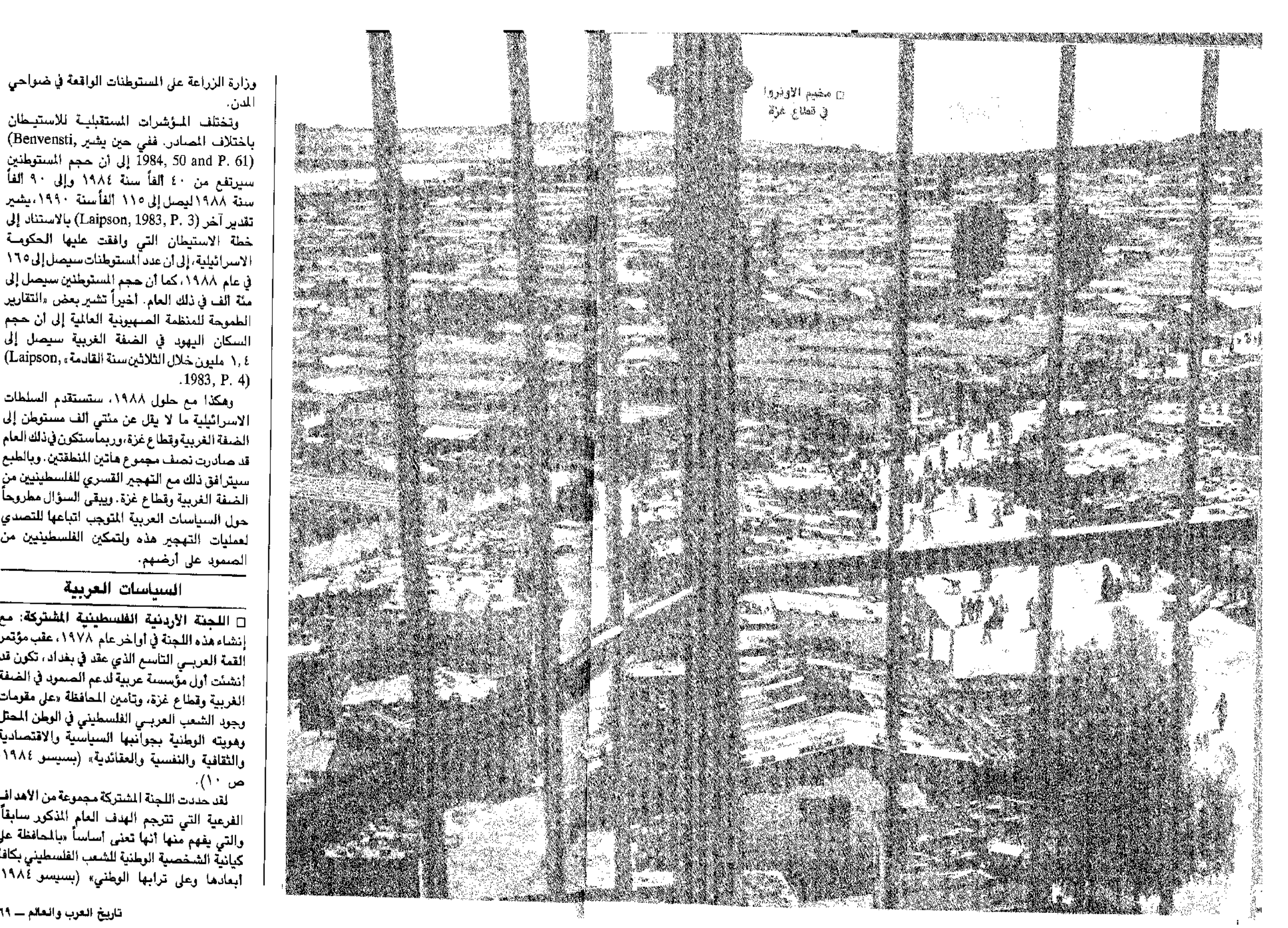
وإذا ما حاولنا النظر إلى توزيع المساحات المصادرة بحسب المنطقة في الضفة الغربية، فسنجد أنه تمت مصادرة ما ينوف عن ثلث مجموع المساحة في منطقة القدس (٣٥ بالمائة)، وحوالي الخمس في كل من مناطق وادي الأردن، الخليل، بيت لحم، أريحا، ونابلس، جنين، طولكرم. وحوالي ٧ بالمائة في منطقة رام الله، البيرة (الجدول رقم ١٢).

ومن المفيد أن نذكر هنا أنه «منذ سبعة وثلاثين عاماً، ١٩٤٧، كان اليهود يملكون أقل من ١٠ بالمائة من مساحة فلسطين الواقعة تحت الانتداب. أما في عام ١٩٨٣ فأصبحوا يملكون ٨٥ بالمائة من هذه المساحة في حين يملك الفلسطينيون، بمن فيهم عرب إسرائيل، أقل من ١٥ بالمائة منها» (Benvensti, 1984, P. 19).

□ **إقامة المستوطنات**: لقد شهدت الحقبة الممتدة من سنة ١٩٧٧ حتى ١٩٨٤ تكثيفاً واسعاً لعمليات الاستيطان[١٣]، أدت لايجاد وقائع على الأرض يصعب إزالتها ووضعت الرأي العام الدولي أمام الأمر الواقع، كما جعلت قضية الاستيطان في الأراضي العربية تمثل ثقلاً خاصاً في السياسة الاسرائيلية الداخلية.

يبين الجدول رقم (١٣) بعض المؤشرات المتعلقة بالاستيطان خلال الفترة ١٩٧٩/١٩٨٣. ويستفاد من هذا الجدول أن الاستيطان قد تركز في منطقة القدس، إذ أصبحت تضم حوالي مئة ألف مستوطن مقارنة بحوالي ٢٧٥٠٠ مستوطن في بقية الضفة الغربية وحوالي ألف في غزة. أما بالنسبة لعدد المستوطنات فقد وصل إلى ١٥٣ مستوطنة في كافة أرجاء الضفة الغربية وإلى ثماني (أو اثنتي عشرة بحسب المصادر) في قطاع غزة.

وإذا ما تطلعنا إلى نمط المستوطنات في الضفة (باستثناء القدس) فسنجد أن حوالي ١٨ بالمائة منها هي حضرية و ٦٦ بالمائة ريفية شبه حضرية و ١٥ بالمائة عسكرية. وجدير بالذكر هنا، أن الجهة الاسرائيلية المسؤولة عن المستوطنة تختلف باختلاف النمط. فوزارة الاسكان تشرف على المستوطنات الحضرية، في حين تشرف المنظمة الصهيونية العالمية على المستوطنات الريفية وشبه الحضرية، كما تشرف



□ مخيم الأونروا في قطاع غزة

وزارة الزراعة على المستوطنات الواقعة في ضواحي المدن.

وتختلف المؤشرات المستقبلية للاستيطان باختلاف المصادر. ففي حين يشير (Benvensti, 1984, 50 and P. 61) إلى أن حجم المستوطنين سيرتفع من ٤٠ ألفاً سنة ١٩٨٤ وإلى ٩٠ ألفاً سنة ١٩٨٨ ليصل إلى ١١٥ ألفاً سنة ١٩٩٠، يشير تقدير آخر (Laipson, 1983, P. 3) بالاستناد إلى خطة الاستيطان التي وافقت عليها الحكومة الاسرائيلية، إلى أن عدد المستوطنات سيصل إلى ١٦٥ في عام ١٩٨٨، كما أن حجم المستوطنين سيصل إلى مئة الف في ذلك العام. أخيراً تشير بعض «التقارير الطموحة للمنظمة الصهيونية العالمية إلى أن حجم السكان اليهود في الضفة الغربية سيصل إلى ١,٤ مليون خلال الثلاثين سنة القادمة» (Laipson, 1983, P. 4).

وهكذا مع حلول ١٩٨٨، ستستقدم السلطات الاسرائيلية ما لا يقل عن مئتي الف مستوطن إلى الضفة الغربية وقطاع غزة، وربما ستكون في ذلك العام قد صادرت نصف مجموع هاتين المنطقتين. وبالطبع سيترافق ذلك مع التهجير القسري للفلسطينيين من الضفة الغربية وقطاع غزة. ويبقى السؤال مطروحاً حول السياسات العربية المتوجب اتباعها للتصدي لعمليات التهجير هذه ولتمكين الفلسطينيين من الصمود على أرضهم.

السياسات العربية

□ **اللجنة الأردنية الفلسطينية المشتركة**: مع إنشاء هذه اللجنة في أواخر عام ١٩٧٨، عقب مؤتمر القمة العربي التاسع الذي عقد في بغداد، تكون قد انشئت أول مؤسسة عربية لدعم الصمود في الضفة الغربية وقطاع غزة، وتأمين المحافظة «على مقومات وجود الشعب العربي الفلسطيني في الوطن المحتل وهويته الوطنية بجوانبها السياسية والاقتصادية والثقافية والنفسية والعقائدية» (بسيسو ١٩٨٤، ص ١٠).

لقد حددت اللجنة المشتركة مجموعة من الأهداف الفرعية التي تترجم الهدف العام المذكور سابقاً، والتي يفهم منها أنها تعنى أساساً «بالمحافظة على كيانية الشخصية الوطنية للشعب الفلسطيني بكافة ابعادها وعلى ترابها الوطني» (بسيسو ١٩٨٤،

ص ١١)، مما يؤكد طابعها الوطني العام وليس فقط دورها الاجتماعي والانساني.

«ولتحقيق هذا الهدف العام ينبغي تبني مجموعة من السياسات الرامية إلى تحقيق الغايات التالية:

١ ــ المحافظة على مقومات وجود الشخصية العربية الوطنية بقيمها ومؤسساتها وتوفير ما يمكن لها من أسباب التقدم الحضاري (بشقيه المادي والروحي).

٢ ــ التصدي لكافة أشكال السيطرة السياسية والاقتصادية والثقافية والعقائدية التي تحاول سلطات الاحتلال الصهيوني فرضها على شعبنا.

٣ ــ خلق مختلف الظروف والاجراءات والقوانين، وتبني تنفيذ ما يمكن في ظل الاحتلال من مشاريع التنمية الاقتصادية والاجتماعية، بهدف دعم عملية انغراس المواطن العربي في أرضه، والحد من هجرته.

٤ ــ الحد، وإلى الحد الأقصى المتاح، من التشابك في العلاقات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية مع الكيان الصهيوني، ودعم وتشجيع المحافظة على علاقات الوطن المحتل مع الأردن والعالم العربي الاسلامي.

وتأكيداً على ما سبق، فإن الهدف الاستراتيجي لا ينبغي أن يكون مجرد الثبات في الأرض الفلسطينية المحتلة. وإنما المحافظة على كيانية الشخصية الوطنية للشعب الفلسطيني بكافة أبعادها وعلى ترابها الوطني» (بسيسو، ١٩٨٤).

ضمن هذا التطور الوطني العام لدور اللجنة يمكننا الوقوف قليلاً على نشاطاتها خلال الفترة ١٩٧٩ ــ ١٩٨٣ وذلك من خلال الجدول رقم ١٤ الذي يبين توزيع المخصصات بحسب القطاعات المختلفة. ويستفاد منه أن الخدمات الاجتماعية (تعليم، مجالس بلدية، تنمية اجتماعية، صحة إلخ) قد استحوذت على القسم الأكبر من الميزانية (ما لا يقل عن نصف المخصصات) في حين لم تستحوذ القطاعات المنتجة، الصناعة والزراعة، على أكثر من ١٤,٣ بالمائة، كما أن الاسكان استحوذ على حوالي الخمس (١٩ بالمائة). وعليه يمكن القول أنه لم يكن هناك موازنة بين دعم القطاعات السلعية والتي هي حجر الأساس في الصمود الاقتصادي، وبين دعم قطاعات الخدمات التي توفر الحد الأدنى من متطلبات العيش. ويعود السبب في اتباع هذه السياسة إلى إهمال سلطات الاحتلال الاسرائيلي في القيام بتوفير خدمات الحد الأدنى، لا بل عرقلة الجهود العربية في هذا الاتجاه. إلا أنه يمكننا القول أن حصة القطاعات المنتجة غير كافية، وبالتالي يتوجب رفعها بشكل محسوس لكي تفي بمتطلبات الصمود الاقتصادي. وقد يكون من الممكن التنسيق بين مختلف الجهات العاملة في الضفة الغربية وقطاع غزة في المجالات الاجتماعية والانسانية، (وهي ليست بقليلة العدد كما أنها ليست بمحدودة الامكانات) بحيث توجه إنفاقها إلى المجالات التي تصب مباشرة في أعمال اللجنة المشتركة وخاصة في مجال البنية التحتية والخدمات، فيتحقق بالتالي للجنة وفر يمكن استخدامه في القطاعات المنتجة.

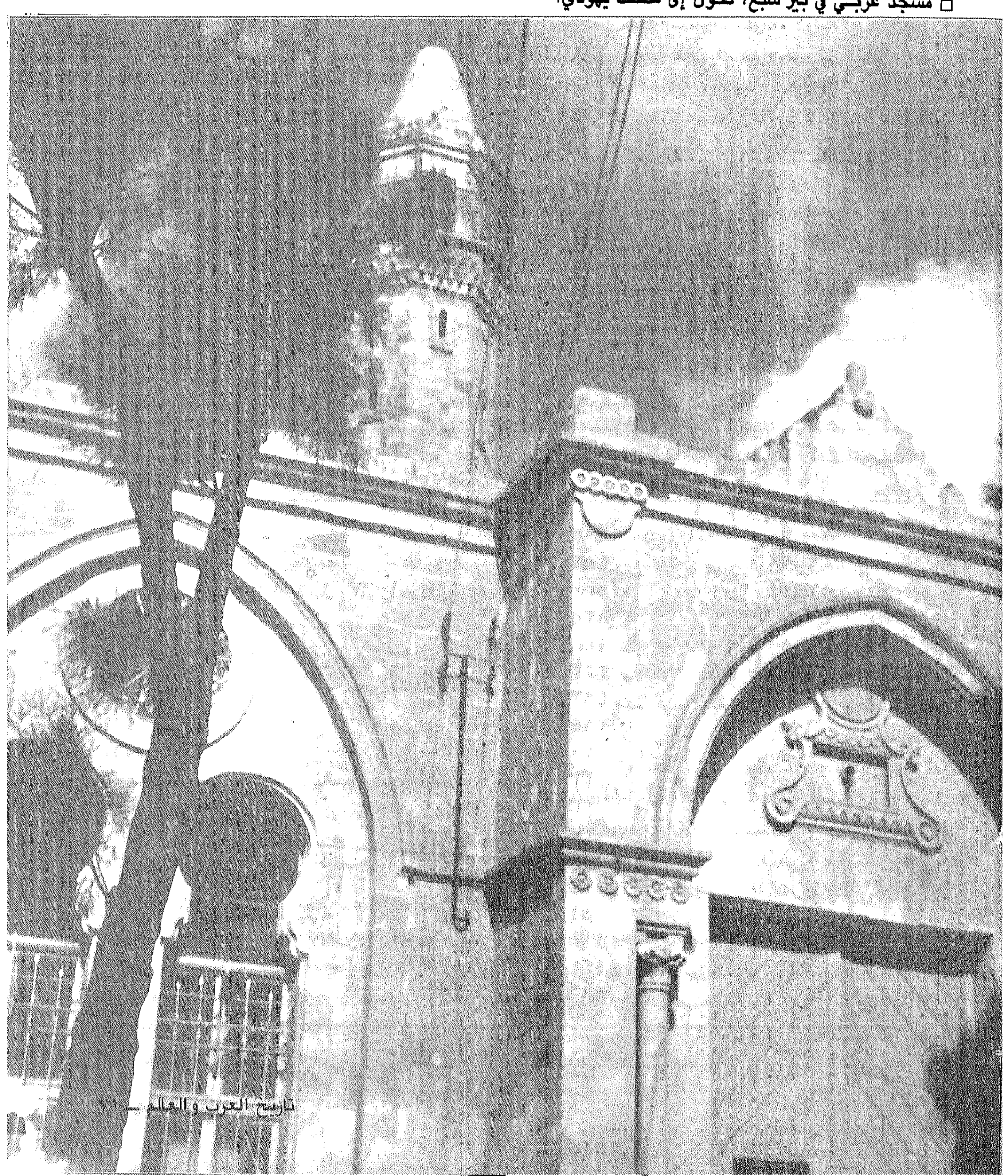
أخيراً تجدر الاشارة، ونحن في معرض سياسات الصمود، إلى قرار كانت اتخذته الحكومة الأردنية عام ١٩٨٣، يقضي بالحد من انتقال الشباب في سن الجندية من الضفة الغربية إلى الضفة الشرقية. إننا نعتقد بصحة هذا القرار من حيث أنه سيحد من تفريغ الضفة الغربية، إلا أنه سيبقى أحادي الجانب إذا لم يوفر للمقيمين هناك الحد الأدنى من متطلبات الصمود.

□ **المحاور الرئيسية للصمود الاقتصادي**: لا بد أولاً من إلقاء الضوء على المعيار الأساسي الذي يتم على ضوئه وضع الأولويات في سلسلة المشاريع الاقتصادية الرامية إلى تعزيز الصمود في الأراضي العربية المحتلة. فإذا ما كان المردود المادي هو المنشود عادة في مشاريع القطاعات المنتجة، إلا أن هذه المقولة لا تصح في حالة المشاريع الانمائية في الضفة الغربية وقطاع غزة، حيث يتوجب تطبيق مفهوم المردود الاجتماعي السياسي بدلاً من المردود الاقتصادي. بمعنى أن يكون الهدف عند وضع أولويات المشاريع الاقتصادية في الضفة والقطاع وعند تقييمها، هو أولاً مدى مساهمة هذه المشاريع في تعزيز الصمود ومدى توفيرها الفرص العمل هناك، ومن ثم النظر للتكلفة المادية لهذه المشاريع. فقد تلجأ الهيئات المختصة في بعض الأحيان إلى شراء المحاصيل الزراعية من المزارعين بسعر تشجيعي وبيعه بسعر أقل من سعر الكلفة، وما ذلك إلا لدعم صمود المزارعين المقيمين في الضفة والقطاع.

يجمع دارسو اقتصاديات الأراضي العربية المحتلة

على أن المحافظة على الأرض هي المهمة الأولى في سياسة الصمود، وبالتالي فإنهم يولون دعم قطاعي الزراعة والاسكان اهتماماً خاصاً. ولقد رأينا كيف أن السلطات الاسرائيلية ماضية قدماً في قضم الأرض في الضفة والقطاع من خلال مصادرة الأراضي وإقامة المستوطنات، وعليه يمسي التمسك بالأرض أولى أولويات دعم الصمود. «إن حماية الأرض لا يمكن أن تتم إلا عبر المحافظة على المساحات المزروعة حالياً أولاً، وعبر الحد من ترك الأرض لصالح النشاطات الاقتصادية الأخرى ثانياً، وعبر استصلاح أراض

□ مسجد عربي في بير سبع، تحول إلى متحف يهودي.



جديدة للتعويض عن الأراضي الزراعية المصادرة من قبل السلطات الاسرائيلية ثالثاً. أما أسباب تركيز الدعم على القطاع الزراعي «فتعود إلى محدودية تطوير القطاع الصناعي، وإلى وجود أراض شاسعة غير مستغلة، وإلى إمكانية الزراعة في مزاحمة المنتجات الاسرائيلية أكثر من إمكانية أي قطاع اقتصادي آخر، وإلى قدرة الزراعة في استيعاب أيد عاملة كثيفة، وإلى كون استصلاح الأراضي لا يتطلب إذناً مسبقاً من السلطات الاسرائيلية» (منصور ١٩٨٤).

كما أن حماية الأرض تمر عبر دعم قطاع الاسكان. ولقد أثبتت التجربة أن الانتشار الأفقي للمساكن يحد من الاستيطان، كما أنه في الوقت نفسه يوفر بعض متطلبات الحد الأدنى من العيش اللائق. وذلك لا يعني بطبيعة الحال إهمال القطاع الصناعي في الضفة والقطاع، إلا أن دعم هذا القطاع يأتي في المرتبة الثانية بعد المحافظة على الأرض. ومن أهم المعايير في انتقاء المشاريع الصناعية، يأتي أولاً انتقاء الصناعات التي تكثف استخدام القوى البشرية، وليس تلك ذات الكثافة الرأسمالية، إذ أن المطلوب أولاً هو المردود الاجتماعي (وبالتالي إيجاد فرص عمل للمقيمين في الضفة والقطاع)، وليس المردود الاقتصادي. كما يتوجب في المشاريع الصناعية المنتقاة أن تكون الأقل ارتباطاً بالاقتصاد الاسرائيلي، سواء من حيث استيراد المواد الأولية أو من حيث التسويق. وعليه فإن الدعم يجب أن يتركز حول الصناعات الحرفية والصناعات الزراعية[١٤].

يبقى إيلاء مسألة تسويق منتوجات الضفة الغربية وقطاع غزة الأهمية اللازمة كمحور من المحاور الرئيسية للصمود الاقتصادي، إذ أن تكدس البضائع في فترة معينة، يخفض من سعرها أولاً كما يعرضها للتلف ثانياً، مما ينعكس سلباً على المنتجين. ويجب التخطيط للتسويق ابتداء من التخزين وانتهاء

الجدول رقم (١): الفلسطينيون حسب مكان الاقامة، ١٩٨١ (الارقام بالالاف)

مكان الاقامة	الارقام المطلقة	النسبة المئوية
الضفة الغربية	٨٢٣ر٠	١٨ر٢
قطاع غزة	٤٥١ر٦	٩ر٩
فلسطين المحتلة قبل ١٩٦٧	٥٥٠ر٨	١٢ر٠
مجموع فلسطين	١ ٨٣٥ر٤	٤٠ر٢
الاردن	١ ١٤٨ر٢	٢٥ر١
سورية	٢٢٢ر٦	٤ر٩
لبنان	٤٩٢ر٢	١٠ر٨
الكويت	٢٩٤ر٩	٦ر٥
العراق	٢٠ر٦	٠ر٥
الجماهيرية العربية الليبية	٢٣ر٨	٠ر٥
مصر	٣٤ر٣	٠ر٨
العربية السعودية	١٣٧ر٠	٣ر٠
الامارات العربية المتحدة	٣٧ر٠	٠ر٨
قطر	٢٤ر٠	٠ر٥
باقي الدول العربية	٥١ر٠	١ر١
الولايات المتحدة الامريكية	١٠٥ر٠	٢ر٣
باقي دول العالم	١٤٠ر٠	٣ر١
المجموع	٤ ٥٦٦ر٠	١٠٠ر٠

المصدر: منظمة التحرير الفلسطينية، ١٩٨٢، ص. ٠٢٢

الجدول رقم (٢) : المهاجرون الفلسطينيون من الضفة الغربية خلال ١٩٥٣ - ١٩٦٧

	المقيمون فعليا(أ) في بداية المرحلة	المقيمون فعليا في نهاية المرحلة	المقيمون نظريا(ب) في نهاية المرحلة	المهاجرون	معدل النمو السنوي (٪)
١٩٦١/١٩٥٣	٧٤٣ ٢٨٩	٨٠١ ٣٥٦	٩٥٣ ٩٠٠	٣١٠ ٦٠٠	٨٣ر٠
١٩٦٧/١٩٦١	٨٠١ ٣٥٦	٨٠٣ ٦٠٠	٩٥٥ ٦٠٠	١٥٤ ٢٠٠	٠٥ر٠
١٩٦٧/١٩٥٣	٧٤٣ ٢٨٩	٨٠٣ ٦٠٠	١ ١٣٨ ٥٠٠	٣٩٦ ٢٠٠	٥٤ر٠

المصادر: تقديرات الكاتب بالاستناد الى : Jordan 1953؛ Kossaifi 1976, pp. 240-250؛ و الاردن ١٩٦١.

ملاحظات: (أ) تتوافق بداية المرحلة ١٩٦١/١٩٥٣ مع تعداد المساكن الاردني الذي اجرى في آب ١٩٥٣، كما تتوافق النهاية مع تاريخ أول تعداد للسكان في الاردن في تشرين ثان ١٩٦١. أما التقدير المعطى في ١٩٦٧ فيعود الى عشية حرب حزيران ١٩٦٧ (١٩٦٧/٥/٣١ تحديدا).

(ب) تم تطبيق معدل للنمو السكاني يبلغ ٧ر٢ بالمائة خلال ١٩٦١/١٩٥٣، ٣ر٢ بالمائة خلال ١٩٦٧/١٩٦١ و٩ر٢ بالمائة خلال ١٩٦٧/١٩٥٣.

بتصريف البضائع، ليس فقط في الأردن بل وفي غيره من البلدان العربية، وبقية دول العالم.

□ **الوجه السياسي للصمود الاقتصادي**: إذا ما تصورنا جدلاً وجود إمكانية مادية غير محدودة لدعم الصمود، فإن ذلك لن يحقق الأهداف المنشودة كلياً، وذلك لأن السلطات الاسرائيلية تنهج سياسة واعية بتهجير الفلسطينيين من الضفة الغربية وقطاع غزة، فما بالك لو كانت أموال دعم الصمود محدودة أصلاً. فخلال الفترة ١٩٧٩ ــ ١٩٨٣ لم يتم تسديد إلا حوالي ثلثي المخصصات (٦٨,٨ بالمائة)، كما وإنه من المتوقع أن ينخفض حجم المخصصات نظراً للانخفاض اللاحق بالعائدات البترولية.

وإذا ما كانت المشاركة الجماهيرية هي أحد الشروط الأساسية في إنجاح عملية التنمية في أي قطر من الأقطار، فإن هذا الشرط يضحى أكثر إلحاحاً في حالة الضفة الغربية وقطاع غزة، نظراً لممارسات الاحتلال الاسرائيلي هناك. وعليه فإن التخطيط لدعم الصمود في الأراضي العربية المحتلة يقتضي رفع مستوى المشاركة الجماهيرية تعويضاً عن إمكانيات الدعم المحدودة.

وما يقال عن الوجه السياسي للصمود الاقتصادي في الضفة والقطاع، يجب أن يقال أيضاً في بقية أنحاء الوطن العربي. بمعنى أنه يجب أن تحظى منتوجات الاراضي العربية المحتلة بنوع من الدعم الحكومي والشعبي.

لقد ركزنا على المحاور الرئيسية للصمود الاقتصادي، واضعين المحافظة على الأرض، وبالتالي دعم قطاعي الزراعة والاسكان، في أولى الأولويات، ومولين الصناعات الحرفية والزراعية اهتماماً خاصاً، وكذلك موضوع تسويق منتجات الضفة والقطاع. غير أن الصمود الاقتصادي ما هو إلا جانب من جوانب سياسة الصمود عامة بالاضافة إلى الصمود السياسي والصمود العسكري. وعليه يجب النظر إلى حصيلة الصمود الاقتصادي من خلال تفاعله مع جوانب سياسة الصمود الأخرى. •

الجدول رقم(٣): المهجرون الفلسطينيون من الضفة الغربية (باستثناء القدس الشرقية) وقطاع غزة خلال ١٩٦٧/١٩٨٢ (بالآلاف)

	المقيمون فعليا في بداية المرحلة(أ)	المقيمون فعليا في نهاية المرحلة	المقيمون نظريا في نهاية المرحلة(ب)	المهجرون	معدل النمو السنوي بالمائة
الضفة الغربية (باستثناء القدس الشرقية)					
١٩٦٧/٦ -١٩٦٧/٩	٨٠٣ر٦	٥٩٥ر٩	٨١٠ر٠	١٤٨ر٢	
١٩٦٧/٩-١٩٦٧/١٢	٦٦١ر٨	٥٨٥ر٩	٦٠٠ر٧	١٤ر٨	
١٩٦٧/١٩٧٤	٥٨٥ر٩	٦٦٣ر٧	٧٣٣ر٢	٦٩ر٥	١ر٧٨
١٩٧٤/١٩٨٣	٦٦٣ر٧	٧٤٧ر٥	٨٦٨ر٧	١٢١ر٢	١ر٤٩
١٩٦٧/٦- ١٩٨٣	٨٠٣ر٦	٨٧٧ر٢	١ ٣٤٣ر٧	٤٦٥ر٥	٠ر٥٦
قطاع غزة (ج)					
١٩٦٧/٦ -١٩٦٧/٩	٤٥٢ر٦(د)	٣٥٦ر٤	٤٥٦ر٢	٩٩ر٨	
١٩٦٧/٩-١٩٦٧/١٢	٣٥٦ر٤	٣٥٢ر٣	٣٥٩ر٣	٧ر٠	
١٩٦٧/١٩٧٤	٣٥٢ر٣	٣٨٤ر٠	٤٤٠ر٩	٥٦ر٩	١ر٢٣
١٩٧٤/١٩٨٣	٣٨٤ر٠	٤٧٦ر٣	٥٠٢ر٧	٢٦ر٤	٢ر٦٩
١٩٦٧/٦- ١٩٨٣	٤٥٢ر٦	٤٧٦ر٣	٧٥٦ر٢	٢٧٩ر٩	٠ر٣٣

المصادر: تقديرات الكاتب بالاستناد الى: Kossaifi 1976, Israel 1983, p. 758; (Israel, 1968, a.) ; pp. 280-284.

ملاحظات : (أ) تم إدخال بيانات القدس الشرقية خلال ١٩٦٧/٦ - ١٩٦٧/٩ و ١٩٦٧/٦ - ١٩٨٣.

(ب) تم تطبيق معدلات النمو السنوية المستخرجة من إسقاط السكان في الضفة الغربية خلال ١٩٦٧/١٩٩٢.

(ج) لقد تم إستبعاد سكان منطقة العريش في كافة المراحل.

(د) تم تقدير حجم سكان القطاع في منتصف ١٩٦٤ بـ ٤١٢ر٣ الفا ومعدل النمو خلال ١٩٦٤/١٩٦٧ بـ ٣ر٢ بالمائة.



الجدول رقم (٤): اسقاط السكان الفلسطينيين المقيمين في الضفة الغربية (باستثناء القدس الشرقية) حسب العمر والجنس ١٩٦٧-١٩٩٢
(الارقام بالآلاف وهي لنهاية العام)

فئات	١٩٦٧			١٩٧٢			١٩٧٧		
العمر	ذكور	اناث	مجموع	ذكور	اناث	مجموع	ذكور	اناث	مجموع
٠ - ٤	٦٢ر١	٥٨ر٢	١٢٠ر٣	٦٩ر٩	٦٦ر٦	١٣٦ر٥	٧٧ر٩	٧٤ر١	١٥٢ر٠
٥ - ٩	٥٢ر٥	٤٨ر٩	١٠١ر٤	٥٩ر٢	٥٥ر٥	١١٤ر٧	٦٧ر٢	٦٤ر٠	١٣١ر٢
١٠-١٤	٤٢ر١	٣٥ر٠	٧٧ر١	٥١ر٧	٤٨ر٢	٩٩ر٩	٥٨ر٥	٥٤ر٨	١١٢ر٢
١٥-١٩	٢٥ر٥	٢٣ر٨	٤٩ر٣	٤١ر٥	٣٤ر٥	٧٦ر٠	٥١ر١	٤٧ر٦	٩٨ر٧
٢٠-٢٤	١٥ر٦	٢٠ر٥	٣٦ر١	٢٥ر٠	٢٣ر٣	٤٨ر٣	٤٠ر٨	٣٣ر٩	٧٤ر٧
٢٥-٢٩	١٣ر٣	١٧ر٤	٣٠ر٧	١٥ر٢	٢٠ر٠	٣٥ر٢	٢٤ر٥	٢٢ر٨	٤٧ر٣
٣٠-٣٤	١١ر٣	١٥ر١	٢٦ر٤	١٢ر٩	١٦ر٩	٢٩ر٨	١٤ر٨	١٩ر٥	٣٤ر٣
٣٥-٣٩	١٠ر١	١٣ر٢	٢٣ر٣	١٠ر٩	١٤ر٦	٢٥ر٥	١٢ر٥	١٦ر٤	٢٨ر٩
٤٠-٤٤	٩ر٠	١١ر٥	٢٠ر٥	٩ر٧	١٢ر٧	٢٢ر٤	١٠ر٥	١٤ر١	٢٤ر٦
٤٥-٤٩	٨ر٢	١٠ر١	١٨ر٣	٨ر٦	١١ر٠	١٩ر٦	٩ر٣	١٢ر١	٢١ر٤
٥٠-٥٤	٧ر٦	٩ر٠	١٦ر٦	٧ر٧	٩ر٥	١٧ر٢	٨ر١	١٠ر٤	١٨ر٥
٥٥-٥٩	٧ر٠	٧ر٩	١٤ر٩	٧ر٠	٨ر٣	١٥ر٣	٧ر١	٨ر٧	١٥ر٨
٦٠-٦٤	٦ر٥	٦ر٧	١٣ر٢	٦ر٢	٦ر٩	١٣ر١	٦ر٢	٧ر٣	١٣ر٥
٦٥-٦٩	٦ر٢	٥ر٩	١٢ر١	٥ر٤	٥ر٦	١١ر٠	٥ر٢	٥ر٨	١١ر٠
٧٠-٧٤	٥ر٩	٥ر٠	١٠ر٩	٤ر٧	٤ر٤	٩ر١	٤ر١	٤ر٣	٨ر٤
٧٤-٧٩	٥ر٠	٤ر٥	٩ر٥	٣ر٩	٣ر٣	٧ر٢	٣ر١	٣ر٠	٦ر١
٨٠ فاكثر	٢ر٨	٢ر٥	٥ر٣	٣ر٧	٣ر٣	٧ر٠	٣ر٥	٣ر٠	٦ر٥
المجموع	٢٩٠ر٧	٢٩٥ر٢	٥٨٥ر٩	٣٤٣ر٢	٣٤٤ر٥	٦٨٧ر٧	٤٠٤ر٤	٤٠١ر٨	٨٠٦ر٢

الجدول رقم (٤): (تابع)

فئات	١٩٨٢			١٩٨٧			١٩٩٢		
العمر	ذكور	اناث	مجموع	ذكور	اناث	مجموع	ذكور	اناث	مجموع
٠ - ٤	٩٦ر٦	٩٢ر٠	١٨٨ر٦	١٢١ر٩	١١٦ر١	٢٣٨ر٠	١٤٨ر١	١٤١ر١	٢٨٩ر٢
٥ - ٩	٧٥ر٣	٧١ر٧	١٤٧ر٠	٩٤ر١	٨٩ر٦	١٨٣ر٧	١١٩ر٢	١١٣ر٦	٢٣٢ر٨
١٠-١٤	٦٦ر٥	٦٣ر٤	١٢٩ر٩	٧٤ر٧	٧١ر١	١٤٥ر٨	٩٣ر٤	٨٩ر٠	١٨٢ر٤
١٥-١٩	٥٧ر٩	٥٤ر٣	١١٢ر٢	٦٦ر٠	٦٢ر٩	١٢٨ر٩	٧٤ر٢	٧٠ر٧	١٤٤ر٩
٢٠-٢٤	٥٠ر٤	٤٦ر٩	٩٧ر٣	٥٧ر٣	٥٣ر٧	١١١ر٠	٦٥ر٤	٦٢ر٣	١٢٧ر٧
٢٥-٢٩	٤٠ر١	٣٣ر٣	٧٣ر٤	٤٩ر٧	٤٦ر٣	٩٦ر٠	٥٦ر٦	٥٣ر٠	١٠٩ر٦
٣٠-٣٤	٢٣ر٩	٢٢ر٣	٤٦ر٢	٣٩ر٤	٣٣ر٨	٧٣ر٢	٤٩ر٠	٤٥ر٦	٩٤ر٦
٣٥-٣٩	١٤ر٤	١٩ر٠	٣٣ر٤	٢٣ر٤	٢١ر٩	٤٥ر٣	٣٨ر٧	٣٢ر٣	٧٠ر٩

الجدول رقم (٤): (تابع)

فئات العمر	١٩٨٢ ذكور	١٩٨٢ اناث	١٩٨٢ مجموع	١٩٨٧ ذكور	١٩٨٧ اناث	١٩٨٧ مجموع	١٩٩٢ ذكور	١٩٩٢ اناث	١٩٩٢ مجموع
٤٠-٤٤	١٢ر١	١٥ر٩	٢٨ر٠	١٤ر١	١٨ر٥	٣٢ر٦	٢٢ر٩	٢١ر٤	٤٤ر٣
٤٥-٤٩	١٠ر١	١٣ر٥	٢٣ر٦	١١ر٨	١٥ر٤	٢٧ر٢	١٣ر٧	١٨ر٠	٣١ر٧
٥٠-٥٤	٨ر٨	١١ر٥	٢٠ر٣	٩ر٧	١٢ر٩	٢٢ر٦	١١ر٣	١٤ر٨	٢٦ر١
٥٥-٥٩	٧ر٥	٩ر٦	١٧ر١	٨ر٣	١٠ر٨	١٩ر١	٩ر١	١٢ر٢	٢١ر٣
٦٠-٦٤	٦ر٤	٧ر٨	١٤ر٢	٦ر٨	٨ر٧	١٥ر٥	٧ر٦	٩ر٩	١٧ر٥
٦٥-٦٩	٥ر٣	٦ر٢	١١ر٥	٥ر٥	٦ر٨	١٢ر٣	٥ر٩	٧ر٦	١٣ر٥
٧٠-٧٤	٤ر٠	٤ر٦	٨ر٦	٤ر٢	٤ر٩	٩ر١	٤ر٤	٥ر٤	٩ر٨
٧٤-٧٩	٢ر٨	٢ر٩	٥ر٧	٢ر٨	٣ر٢	٦ر٠	٣ر٠	٢ر٥	٦ر٥
٨٠ فاكثر	٣ر١	٢ر٨	٥ر٩	٢ر٩	٢ر٨	٥ر٧	٢ر٩	٣ر٠	٥ر٩
المجموع	٤٨٥ر٢	٤٧٧ر٧	٩٦٢ر٩	٥٩٢ر٦	٥٧٨ر٤	١١٧١ر٠	٧٢٥ر٤	٧٠٣ر٣	١٤٢٨ر٧

المصدر: حسابات الكاتب.
ملاحظات: تم تصحيح هرم الاعمار الذي وفره التعداد الاسرائيلي في عام ١٩٦٧ على الشكل التالي:
(أ) تصحيح فئتي العمر: صفر - ٤ و ٥ - ٩ من خلال حساب المواليد خلال الفترتين ١٩٥٧/١٩٦٧ و١٩٦٢/١٩٦٧، (٤٧٦ ٦٥ بدل ٩٨٨ ٥٥ و٤٨١ ٦٢ بدل ١٦٦ ٥١ للذكور والاناث على التوالي في الفئة العمرية : صفر - ٤، و ٣٤١ ٥٥ بدل ٩٧٢ ٥١ و ٥٢٩ ٥٣ بدل ٨٨٥ ٤٦ للذكور والاناث على التوالي في الفئة العمرية ٥ - ٩).
(ب) تصحيح الفئات ٢٥ عاما فاكثر باستخدام التمهيد باليد.
(ج) توزيع فئة «غير مبين» حسب النسب العمرية.



□ منزل عربي في بير سبع، تحول إلى صيدلية يهودية.

الجدول رقم(٥): توقع الحياة عند الولادة ومؤشرات الخصوبة المتوقعة للفلسطينيين خلال ١٩٦٧/١٩٩٢

فئة العمر	١٩٦٧/٧٢	١٩٧٢/٧٧	١٩٧٧/٨٢	١٩٨٢/٨٧	١٩٨٧/٩٢
معدلات الخصوبة حسب العمر(أ)					
١٥ - ١٩	١٠٨	٩٨	٩٤	٩٢	٨٩
٢٠ - ٢٤	٣٨٩	٣٥٣	٣٣٩	٣٣٠	٣٢١
٢٥ - ٢٩	٤٤٩	٤٠٦	٣٩١	٣٨٠	٣٧٠
٣٠ - ٣٤	٣٦٢	٣٢٨	٣١٥	٣٠٦	٢٩٨
٣٥ - ٣٩	٢٦٦	٢٤١	٢٣٢	٢٢٥	٢١٩
٤٠ - ٤٤	٩٦	٨٧	٨٤	٨٢	٧٩
٤٥ - ٤٩	٢٩	٢٦	٢٥	٢٥	٢٤
معدل الخصوبة الاجمالي(ب)	٨ر٥	٧ر٧	٧ر٤	٧ر٢	٧ر٠
توقع الحياة عند الولادة(ج)	٥٢	٥٦	٥٨	٦١	٦٢

المصدر: تقديرات الكاتب بالاستناد الى Shrydeh 1984, pp. 38-41 and 63-67.

ملاحظات: (أ) معدلات الخصوبة حسب العمر لكل ١٠٠٠ امرأة. وتجدر الاشارة الى انه تم إفتراض ثبات نمط الخصوبة حسب العمر، كما وفرته بيانات مسح الخصوبة العالمي في الاردن عام ١٩٧٦.
(ب) معدل الخصوبة الاجمالي للمرأة الواحدة.
(ج) تم إفتراض نفس توقع الحياة عند الولادة للذكور والاناث.



الجدول رقم (٦): التوزيع المئوي للمهاجرين والمهجرين من الضفة الغربية حسب العمر والجنس، خلال ١٩٦١/١١ - ١٩٦٧/٩

فئة العمر	الذكور	الاناث	المجموع
صفر - ٤	١٥ر٣	١٧ر٦	١٦ر٥
٥ - ٩	١٥ر٢	١٣ر٩	١٤ر٦
١٠-١٤	١٢ر٧	١١ر٦	١٢ر١
١٥-١٩	١٧ر٩	١٦ر٣	١٧ر١
٢٠-٢٤	١٥ر٥	١٢ر٤	١٣ر٩
٢٥-٢٩	٧ر٣	٧ر٩	٧ر٦
٣٠-٣٤	٦ر٢	٥ر٧	٥ر٩
٣٥-٣٩	٣ر٣	٤ر٣	٣ر٨
٤٠-٤٤	٢ر٣	٣ر٦	٢ر٩
٤٥-٤٩	٠ر٩	٢ر٢	١ر٥
٥٠ فاكثر	٣ر٦	٤ر٦	٤ر١
المجموع	١٠٠ر٠	١٠٠ر٠	١٠٠ر٠

المصدر: حسابات الكاتب.

ملاحظة : لقد تم الوصول الى هذه الارقام من خلال إسقاط بيانات تعداد تشرين ثان ١٩٦١ الاردني لغاية ايلول ١٩٦٧، وطرحها من بيانات تعداد ايلول ١٩٦٧ الاسرائيلي، والخاصة بالضفة الغربية (بما فيها القدس الشرقية).

الجدول رقم(٧): المهجرون الفلسطينيون من الضفة الغربية (باستثناء القدس الشرقية) حسب العمر(١)، ١٩٦٧/١٩٧٢، ١٩٦٧/١٩٧٧ و١٩٦٧/١٩٨٢

فئة العمر	١٩٦٧/١٩٧٢		١٩٦٧/١٩٧٧		١٩٦٧/١٩٨١	
	الارقام المطلقة	النسبة المئوية	الارقام المطلقة	النسبة المئوية	الارقام المطلقة	النسبة المئوية
٠ - ٤	٢٤ر٣	٤٥ر٠	٢٣ر١	٢٠ر٩	٥٧ر٩	٢٦ر٩
٥ - ٩	١٣ر٥	٢٥ر٠	٣٠ر٠	٢٧ر٢	٣١ر٢	١٤ر٥
١٠-١٤	٥ر٧	١٠ر٦	١٥ر٤	١٣ر٩	٣٢ر٤	١٥ر٠
١٥-١٩	١ر٧	٣ر١	٨ر٩	٨ر١	٢٠ر٥	٩ر٣
٢٠-٢٤	٧ر٠	١٣ر٠	٩ر٠	٨ر١	٢٠ر٠	٩ر٣
٢٥ فاكثر	١ر٨	٣ر٣	٢٤ر٠	٢١ر٨	٥٣ر٩	٢٥ر٠
المجموع	٥٤ر٠	١٠٠ر٠	١١٠ر٤	١٠٠ر٠	٢١٥ر٤	١٠٠ر٠

المصدر: حسابات الكاتب.

ملاحظة : (١) لقد تم طرح حجم السكان المسقط حسب العمر، من توزيع السكان حسب العمر كما ورد في الاحصاءات الاسرائيلية.

الجدول رقم (٨): التوزيع المئوي حسب العمر والجنس للفلسطينيين/ الاردنيين في الكويت خلال ١٩٥٧/١٩٧٠[أ] وفي مجموع دول مجلس التعاون الخليجي ١٩٧٥[ب]

فئة العمر	الكويت			الامارات العربية المتحدة	العربية السعودية	مجلس التعاون الخليجي
	١٩٥٧	١٩٦٥	١٩٧٠	١٩٧٥	١٩٧٤	١٩٧٥
اقل من ١٥	١٩ر٢	٣٥ر٣	٥٠ر٤	٣٨ر٩	٥٠ر٢	٥١ر٠
١٥-٦٤	٨٠ر٦	٦٤ر٢	٤٨ر٩	٦٠ر٦	٤٨ر٩	٤٨ر٣
٦٥ فاكثر	٠ر٢	٠ر٥	٠ر٧	٠ر٥	٠ر٩	٠ر٨
المجموع	١٠٠ر٠	١٠٠ر٠	١٠٠ر٠	١٠٠ر٠	١٠٠ر٠	١٠٠ر٠
معدل الجنس	٣١١ر٥	١٧٧ر٩	١١٨ر٠	١٦٤ر٥	١١٩ر٧	١١٨ر٦

المصادر: تقديرات الكاتب بالاستناد الى التعدادات الرسمية، Kossaifi, unpublished, Table 2.

ملاحظات: (أ) لم تنشر الكويت بعد تعداد ١٩٧٠ الجنسيات مفصلة حسب فئات العمر الخمسية.

(ب) تشير بيانات بعض المسوحات والتعدادات التي أجريت في اقطار الخليج، مع بداية الثمانينات، الى فتوة التركيب العمري والجنسي للفلسطينيين/الاردنيين، اذ لم تتدن نسبة الاولاد دون الخامسة عشرة عن ٤٥ بالمائة من المجموع. كما أن معدل الجنس تراوح بين ١٣٠ و١٤٠ بالمائة.



□ مصادرة محلات عربية.

الجدول رقم (٩): التوزيع المئوي للفلسطينيين/الاردنيين (١٠ سنوات فاكثر) في دول مجلس التعاون الخليجي حسب المستوى التعليمي والجنس، ١٩٧٥[١]

المستوى التعليمي	مجلس التعاون الخليجي			الامارات العربية المتحدة	الكويت	العربية السعودية
	ذكور	اناث	جملة	١٩٧٥	١٩٧٠	١٩٧٤
امي	٩ر٥	١ر٢٧	٣ر١٥	٤ر٥	٤ر١٧	٥ر١٢
ملم	٣ر٢٦	٣ر٢١	١ر٢٤			
ابتدائي	٤ر١٨	٩ر١٩	٠ر١٩	٣ر٤٧	٦ر٦٢	٦ر٥٠
اعدادي	٨ر١٤	٨ر١٣	٣ر١٤			
ثانوي ودون الجامعي	٩ر٢٢	٠ر١٦	٨ر١٩	٣ر١٧	٩ر١٥	٨ر٢٣
جامعي فاعلى	٣ر١١	٥ر١	٠ر٧	١ر٢٥	٩ر٣	١ر١٣
غير مبين	٤ر٠	٢ر٠	٣ر٠	٩ر٤	٢ر٠	٠ر١
المجموع	٠ر١٠٠	٠ر١٠٠	٠ر١٠٠	٠ر١٠٠	٠ر١٠٠	٠ر١٠٠

المصادر: تقديرات الكاتب بالاستناد الى التعدادات الرسمية؛ Kossaifi, unpublished, Table 5.

ملاحظة : (١) تفيد بيانات بعض مسوحات وتعدادات دول الخليج ان الفلسطينيين/الاردنيين قد حافظوا في مطلع الثمانينات على الارتفاع النسبي لمستواهم التعليمي اذ ان نسبة الاميين فيهم لم تزد عن ٥ بالمائة في حين لم تنخفض نسبة الثانويين فاعلى عن ٥٠ بالمائة.

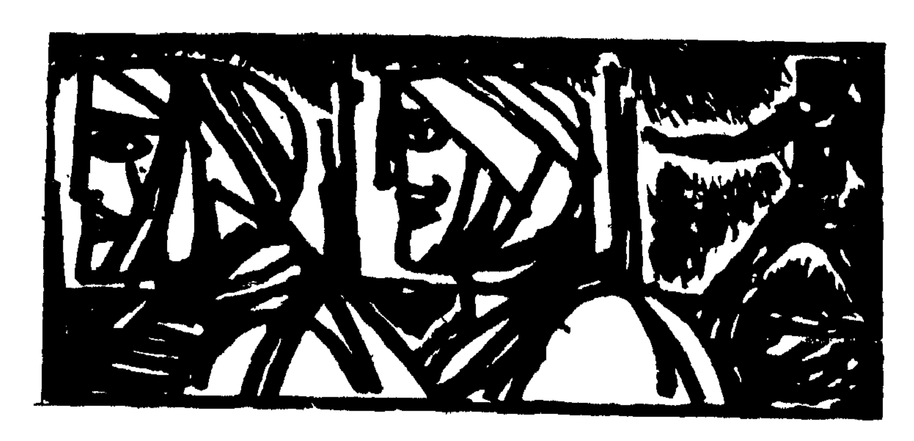


الجدول رقم (١٠): التوزيع المئوي للفلسطينيين/الاردنيين الناشطين اقتصاديا في دول مجلس التعاون الخليجي حسب المهنة والجنس، ١٩٧٥[١]

المهنة	مجلس التعاون الخليجي			الامارات العربية المتحدة	الكويت	العربية السعودية
	ذكور	اناث	جملة	١٩٧٥	١٩٧٥	١٩٧٤
المهنيون والفنيون	٣٠ر٣	٨٠ر١	٣٥ر٢	٣١ر٨	٢٥ر٢	٥٦ر٢
المديرون	٢ر٥	٠ر١	٢ر٢	٥ر٧	١ر٢	٢ر٦
الكتبة	١٥ر٠	٩ر٨	١٤ر٥	٢١ر١	١٧ر٥	٥ر٤
الباعون	٦ر٧	٠ر٧	٦ر١	٥ر٤	٨ر٠	٢ر٨
العاملون بالخدمات	٦ر٢	٦ر٤	٦ر٢	٢ر٧	٨ر٦	٣ر٢
العاملون بالزراعة	٢ر٥	٠ر١	٢ر٣	٠ر٧	١ر٩	٣ر٩
عمال الانتاج والفعلة	٣٦ر٥	٢ر١	٣٣ر٢	٣٠ر١	٣٧ر٦	٢٥ر٩
غير مبين	٠ر٣	٠ر٦	٠ر٣	٢ر٥	-	-
المجموع	١٠٠ر٠	١٠٠ر٠	١٠٠ر٠	١٠٠ر٠	١٠٠ر٠	١٠٠ر٠

المصادر: تقديرات الكاتب بالاستناد الى التعدادات الرسمية؛ Kossaifi, unpublished, Table 7.

ملاحظة: (١) تفيد بيانات بعض مسوحات وتعدادات دول الخليج ان الفلسطينيين/الاردنيين قد حافظوا في مطلع الثمانينات على التوزيع حسب المهن المشار اليها اعلاه، اذ بلغت نسب «المهنيين والفنيين» و«الكتبة» و«عمال الانتاج والفعلة» حوالي ثلث وربع وخمس اجمالي الناشطين على التوالي.



الجدول رقم(١١): الاراضي المصادرة(أ) لغاية ١٩٨٣ في الضفة الغربية وقطاع غزة، حسب السند «القانوني» للمصادرة (آلاف الدونمات)(ب)

السند «القانوني» للمصادرة	الضفة الغربية	قطاع غزة	الملاحظات
أملاك الغائبين	٣٤٠ (بالاضافة الى ١١ الف مبنى)	٨	معظم أملاك الغائبين سلمت لادارتها كما اعطيت مساحة تقدر بحوالي ٢٥-٣٠ الف دونم للمستوطنات الزراعية الاسرائيلية في وادى الاردن.
اراض باسم الحكومة	٧٥٠	٤٠	اراض كانت مسجلة باسم الحكومة الاردنية في حالة الضفة الغربية. اما في حالة القطاع فقد وردت عبارة «من الاراضي الحكومية».
اراض مصادرة لأسباب عسكرية	٣٥		اتبعت اسرائيل هذه السياسة لغاية ١٩٨٠. وتجدر الاشارة الى ان ملكية الارض لا تتغير في هذه الحالة.
اراض مصادرة للتدريب	١١٥٠		اراض تصادر في البداية لاغراض التدريب وتحوّل لاحقا للمستوطنات الاسرائيلية.
اراض عائدة لليهود	٣٠		اراض عائدة لليهود، كانت تديرها السلطات الاردنية قبل ١٩٦٧ ويقع معظمها في منطقة القدس.
اراض مصادرة للمنفعة العامة	....		اراض تصادر لشق الطرقات للمستوطنات وحفر الآبار.

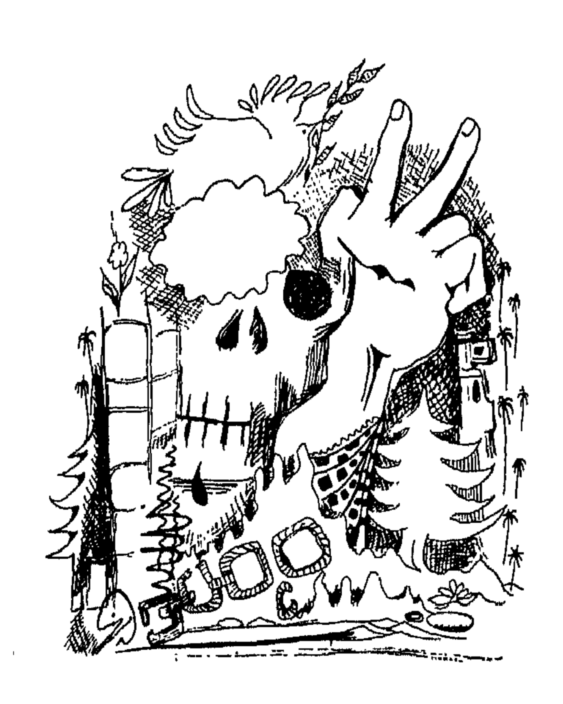
الجدول رقم (١١): (تابع)

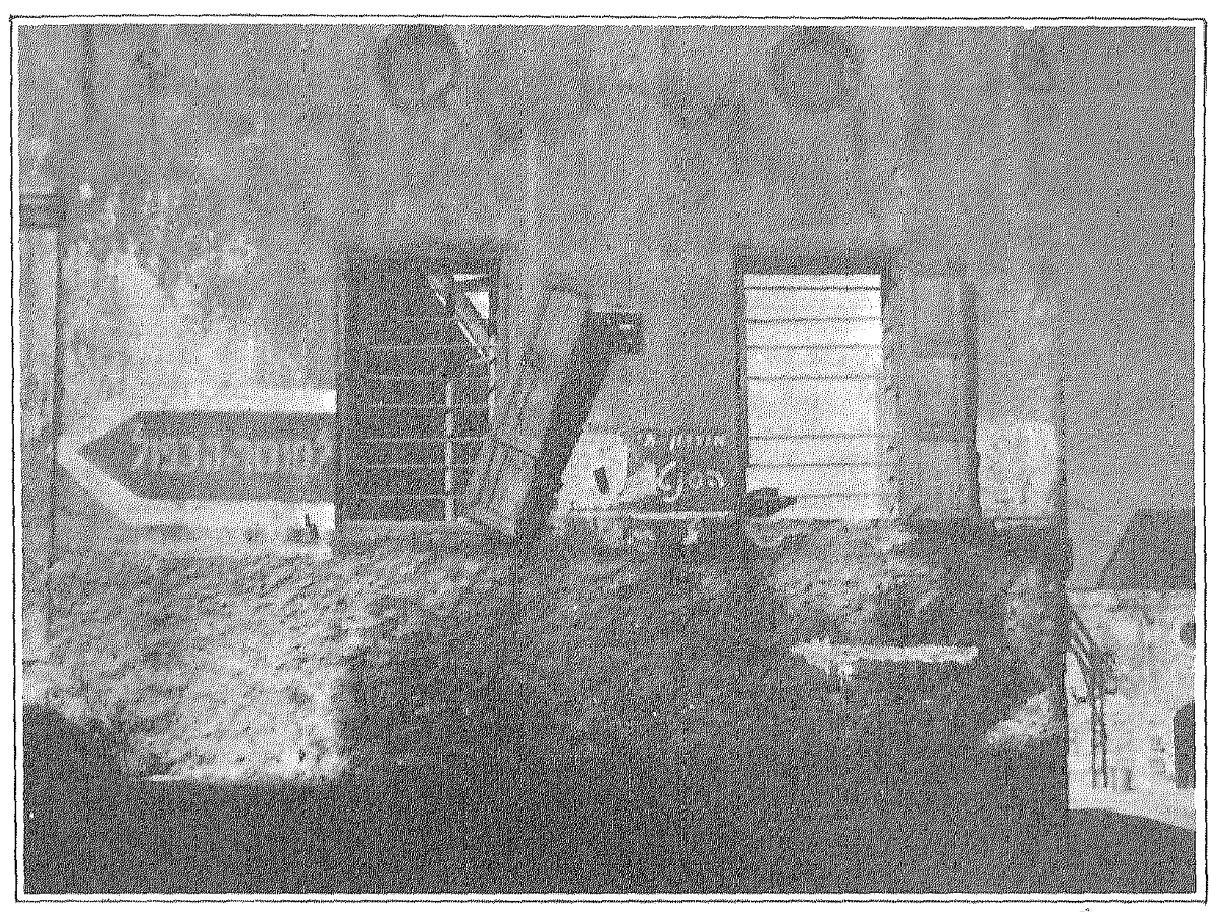
السند «القانوني» للمصادرة	الضفة الغربية	قطاع غزة	الملاحظات
اراض مصادرة باعلانها املاك الدولة	١٠٠٠	٩٣	اخطر «قانون» شرّع لمصادرة الاراضي في ١٩٨٠. ينطلق من «حق» مصادرة الاراضي غير المزروعة اذا لم تكن مسجلة. وقد صدر هذا «القانون» عقب انجاز المسح العقارى في الضفة الغربية عام ١٩٧٨. وبالاستناد اليه تنتفي الصفة المؤقتة للمصادرة وتدخل الاراضي المصادرة باسم الدولة في حكم الثروة القومية الاسرائيلية.

المصادر: Benvensti 1984, pp. 30-36؛ ابو عمرو ١٩٨١، ص.١١.

ملاحظات : (أ) لا تدخل ضمن المساحات المصادرة والواردة هنا، تلك التي فرضت السلطات الاسرائيلية قيودا على استعمالها.

(ب) باختلاف التعاريف المستخدمة لمفهوم «المصادرة» تتراوح المساحة المصادرة من ربع الى ثلثي مساحة الضفة الغربية.





□ كان يوماً، منزل عربـي في حيفا.

الجدول رقم (١٢): الاراضي المصادرة لاغراض استيطان ولاسباب امنية في الضفة الغربية حسب المنطقة، ١٩٧٩ - ١٩٨٣
(المساحة بالدونم)

المنطقة	أيار	آب	نهاية ١٩٨٣
القدس	٩٧ ٨٦٤	٣٧٥ ٩٤٩	٤٤٩ ٩٧٤
رام الله والبيرة	٣٦ ٠٠٠	٧٤ ٢٣٠	٩٥ ١٣٥
الخليل وبيت لحم	١٢٣ ٥٠٠	١٧١ ٥٧٨	٢٢٨ ٦٧٨
نابلس، جنين، وطولكرم	٣٦ ٨٥٠	١٧٧ ٢٣٠	٢٦٢ ٣٠٠
وادى الاردن	٨٣ ٧٠٠	١١٨ ٦٠٠	٢٦٢ ٣٠٠
المجموع	٣٧٦ ٩١٤	٩١٧ ٥٨٧	١ ٢٦٩ ٢٤١

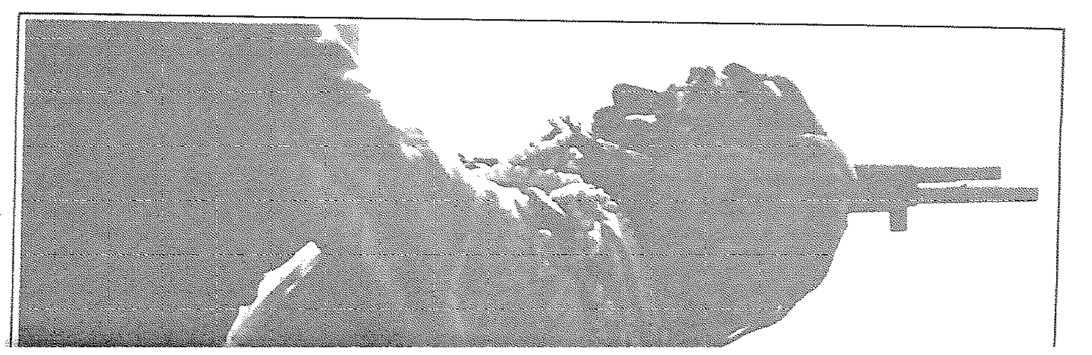
المصدر: Saket, Amerah and Assaf, 1983, p. 22.

الجدول رقم (١٣): المستوطنات والمستوطنون في الضفة الغربية وقطاع غزة، ١٩٧٩ - ١٩٨٣

المنطقة	التقدير الاول: المستوطنات ١٩٧٩	التقدير الاول: المستوطنات ١٩٨٢	التقدير الثاني: المستوطنات ١٩٨٣	التقدير الثاني: المستوطنون ١٩٨٣	التقدير الثالث: النمط	التقدير الثالث: العدد	التقدير الثالث: وحدات سكنية ١٩٨٣	التقدير الثالث: أسر	التقدير الثالث: مستوطنون
رام الله والبيرة	١٤	١٨							
الخليل وبيت لحم	١٣	٣١			حضر	١٨	٨ ٨٠٨	٣ ٩١١	٣٧ ٥٠٠ (ب)
نابلس، جنين، طولكرم	١٨	٥٠			ريف/شبه حضر	٦٥	٣ ٤٧٨	٣ ١٤٤	
وادي الاردن	٢٠	٣٣			عسكرية	١٥	١٤١	٧٥	
الضفة باستثناء القدس	٦٥	١٢٣			الضفة باستثناء القدس	٩٨	١٢ ٤٢٧	٥ ١٢٠ (أ)	٣٧ ٥٠٠ (ب)
منطقة القدس	١٨	٣١	١٢	٩٠ الى ١٠٠ الف					
مجموع الضفة الغربية	٨٣	١٥٣	١٥٠	١٢٥ الف					
مجموع غزة	-	-	١٢	١ الف	مجموع غزة	٨	٣٠٤	٣٠٠	٩٠٠

المصادر: التقدير الاول: Saket, Amerah and Assaf, 1983, p. 22.
التقدير الثاني: Laipson, 1983, pp. 3-4.
التقدير الثالث: Benvensti, 1984, p. 50 and 61.

ملاحظات : (أ) تعود هذه البيانات لعام ١٩٨٢، علما ان مجموع الأسر في ١٩٨٣ كان قد بلغ ٥٠٠ ٦ أسرة.
(ب) سيرتفع عدد المستوطنين في الضفة الغربية والقدس، حسب هذا التقدير من ٤٠ الفا في ١٩٨٤ الى ٩٠ الفا في ١٩٨٨ الى ١١٥ الفا في ١٩٩٠، ويشير التقدير الثاني، بالاستناد الى خطة الاستيطان التي وافقت عليها الحكومة الاسرائيلية، الى ان عدد المستوطنات سيصل الى ١٦٥ في عام ١٩٨٨ كما ان حجم المستوطنين سيصل الى ١٠٠ الفا في الضفة الغربية باستثناء القدس.



□ «سجّل انا عربي،
انا اسم دون عنوان
راسخٌ في عالم مسعور»

محمود درويش

الجدول رقم (١٤): التوزيع المئوي لمخصصات اللجنة الاردنية الفلسطينية المشتركة حسب القطاعات خلال ١٩٧٩ - ١٩٨٣

القطاع	المخصصات (بالمائة)
التربية والتعليم	٣١٫٠
الإسكان	١٩٫٠
المجالس البلدية	١٨٫٠
التنمية الاجتماعية	٨٫٤
الكهرباء	٥٫٣
المناعة	٥٫٣
الزراعة	٩٫٠
قطاعات اخرى (أ)	١٤٫٠
مجموع المخصصات	٣٩٠ ٥١٩ ١٢٥ (ب)

المصدر: بسيسو ١٩٨٤، ص. ١٥.

ملاحظات: (أ) تدخل ضمن هذه الفئة، المياه، النقل والمواصلات، الصحة، الاوقاف والمقدسات...الخ.

(ب) بالدينار الاردني، وتجدر الاشارة الى ان نسبة التسديد من مجموع الدول المساهمة بلغت ٦٨٫٨ بالمائة خلال الفترة المذكورة.

الهوامش

(١) تقدر منظمة التحرير الفلسطينية حجم الفلسطينيين، في عام ١٩٨١ بحوالي ٤,٥٦٦,٠٠٠. وبافتراض معدل للنمو السنوي ٣,٥ بالمائة نصل إلى الرقم أعلاه.

(٢) هنالك ثلاثة مصادر إسرائيلية خاصة بإحصاءات الأراضي المحتلة. المصدر الاول ويمثله المكتب المركزي للاحصاء والذي يصدر تقديرات السكان الجارية، والمصدر الثاني «سجل عدد السكان» ويصدر عن وزارات الداخلية. والمصدر الثالث هو الحاكم العسكري. وتختلف تقديرات السكان بحسب هذه المصادر، ففي حين قدر المكتب المركزي للاحصاء حجم السكان في الضفة الغربية في نهاية ١٩٨٠ بـ ٧٠٤ آلاف، قدرته وزارة الداخلية بـ ٨٨٧ الفاً والحاكم العسكري بـ ٧٥٠ الفاً (Benvensti 1984).

(٣) أورد (أبو عمرو ١٩٨١، ص ٥) تقديراً آخر للمهجرين من القطاع بلغ ٧٠ الفاً خلال حزيران / كانون الأول ١٩٦٧.

(٤) تشير الاحصاءات الأسرائيلية إلى أن حجم العاملين من الضفة الغربية في الاقتصاد الاسرائيلي قد ارتفع من حوالي ١٥ الفاً في ١٩٧٠ إلى اقصاه، ٤٢ الفاً في ١٩٧٤، ليعود فينخفض إلى ٣٥ الفاً في ١٩٧٧ ويرتفع من ثم إلى ٣٨ الفاً في ١٩٨٠. أما حجم العاملين من قطاع غزة فقد كان في ارتفاع مستمر إذ بلغ ٦ آلاف، ٢٦ الفاً، ٢٧ الفاً و ٣٣ الفاً على التوالي (منصور ١٩٨٤).

(٥) راجع الملحق (الجدولين ٤ و ٥)، للاطلاع على مؤشرات الخصوبة والوفاة المستخدمة، وعلى تقنية تصحيح هرم الاعمار الذي وفرته الاحصاءات الاسرائيلية في نهاية ١٩٦٧.

(٦) ستتم الاشارة لاحقاً إلى هذه الدراسة على النحو التالي «الضفة الغربية ــ دراسة غير منشورة».

(٧) ورد في تعداد الأردن ١٩٦١ أنه من أصل ٦٢٨٦٣ اردنيا في الخارج، كان ٨٠ بالمائة منهم يقطن في الضفة الغربية.

ولا نخال أن هذه النسبة قد تبدلت كثيراً بعد هذا التاريخ، خاصة إذا ما أخذنا بعين الاعتبار مهجري الضفة الغربية الذين كانوا ينتقلون إلى الضفة الشرقية، كمحطة أولى قبل انتقالهم إلى إحدى دول الخليج.

(٨) جاء في معرض تحليل معدلات الجنس حسب العمر التي وفرتها الاحصاءات الأردنية في ١٩٦١ (التعداد) و ١٩٧١ (المسح المتعدد الأغراض) ما يلي: «يمكن إيعاز نقص الذكور المتبين في فئة العمر ١٥ ــ ٤٩ إلى نتائج حرب فلسطين وخاصة بعد ١٩٣٦ وإلى هجرة الذكور. وتجدر الاشارة إلى أن هذا النقص كان أكثر بروزاً في عام ١٩٧١ مما يعكس اشتداد تيار هجرة الذكور بعد ١٩٦١» (Kossaifi, 1976).

(٩) في دراسة «الضفة الغربية ــ دراسة غير منشورة» أجريت عام ١٩٨٣ في الضفة يتبين أن نسبة الأولاد إلى مجموع المهجرين كان قد بلغ ٢٧ بالمائة. ونعتقد أن الفرق مع تقديرنا المذكور أعلاه، يعود إلى أن الدراسة توجهت أصلاً إلى المقيمين في الضفة لتسألهم عن ذويهم المقيمين في الخارج. أما الأسر التي هجرت بكامل أفرادها إلى الخارج فلم تجمع عنها البيانات. ومن الطبيعي أن يكون هرم اعمار هذه الأسر مختلفاً عن هرم اعمار مجموعة الأفراد الذين ما زالت أسرهم تقيم داخل الضفة، بمعنى أن نسبة الأولاد في المجموعة الأولى هي أعلى من نسبتهم في المجموعة الثانية. على كل تجدر الاشارة أن نسبة ٢٧ بالمائة الواردة في دراسة «الضفة غير المنشورة»، هي نسبة مرتفعة إلى حد ما ويمكن أن تعكس جزئياً تهجير الأسر (قارن مثلاً مع نسبة الأولاد اليمنيين دون الخامسة عشرة، إلى مجموع اليمنيين المهاجرين والتي بلغت ١١,٤ بالمائة في الامارات العربية المتحدة سنة ١٩٧٥ و ١٩,٢ بالمائة في الكويت سنة ١٩٧٠ و ٢٣,٤ بالمائة في العربية السعودية منذ ١٩٧٤ (Nations, ECWA, United, 1982).

(١٠) نعتقد أن هذه النسبة مضخمة كما أن نسبة الأميين متدنية.

(١١) باختلاف المفهوم «القانوني» للمصادرة تراوحت المساحة المصادرة في الضفة من الربع إلى الثلثين، راجع الجدول رقم ١١.

(١٢) مع احتلال الضفة الغربية في ١٩٦٧، لم يكن قد تم بعد مسح وتسجيل حوالي ثلث الضفة الغربية.

(١٣) تشير بعض البيانات الخاصة بانفاق المنظمة الصهيونية العالمية على المستوطنات الريفية وشبه الحضرية التي تشرف عليها، «إلى الارتفاع الكبير الذي حصل مع مجيء الليكود. فمن مجموع بلغ ٢٣١ مليون دولار أمريكي خلال فترة العشر سنوات (١٩٧٤ ــ ١٩٨٣)، تم انفاق ٢٠٥,٣ مليون (٨٨,٧ بالمائة) خلال الفترة الممتدة من ١٩٧٨ إلى ١٩٨٣» (Benvensti, 1984).

(١٤) لمزيد من التفصيل حول طرق ووسائل دعم الصناعة راجع (منصور ١٩٨٤).

المراجع بالعربية

ابو عمرو، زياد. ١٩٨١ «الهجرة من قطاع غزة، الدوافع الاقتصادية والاجتماعية»، جامعة جورجتاون، واشنطن. مركز الدراسات الريفية، جامعة النجاح الوطنية، نابلس.

الاردن، دائرة الاحصاءات العامة. ١٩٦١. أول تعداد للسكان والمساكن، ١٩ تشرين الثاني ١٩٦١.

بسيسو، فؤاد. ١٩٨٤ «استراتيجية دعم الصمود الوطني في الأرض المحتلة، الاطار العلمي والتطبيقي» صامد الاقتصادي، السنة السادسة، العدد ٤٩، أيار ــ حزيران.

منصور، انطوان. ١٩٨٤ «اقتصاديات الصمود». المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت.

منظمة التحرير الفلسطينية، الدائرة الاقتصادية، المكتب المركزي للاحصاء. ١٩٨٢. «المجموعة الاحصائية الفلسطينية ١٩٨٢». العدد الرابع.

المراجع الأجنبية

Benvensti, Meron. 1984. The West Bank Data Project. A Survey of Israili's Policies. American Enterprise Institute for Public Policy Research, Washington and London.

Israel, Central Bureau of Statistics, 1983. Statistical Abstract of Israel.

——, ——, 1986. West Bank of Jordan, Gaza Strip and Northern Sinai, Golan Heights. Data from full enumeration, Jerusalem, 1968.

——, ——, 1968. Census of Population and Housing. East Jerusalem, Jerusalem, 1968.

Jordan, United States Technical Co-operation Service for Jordan. 1953. 1952 Census of Housing; Statistics for Administrative Divisions and principal towns. Amman, pp. 34.

Kossaifi, George. 1976. Contribution a l'Etude Demographique de la Population Palestinienne (these de Doctorat de 3 em Cycle Universite Paris I, Pantheon-Sorbonne, Institut de Demographic. Paris, Octobre 1976).

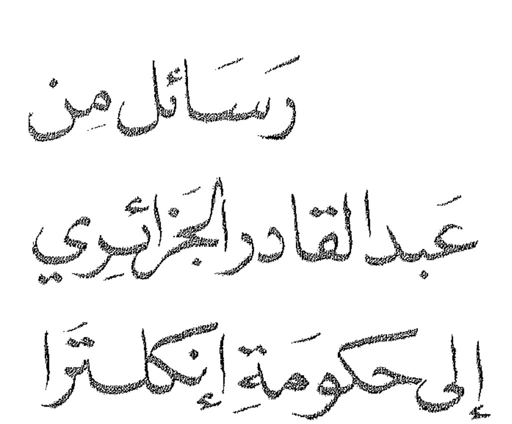
——, ——, Some Socio-Demographic Characteristics of the Jordano-Palestinian Population in the Gulf States (unpublished).

Laipson, Ellen. 1983. Israeli Settlement in the Occupied Territories: Israeli, Arab and American Perspectives. Congressional Research Service, Report No. 83-189f, September 30.

Saket, Bassam, Amerah Mohemmand and Assaf Ghazi. 1983. The Occupation Israeli Colonization of Arab Land. Revised Edition, January 1983.

Shrydeh, Borhan. 1984. Population Situation in Jordan. March.





إعداد : شذا عدرة



□ عبدالقادر الجزائري.

المرجع: د. عبدالجليل التميمي، بحوث ووثائق في التاريخ المغربي من ١٨١٦ إلى ١٨٧١، الدار التونسية للنشر، الطبعة الأولى مارس ١٩٧٢.

اقدمت فرنسا في عام ١٨٣٠م على غزو بلاد الجزائر وقد تمكنت من الاستيلاء على مدينة الجزائر في الخامس من تموز / يوليو من العام نفسه. أمّا بقية أجزاء البلاد، فلم تخضع للغزاة بل انبرى الجزائريون لمقاومتهم بزعامة الأمير عبدالقادر بن محيي‌الدين. الذي تولى القيادة طيلة خمس عشرة سنة، من عام ١٨٣٢ حتى عام ١٨٤٧م، أحرز خلالها انتصارات عديدة على المحتل الغاصب.

وقد وقّعت فرنسا، وهي في حالة حرب مع الأمير عبدالقادر الجزائري، معاهدتين، الأولى، معاهدة دي ميشيل في ٢٦ شباط / فبراير ١٨٣٤، وقد اعترف بموجبها الجنرال الفرنسي دي ميشيل، بسيادة الأمير ومنحه امتيازاً تجارياً في أرزيف وقدم له الأسلحة.

والثانية، هي معاهدة التافنه، ٣٠ أيار / مايو ١٨٣٧، اعترف فيها الموفد الفرنسي، بيجو، لعبدالقادر بالسيادة على ثلثي الجزائر ابتغاء الصلح معه ولكن لم يُكتب لهاتين المعاهدتين الدوام، إذ سرعان ما تراجعت فرنسا عن مواقفها الايجابية ولم تعد تعترف بما تعهّدت به للأمير عبدالقادر. الذي نجده بدوره يعاملها بالمثل، وبالتالي يحاول التقرب من انجلترا، عدوة فرنسا التقليدية. فأرسل إليها عدداً من الرسائل: أحدها إلى قنصل انجلترا في طنجة، وأخرى إلى الحكومة الانجليزية، والثالثة إلى رئيس وزراء بريطانيا. وفيما يلي نصوص تلك الرسائل.

الوثيقة رقم ١

الحمد لله وحده[١]   صلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله

من أمير المؤمنين سلطان النواحي الجزائرية والوهرانية والتلمسانية إلى طاعة افريقية، مولانا السيد الحاج عبدالقادر ابن مولانا السيد الحاج محيي‌الدين، نصره الله، آمين، إلى قونصو (كذا) الانكليز، القاطن بتيطوان (كذا)، السلامعلى من اتبع الحق ورحمة الله، وبعد:
الله، وبعد:

فلا يخفى عليك أننا كنا تعاقدنا مع جنس الفرنصيص عقداً وثيقاً، وتعاهدنا في الصلح والمهادنة على شروط منا ومنهم، ووفينا لهم بجميع ما اشترطوه من مسواقهم (كذا)، وبقينا على تمام الكلمة نحواً من سنة ثم ابتدوا (كذا) التخليط والتبليس (كذا) والخدعة، فخادعوا مراراً، بنقض الميثاق. ولم تختلف كلمتنا معهم في شيء؛ إلى أن أدى بهم عماهم وطغيانهم لجمع جيوشهم، وقوة حروبهم وخرجوا كفرناً[٢] (كذا) غير مظهرين الشر، ووكيلنا عندهم، وقونصهم (كذا) عندنا، وجيوشنا متفرقة، بحيث شرع في نهب الحب. وعلمنا منه قصد الشر، خرجنا للغاية بما حضر من جنودنا، ولاقيناه فنصرنا الله عليه. وصار به ما بلغك من الخذلان والذل والقتل، لما أتى به من الغدر والمخادعة. ولأن (كذا) سمعنا أن جنسكم من بيوت الملوك وأن كلمة ريكم[٣] وافية، وأنه لا غدر فيه ولا خداع بعد العقد والميثاق.

فبعثنا لكم مكتوباً ترسله له صحبة مكتوبك، ولما (كذا) يأتيك الجواب تبعثه لنا ومضمن (كذا) ما في المكتوب أنكم إذا أردتم المزية الظاهرة التي تفوزون بها على كل الجنوس، وتمتازون بها عن غيركم، تلاقوننا في أي مرسى تريدونها (كذا) من مراسي الجزائر، إلى طاعة مولانا أمير المؤمنين، عبدالرحمن، نصره الله، ونلتزم لكم من جانب البر أفضل ما التزمنا قبل الفرنصيص. وننزلكم في منزلة أعلا (كذا) من منزلهم (كذا)، لكونهم خادعين. وأنتم لم تبلغنا عنكم خدعة ولا شك أنكم لو أردتم منا هذا، يحصل من الالفة والمودة بيننا وبينكم ما يسركم ويقويكم ويرفعكم على ساير (كذا) الأجناس. وها هو صاحبنا رجل كيس، فاضل، ذو سياسة وعقل، يصلك بمكتوبين، فاستوصى به، وجد له (كذا) في قضاء ما يريده من مصالحنا، وتكون لك حرمة كبيرة بسبب معرفتك معنا، وتعزم بالبحث على رد الجواب من عندك ومن عند الري.

٢٩ جمادي الأولى ١٢٥١[٤] بأمر مولانا أمير المؤمنين، نصره الله، آمين.

(١) F.O. 52/40: نسخة من رسالة عبدالقادر إلى قنصل انفلترا بطنجة.
(٢) يبدو انها من الكلمة الفرنسية (Gouverneur) أي الوالي الفرنسي الذي يدير البلاد.
(٣) هي الكلمة الفرنسية (Roi) أي ملككم.
(٤) ٢٢ أيلول / سبتمبر ١٨٣٥.

الوثيقة رقم ٢

الحمد لله وحده[١] **صلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله**

من أمير المؤمنين بالنواحي الوهرانية والجزائرية وما والاها إلى طاعة تونس مولانا السيد عبدالقادر ابن مولانا السيد الحاج محيي الدين، نصره الله، آمين، إلى عظيم الجيوش الانجليزية، ريهم الأكبر، ورئيس ملوكهم الأفخر، السلام على من اتبع رضى الحق، وبعد:

فإننا كنا تعاقدنا مع كبير الفرنصيص على الصلح والمهادنة[٢]، وتعاهدنا بمواثيق على شرط اشترطناها وقبلوها، وأمور اشترطوها فقبلناها. وحصلت (كذا) أمن الطرق والأسواق بيننا وبينهم، حتى صار الواحد منهم يمشي في طاعتنا بالليل والنهار ولا يخشى بأساً وتآلفنا في قضاء المصالح منا ومنهم، وبقينا على ذلك مدة من عام. ثم شرعوا في الخداع والغدر ونقض العهود مرة بعد مرة. ونحن واقفون عند الكلمة، ما قدرنا نجتازها، ولا نخلف عقودنا، إلى أن جمعوا جيوشهم وقوة حربهم وقونصهم (كذا)[٣] عندنا، ووكيلنا عندهم. وجيوشنا متفرقة. فقطع من بلادنا ثلاثة مراحل، ولاقيناه بما حضر من الجيوش، فنصرنا الله عليه وكان أمره ما بلغكم.

واليوم تحققنا من أخبار الذين خالطوكم، أنكم أهل ميثاق وكلمة وافية، وأنكم من بيوت الملوك، فإن أردتم المصلحة العامة وتكون لكم المودة زيادة على الفرنصيص، نتفق معكم على التسوق في أي مرسى أردتم، من مراسي الجزائر، إلى طاعة مولانا أمير المؤمنين عبدالرحمن، نصره الله. وإنا ملتزمون لكم من جانب البر بما تريدون، لأنا لم نسمع عنكم خدعة. ونرجو أن تكون لك مزية فينا، ورفعة على ساير (كذا) الجنوس. وترد الجواب لقونصك[٤] (كذا) وهو يبعثه لنا.

٢٩ جمادي الأولى ١٢٥١[٥]

ختم الأمير في أعلى الرسالة دون إمضائه

(١) F.O. 52/40: رسالة من عبدالقادر إلى الحكومة الانفليزية، انظر الشكل رقم ٢٧، ص ٢١٦ ـــ ٢١٧.
(٢) هي معاهدة ديمشال المعقودة بتاريخ ٢٦ شباط / فبراير ١٨٣٤.
(٣) قنصلهم.
(٤) أي القنصل.
(٥) ٢٢ أيلول / سبتمبر ١٨٣٥.

الوثيقة رقم ٣

عن إذن مولانا[١] أمير المؤمنين، سيدنا الحاج عبدالقادر، نصره الله، آمين، إلى الوزير الأعظم في دولة الانكليز، المدبر لأمرهم، المتصرف في جميع ما يصلح بهم وبأحوالهم، جلت أو قلت، المنسطر[٢] الكبير بالدولة المذكورة، السلام على من اتبع الهدى، أما بعد:

فإن الغرض الموجب لهذا الكتاب، أنك ذو رأي سديد، وعقل متسع مديد، وأيضاً بلغنا على لسان الكوازيط[٣] أن كبراء الانكليز أشفقوا من حالنا ونالوا الكلام في شأننا، وقالوا، إن الفرانصيص ظلم العرب وأضربهم. ولا بد أن تكلموا (كذا) في أمرهم. وبلغنا أيضاً أنهم قالوا، إذا احتاج الأمير عبدالقادر إلى دراهم أو سلاح أو غير ذلك (كذا) نسلف له ونبيع له، كل ما يحتاجه.

فلما تأملنا كلامكم هذا، وجدناه كلام العقلا (كذا) المنصفين، الذين يرضون الصلاح ولا يحبون الفساد. وسرنا ما قلتم كثر خيركم وشكر قولكم. وإذا تممتم ربط المحبة بيننا، لا يكون إلا ما تحبون منا، ولا علمنا محبتكم، وأنكم تذكروننا بخير. نحب منكم أن تعلموا فينا مزية كبيرة، وذلك (كذا) أن لنا مكاتب (كذا) إلى اصطنبول، وليس لنا طريق إليها من غيركم. فنحب منكم أن تبعثوها على أيديكم إلى السلطان عبدالمجيد، وأخرى إلى الوزير الأعظم، وأخرى إلى قبطان باشا[٤] وأخرى إلى صاحبنا كاتب رشيد باشا[٥] في اصطنبول. ونحب منكم أن تحرصوا لنا على رد الجواب من عندهم، فإننا عرفنا محبتكم ونصحكم. فلذلك (كذا) جعلناكم واسطة في هذا الأمر. لأننا نقطعوا (كذا) أن مكاتبنا تصل على أيديكم إلى أهلها. ويأتينا جوابها مع (كذا) أيديكم أيضاً، لأن ليس لنا طريق لا في البحر ولا في البر، إلا من عندكم. وكان مرادنا أن نبعث لكم هدية تناسب مقامكم، ولا زلنا عازمين على بعثها إن شاء الله. لكن (كذا) لنا طريق نبعث لكم منها، وتعمل مزية كبيرة إذا حرصت على الكنبانى[٦] الذين أعطيناهم تنس[٧] في علمك، يأتوننا بالعزم وينزلون بها، لكان فيه خير كبير لنا ولكم.

وأما السلطان العصمالي (كذا)، فنحن منه وإليه ونحبكم أنتم تكونوا واسطة بيننا وبينه، وتجعلوه يكون معنا، ويعيننا على الفرانصيص، لأن الأرض له، وله الكلام فيها. وأنتم لكم الكلام معه، ومع غيره في هذا الشأن، ونحب منكم الجواب والله الموفق.

في ٢٥ شوال ١٢٥٧[٨]

في أعلى الرسالة ختم الأمير، دون إمضائه

(١) F.O.، 3/44: رسالة عبدالقادر إلى رئيس الوزراء البريطاني، راجع الشكل رقم ٢٨، ص ٢٢٤ ـــ ٢٢٥.

(٢) (Ministre) أي الوزير.

(٣) الصحف.

(٤) هو منصب وزير البحرية قبل عهد التنظيمات الأولى.

(٥) يقصد بذلك حمدان بن عثمان خوجة: ومن المعلوم أن مصطفى رشيد باشا قد ارتبط بعلاقة طيبة مع حمدان. وقد شجع مصطفى رشيد، حمدان على الالتحاق بمركز الدولة العثمانية وليس من المستبعد أن يحتل حمدان خوجة مكانة مرموقة من نفس مصطفى رشيد باشا، الذي تولى المرار العديدة الصدارة العظمى، وأن يصبح حمدان خوجة سكرتير رشيد باشا. كما توحي به هاته الوثيقة.

راجع: BAYSON Cavid, Cezayir meselesi ve Resid Pasanin Paris Elçiligi (المسألة الجزائرية وسفارة مصطفى رشيد باشا بباريس) المنشورة في: المؤتمر التاريخي الثالث والمنعقد بأنقرة ما بين ١٥ و ٢٠ تشرين الثاني / نوفمبر ١٩٤٣.

III Turk Tarih Kongresi, Ankara, 15-20 novembre 1943.

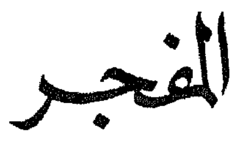
(٦) (Compagnie) أي الشركة.

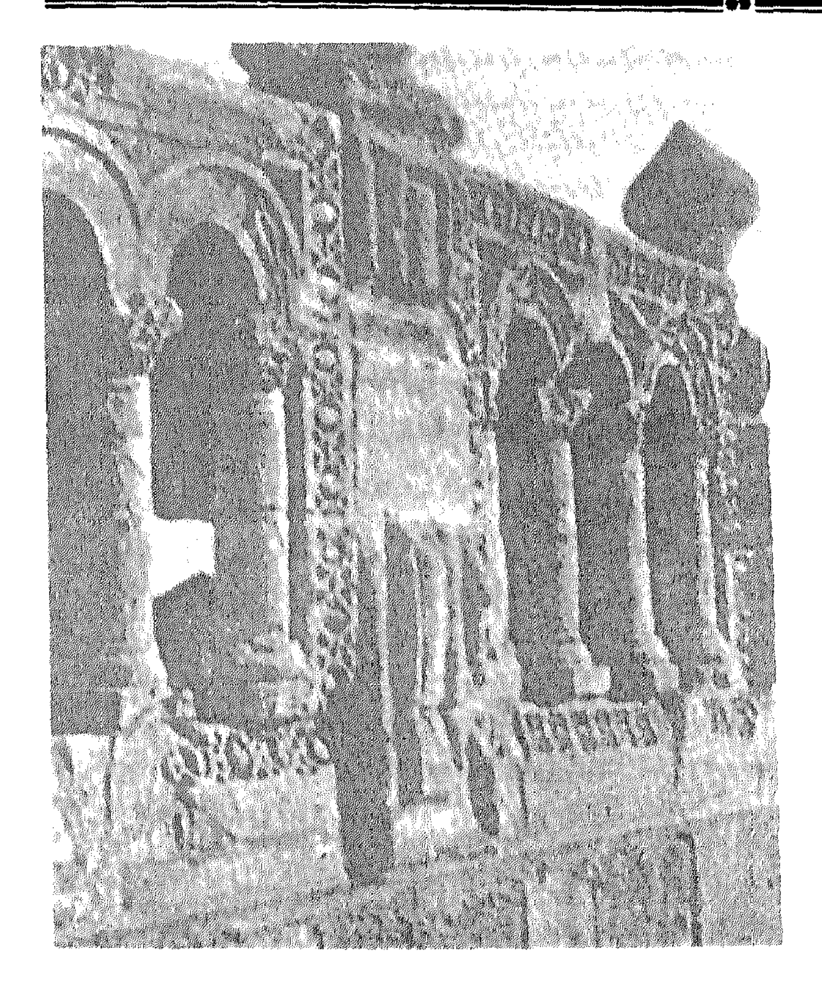
(٧) ميناء مدينة تنس في الساحل الغربي من الجزائر.

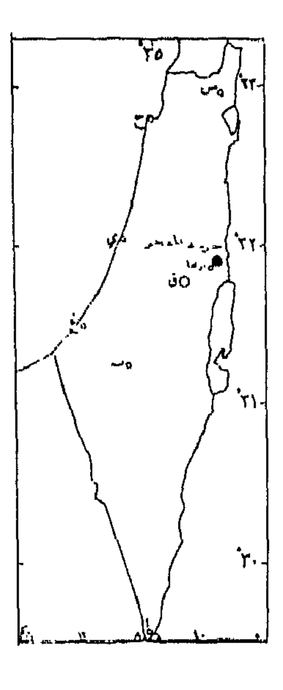
(٨) ١٠ كانون الاول / ديسمبر ١٨٤١.



آثار اسلامية







يستدل من أخبار المؤرخين أن الخلفاء والأمراء الأمويين شيدوا في الفترة الممتدة بين سنة ٩١هـ وسنة ١٣٢هـ في فلسطين والأردن وبادية الشام قصوراً يزيد عددها على ٦٠ قصراً. ولم يعثر حتى اليوم إلا على عشرة منها أشهرها الرصافة، وقصر الحير الغربي، وقُصَيْر عمرة، والمشتى، وقصر الطوبى، وخربة المفجر (ر: العصر الأموي).

وخربة المفجر هي أغنى هذه المواقع الأثرية من حيث كثرة مواد البناء وتنوع الزخارف والتماثيل. وهي أبرز شاهد على النهضة العمرانية في العهد الأموي الذي اتسعت فيه الفتوحات وكثرت الغنائم والأموال وتكشفت المواهب المبدعة التي خلقت حضارة جديدة تمازجت فيها عناصر هلنستية وشرقية — آسيوية تميزت بطابع عربي خاص.

تقع خربة المفجر على بعد كيلومترين إلى الشمال من أريحا. وعندما زار فريق من الجمعية الانكليزية المعروفة باسم «صندوق استكشاف فلسطين» هذا المكان في سنة ١٨٧٣ سمعوا من السكان العرب أن اسمه «جلجال». ولكن الباحث «بلس» الذي أرسلته الجمعية في سنة ١٨٩٤ ليقوم بوصف الخربة علم أنها كانت تسمى خربة النويعمة، وخربة السمراء، وخربة المفجر، وهذا الاسم الأخير هو المستخدم وحده الآن.

وقد كتب بلس مقالاً في نشرة الجمعية أرفقه ببعض الصور من الزخارف الجصية.

ويبدو أن المنظر للخربة كما وصفه بلس

لم يتبدل كثيراً بعد أربعين عاماً عندما قررت دائرة الآثار القديمة في عهد الانتداب البريطاني على فلسطين المباشرة بالحفريات الأثرية في سنة ١٩٣٤. إلا أن بعض أكوام الركام القائمة وسط الخربة وجنوبها كانت قد تقلصت بسبب اقتلاع الحجارة والأعمدة منها بعد الحرب العالمية الأولى لبناء دير الفرنسيسكان في أريحا سنة ١٩٢٧. فقد استخدمت في بنائه أكثر من ٤,٥٠٠ كتلة حجرية اقتلعت من الخربة عدا كثير من الأعمدة والتيجان وألواح المرمر والجص والتماثيل التي كانت تزين مدخل الدير. وقد اعيدت هذه القطع الأثرية بعد بضع سنوات بطلب من دائرة الآثار في فلسطين.

بدأت حفريات التنقيب في عام ١٩٣٤ ـ ١٩٣٥ واستمرت مدة اثني عشر عاماً حتى توقفت في سنة ١٩٤٨ بانتهاء الانتداب البريطاني على فلسطين. وقد قام بالتنقيب الدكتور ديمتري برامكي الذي كان آنذاك مفتشاً وباحثاً في دائرة الآثار. وكان يصف نتائج الحفريات في سلسلة من التقارير التي ظهرت في نشرة دائرة الآثار في فلسطين.

ظهر من الحفريات أن خربة المفجر كانت تُزود بالمياه من ينابيع ثلاثة هي: عين السلطان في موقع أريحا القديمة على بعد كيلومترين. وكانت مياها تستخدم للري. وعين الديوك وعين النويعمة على بعد أربعة كيلومترات. وكانت مياه العينين الأخيرتين تصرف في القصر والحمام والجامع (ر: عيون الماء). ويبدو أن هذه المياه كانت تجمع في بركة قبل أن تسقط بشكل شلال من ارتفاع ٣٠ متر تقريباً لتحريك عدة طواحين مائية ما زالت إحداها قائمة على الطريق الحديثة بين أريحا وبيسان وتعرف باسم طاحونة المفجر. وكذلك يمكن اليوم مشاهدة آثار القناطر التي كانت القنوات ممدودة فوقها لجر المياه.

اشتهرت خربة المفجر باسم «قصر هشام» لأن الدكتور برامكي عثر في حفريات ١٩٣٦ ـ ١٩٣٧ على لوح مكسور من المرمر كتب عليه اسم الخليفة هشام بن عبدالملك. ولكن لا يمكن اعتبار هذا اللوح حجراً أساسياً يقصد منه تسجيل إنشاء البناء. فقد كتبه شخص اسمه عبيدالله بن عمر، وهو غير معروف، وعثر كذلك في المكان على كثير من الألواح والحجارة كتبت عليها أسماء بعض العمال كإسحاق بن محمد وعبدالله بن سليم وكلثوم بن عياض وقسطنطين ويوحنا. والظاهر أن هؤلاء العمال كانوا من سكان البلاد الذين يتكلمون اليونانية والآرامية إلى جانب العربية، وكانوا يتلهون بكتابة مختلف الأسماء وبعض العبارات البذيئة أحياناً.

إن الدراسة الشاملة التي قام بها هاملتون دفعته إلى القول إن الأبنية في خربة المفجر ترجع حقاً إلى عهد هشام بن عبدالملك الذي حكم من سنة ٧٢٤م إلى سنة ٧٤٣م وشيّد عدداً من القصور، ولكن ليس هناك من دليل على أن هذا الخليفة نفسه قد سكن في خربة المفجر. ويذهب هاملتون إلى أن ما رواه المؤرخون عن سيرة هشام بن عبدالملك وما اتصف به من وقار ورزانة وميل إلى الاقتصاد والتقتير، بل إلى البخل، يتنافى كله مع مظاهر البذخ والترف في القصر، ولا سيما في عمارة الحمام وزخارفه وتماثيله ورسومه التي تكشف عن حياة الخلاعة والتهتك. وقد تبين من التدقيق في مراحل البناء أنه قد طرأت تغييرات وتعديلات كثيرة على التصاميم والمخططات الأساسية، ويستنتج هاملتون أن أعمال البناء في خربة المفجر ظلت مستمرة بعد وفاة هشام إلى أن دمرت المباني كلها بالزلزال الذي حدث في سنة ٧٤٦م وهو يرجّح أن القصر والحمام اختص بهما الوليد بن يزيد الذي تولى الخلافة بعد عمه هشام ويروي المؤرخون أغرب القصص عن سيرته وانقطاعه للصيد والشعر والشراب والغناء وانغماسه في الملاهي والملذات، ويذكرون انه كان يسبح في بركة مملوءة خمراً.

ترجع أهمية خربة المفجر إلى وفرة المواد التي عثر عليها فيها. وقد جُمِعت هذه الموادّ في متحف الآثار الفلسطيني، وهي تشمل مختلف مواد البناء من حجارة ومرمر وآجرّ وجصّ وزخارف فسيفسائية، كما تشمل التماثيل الحجرية والجصية والأقواس والأعمدة والتيجان والرسوم الجدارية الملونة. وكشفت الحفريات كذلك عن الأسس التي قامت عليها الأبنية، الأمر الذي يساعد على رسم مخطط للبناء كله ومحاولة إعادة تشكيله.

وإذا كانت هذه الآثار وما زالت تحتاج إلى التصنيف والدرس والتمحيص فإنه يمكن القول إن خربة المفجر تشبه سائر القصور الأموية في تصميمها وعمارتها وأنها أنموذج كامل للمستوى الذي بلغه تطور الفن المعماري في سورية وفلسطين في العهد الأموي. ولا شك في أن هذا الفن اقتبس بعض عناصره من الفن الهلّنستي وبعضها الآخر من الفنون الشرقية ــ الآسيوية. ولكنه تمكّن من تكييفها حسب بيئة البلاد، وتوصّل إلى إبداع أسلوب خاص متميز. ويلاحظ أن المعماريين والفنانين السوريين ــ الفلسطينيين لم يبرزوا في صنع التماثيل البشرية لأن تقاليدهم المتوارثة المتأثرة بالعقائد الدينية كانت لا تحبذ تمثيل الكائنات البشرية فظلوا لا يعرفون شيئاً عن هيكل الانسان وتشريح جسمه وتكوين عضلاته. وهكذا تبدو التماثيل البشرية القليلة المنحوتة من الحجر، أو المحفورة في الجص، التي عثر عليها في خربة المفجر بعيدة عن التناسب والتناسق والانسجام ولا تعبر عن الصورة الواقعية. وعلى العكس من ذلك كانت تماثيل الخيول وغيرها من الحيوانات.

أما الناحية التي برهن فيها الفنانون والصنّاع السوريون ــ الفلسطينيون على مقدرة كبيرة ومهارة فائقة فهي الزخرفة. فقد عثر في خربة المفجر على عدد كبير جداً من النقوش النباتية والأشكال الهندسية المتنوعة التي تمتاز كلها بدقة الصناعة ورشاقة الخطوط والحياة المتحركة النابضة.

ولا بد من الاعتراف بأن المعماريين والصنّاع من سكان البلاد الأصليين الذين شيدوا مجموعة الابنية في خربة المفجر استطاعوا أن يلائموا بين التقاليد الفنية المتوارثة في سورية وفلسطين ورغبات الأمراء الأمويين وحاجات مجتمعهم الجديد المندفع وراء الغرائب المتحمس للرياضة والفروسية المحب لروائع الجمال وآيات البديع.

وعلى الرغم من أن التنقيبات لم تنته بعد فقد تبين أن خربة المفجر كانت تضم ثلاثة ابنية هي القصر والمسجد والحمّام. وقد وصفها المنقّب ديمتري برامكي وصفاً دقيقاً هذا نصه:

«يحتوي المكان على صحن أمامي يؤدي من الجهة الغربية إلى ثلاثة مبان، البناء الأول قصر الخليفة، والبناء الثاني حمّام، والبناء الثالث مسجد .

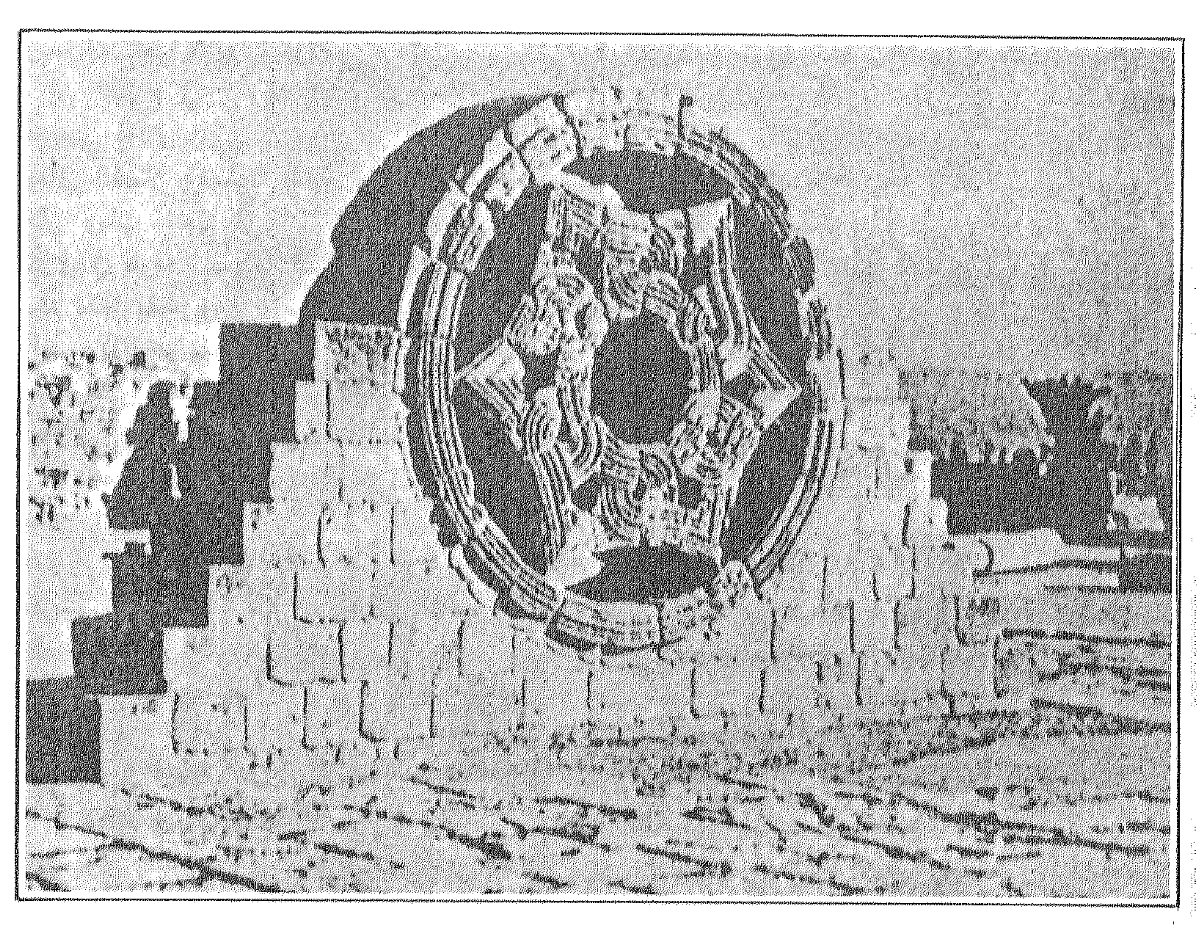
يقع مدخل الصحن الأمامي في الجهة الجنوبية منه. وكان محاطاً من ثلاث جهات، أي الجهة الشرقية والجهة الشمالية والجهة الجنوبية، برواق مظلّل، وفي وسطه تقريباً على بعد ستين متراً من المدخل بركة في وسطها نافورة. وكانت النافورة مسقوفة بقبة تحيط بها مثمّنة تماماً مثل سقف قبة الصخرة المشرّفة، وكان حائط البركة مزداناً بعقود صغيرة.

والقصر مربع الشكل تقريباً، قائم حول صحن مربع داخلي محصن بأبراج مستديرة في زواياه الأربع وبأبراج نصف مستديرة في منتصف الحائط الشمالي والغربي. وفي وسط الحائط الشرقي اقيم مدخل محاط ببرجين مربعين هائلين. وفي منتصف الحائط الجنوبي اقيم برج مربع ربما كان المئذنة. وكانت واجهة المدخل مزينة بنقوش مسدسة الشكل، وبأفريز من الحجارة المنقوشة بأشكال هندسية.

وعلى جانبي المدخل رواقات ذوات طابقين، في الطابق الأسفل انتصبت مجموعة من أربعة أعمدة متلاصقة قائمة على قاعدة مربعة. ويعلو الأعمدة أقواس، أما في الطابق الأعلى فهناك أعمدة من المرمر والأقواس محفورة بإطار ضيق. وأقيم بين الأعمدة درابزين من الجبس المنقوش بشكل أعمدة وأقواس صغيرة.

وتقوم على جانبي المدخل مقاعد مزوّدة بمتكآت. وفوق المقاعد إطار مزخرف بأشكال نباتية، وفوق الاطار ثلاثة محاريب على كل من جانبي المدخل يحدّ كلا منها عمودان. ويعلو كل محراب نصف قبة مزخرفة بأشكال نباتية وهندسية. وفوق المحاريب إطار آخر مزخرف بأشكال نباتية. وهذا المدخل كان مسقوفاً بعقد حجارته منحوتة بشكل الأعمدة. وعند واجهة المدخل كانت هذه متوجة بتيجان كورنثيّة صغيرة يبدو وكأنها مجموعة من المحاريب المتلاصقة.

والمدخل مبلط بالحجر الأسود المستورد من مكان قرب مقام النبي موسى. وفي مؤخرة المدخل باب القصر الذي كانت عضادتاه وعتبته مزخرفة بأشكال هندسية ونباتية كل شكل يختلف عن الآخر وقائم ضمن مربعة مستقلة.



ويؤدي الباب إلى إيوان كبير مزوّد على جانبه أيضاً بمقاعد ذوات متكآت. ويحيط بالمقاعد ويفصلها بعضها عن بعض مجموعات من الأعمدة كل مجموعة تحتوي على ثمانية أعمدة. وكانت هذه الأعمدة والجدران بينها مغشاة بالجبس ومحفورة جميعها بأشكال هندسية يعلوها تماثيل نصفية لأشخاص وحيوانات بينها نساء نصف عاريات يحملن باقات من الزهر.

وهذا الايوان مثل المدخل مبلط ببلاط من الحجر الأسود.

ويقسم الجناح الشرقي من القصر إلى قسمين: كل قسم منهما يحتوي على ثماني غرف، أربع منها تؤدي إلى الرواق الشرقي والأربع الأخرى تطل على الصحن الأمامي. وليس هناك من أبواب بين هذه الغرف والغرف المجاورة الآنفة الذكر. أما جدران غرف الطابق الأعلى فمزخرفة بصورة ملونة وجدت بين الأنقاض في الطابق الأسفل، كما أنها كانت مرصوفة بالفسيفساء، وقد وجدت منها قطع بين الأنقاض في الطابق الأسفل.

وتتوسط الجناح الغربي من القصر دار مؤلفة من إيوان في الوسط وغرفتين على كل من جانبي الايوان تتصل إحداهما بالأخرى بعدة أبواب. وكان الايوان مسقوفاً بعقد (جملون قائم على قوسين من كل جانب. فالأقواس والجدران مبنية من الحجارة، والعقود مبنية بالطوب المشوي. والغرف الأربع المجاورة مسقوفة بعقود أيضاً، والمجموعة بأسرها مرصوفة بالطين. وزيادة على هذه المجموعة كان على كل من جانبيها مجموعتان من الغرف كل واحدة منها مؤلفة من غرفتين يلي ذلك في طرفي الجناح إيوان كبير مربع.

ويتألف الجناح الشمالي من القصر من أربع غرف مستطيلة يتوسطها جامع صغير مزوّد في الجهة الجنوبية بمحراب صغير، وربما كان هذا المسجد خاصاً بالخليفة. والظاهر أن جدران الجامع كانت مغشاة بقطع من المرمر. والجامع والغرف المجاورة كانت مطينة بطين زهري اللون.

ويحتوي الجناح الشمالي على إيوان كبير يمتد من طرف آخر وله باب واحد يؤدي إلى الرواق الشمالي، وكان مسقوفاً بأقواس تحمل العقود،

وربما أعدّ هذا الايوان للولائم.

إن الدرج في الطرف الشمالي من الرواق الغربي يؤدي إلى باب يفضي إلى الحمام الكبير شمالي القصر والمسجد الكبير بجانبه، وللمسجد بابان وباب خلفي قرب المحراب وثلاثة أبواب أخرى في طرف المسجد الشمالي. وللمسجد باحة قسم منها فقط، وهو القسم الجنوبي، مسقوف والقسم الآخر مفتوح على الخلاء. وفي حائطه الجنوبي محراب صغير يكتنفه عمودان صغيران. ويتألف القسم الجنوبي من صفين من الأعمدة ترتكز عليها أقواس تحمل بدورها العقود المصلبة.

ويؤدي الباب في الطرف الشمالي من الرواق الغربي من القصر إلى ممر ضيق مظلل يصل القصر بالحمام الكبير.

ويقع الحمام الكبير غربي الطرف الشمالي من الصحن الأمامي ويفضي إليه بواسطة باب كبير. ولهذا الحمام صحن أمامي صغير يؤدي بذات الوقت إلى الجامع الكبير الواقع جنوبه.

يحتوي الحمام على إيوان كبير للهو وبركة للسباحة وحمام بالماء الساخن وحمام بالهواء الحار ومرحاض.

وإيوان اللهو بناء مربع تقريباً ومزود بثلاث حنايا في جهاته الشمالية والجنوبية والغربية. ومدخل الحمام الرئيسي، في وسط الجهة الشرقية، مواجه لباب الباحة الصغيرة بين المسجد والحمام. وهناك حنيتان أخريان على جانبي مدخل الحمام الرئيس. وثمّ عدا المدخل الرئيسي بابان صغيران أحدهما في الطرف الشمالي من الحائط الشرقي والآخر في الطرف الجنوبي عدا الباب الصغير الذي يؤدّي إلى الممر الذي يصل الحمام بالقصر. وفي الحنيّة الشمالية الغربية باب آخر يؤدي إلى حمامات الماء الساخن والحمامات الحارة. وهناك أيضاً باب سادس يؤدي إلى غرفة المراحيض.

إن إيوان اللهو مقسم إلى عشرين قسماً بستة عشر عموداً ضخماً كل واحد منها مكوّن من أربعة أعمدة مستديرة تتخللها أربعة أعمدة مربعة. وتيجان هذه الأعمدة مزخرفة بأوراق (الأكانث).

وتكوّن الحنايا الثلاث في جنوب إيوان اللهو وثلاثة من أقسام الايوان بركة للسباحة مفصولة عن الايوان بحاجز يبلغ علوه ١,٢٠ متراً وتوصل إليه درجات من الحجر الأسود. وهناك أقنية لماء بركة السباحة، وأقنية أخرى لتصريف الماء بعد الاستعمال.

وفي الحائط خلف الحنايا في إيوان اللهو رفوف صغيرة بعضها مربع والآخر مستدير تعلوها الأقواس الصغيرة.

وإيوان اللهو والحنايا المحيطة به مرصوفة بالفسيفساء المتعددة الألوان بطريقة فنية أنيقة.

ويؤدّي الباب في الحنية الشمالية الغربية إلى غرف فيها مغاطس للاستحمام بالماء الساخن، وأخرى مزودة بأتون تحت الأرض جدرانه مغشاة بالأنابيب لتسهيل مجرى الهواء الساخن إلى مدخنة في أعلى الغرفة. وهناك غرفتان للاستحمام بالهواء الساخن واحدة مربعة والأخرى مستديرة ومزودة بحنايا في حيطانها.

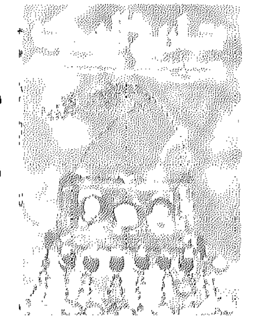
ويفضي الباب في الزاوية الشمالية الشرقية من إيوان اللهو إلى غرفة المراحيض. وهناك مقعد مثقوب بثقوب مستطيلة تحته قناة لمياه تنظيف المراحيض، وفي وسط الغرفة نافورة ضمن طشت صغيرة من الحجر. وهذا المرحاض منقول عن مراحيض مشابهة في العهد الروماني وجدت في صبراطة في ليبيا وسلاميس في قبرص.

وفي الزاوية الشمالية الغربية من الايوان غرفة صغيرة للاستراحة في مؤخرتها حنية كانت مرصوفة بالفسيفساء بشكل شجرة على جانبها الأيمن أسد يفترس غزالاً وعلى جانبها الأيسر غزالان يرعيان العشب الأخضر. وجدران هذه الغرفة وسقفها مغشاة بالجبس المنقوش بأشكال هندسية ونباتية. وكان يزين السقف وردة كبيرة بين أوراقها رؤوس رجال ونساء». •

المراجع: الموسوعة الفلسطينية، المجلد الرابع، الطبعة ١٩٨٤.



□ جامع الأزهر ـ المجاز والأروقة ٣٥٩ ـ ٣٦١هـ / ٩٧٠ ـ ٩٧٢م



□ عقد من الفضة مرصع بثلاث حبات من العقيق الأحمر.
من كتاب:
SAAD AL-JADIR
Arab & Islamic
Silver